جامعة النجاح الوطنيّة
كليّة الدراسات العليا
قســـم اللغة العربيّة

اللون و أبعاده في الشعر الجاهليّ

شعراء المعلقات نموذجا

إعداد :
أمل محمود عبد القادر أبو عون

بإشراف :
د. إحسان الديك

قدّمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة بكليّة الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنيّة
نابلس ـــ فلسطين
2003 م

اللون وأبعاده في الشعر الجاهليّ
شعراء المعلقات نموذجا

إعداد :

أمل محمود عبد القادر أبو عون

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 5 / 4 / 2003 وأجيزت

أعضاء اللجنة	التوقيع
1. د. إحسان الديك رئيسا	....
2. أ.د. إبراهيم الخواجا عضوا	....
3. أ.د. حسن السلواديّ عضوا	....

الإهداء

إلى ذلك البليغ في صمته الذي علمني المثابرة والإصرار والدي

إلى من علمتني الصبر والتضحية إلى نبع الحنان أمي

إلى المخلص الذي آزرني في هذا المشوار زوجي

إلى من كانوا لي عوناً وسنداً، أخوتي وأخواتي

إلى أجمل زهرتين في حياتي، إلى ابنتيّ "رواء" و"جنى"

إلى الأرض التي رعتنا بدفء وحنان، إلى أرض الوطن فلسطين

أهدي هذه الأطروحة

أمل أبو عون

الشكر

رغم الآلام والصعاب تبقى هذه الأرض تعطي، وتستمر الحياة بإصرار هذا الشعب الصابر المرابط، وفي رحلة العطاء هذه هناك العديد من الرواد والقادة الذين يقدمون خلاصة فكرهم لهذه الأمة جيلا بعد جيل، فلا يسعنا إلا أن ندين بالعرفان والشكر لهؤلاء الأساتذة في صروحنا العلمية الشامخة، وأخص بالذكر:

_ الأستاذ الدكتور إحسان الديك، الذي تفضل بالإشراف على إنجاز هذه الأطروحة، وقام بتوجيهي إلى المصادر القيمة، وقدم الإرشادات والتوجيهات السديدة .

_ كلا من الأستاذين: د. إبراهيم الخواجا، ود. حسن السلوادي، اللذين تفضلا بمناقشة هذه الرسالة، وتوجيه الآراء القيمة، والمساهمة في تنقيح اللغة والطباعة.

_ الأستاذ الدكتور جاسر أبو صفية (الجامعة الأردنية) الذي قدم خلاصة تجربته مع الألوان، وقدم العديد من المراجع المفيدة للبحث .

_ زوجي الأستاذ طارق علاونة وشقيقي المهندس جواد أبو عون، اللذين ساعدا في طباعة ومراجعة هذه الأطروحة .

_ كل من ساهم أو ساعد في إنجاز هذه الأطروحة .

أمل أبو عون

الفهرس

الملخّص

تدور هذه الرسالة حول الألوان : أبعادها ودلالاتها في الشعر الجاهليّ ، متّخذة شعراء المعلّقات العشر نموذجا ، وقد قسّمت إلى أربعة فصول على النحو الآتي :

الفصـــل الأوّل ، وقـــد اشتمل على مبحثين : تناول الأوّل دلالات الألوان في الموروث الإنســـاني ،بيـــنما اخـــتصّ الثانـــي بدراسة الألوان في الموروث الجاهليّ، وذلك استنادا إلى الأساطير، والتاريخ الحضاريّ القديم.

ومـــن نـــتائج هذا الفصل ملاحظة الاتصال الفكريّ بين الموروث الجاهليّ والموروث الإنسانيّ؛ فكلاهما يدور في مجال واحد في تعامله مع الألوان، وقد اتّضح فيه موقف المجتمع البشـــريّ المحـــبّ للأبـــيض ، الكـــاره للأســـود ، المتفائل بالأخضر، الخائف من الأحمر ، المضـــطرب في تعامله مع الأصفر والأزرق تبعا للدرجة اللونيّة لكلّ منهما ؛ فالأصفر الفاقع لـــون يثـــير الفـــرح ، وهو دليل خير ونعيم ، بينما يمثّل الباهت منه لون المرض والذبول . والأزرق القاتم يثير الشؤم والأحزان ، في الوقت الذي يمثّل لون السماء منه الصفاء والهدوء والقداسة .وينفرد العرب في تعاملهم مع الأزرق بشكل عامّ ، فهو يمثّل الشرّ، والبطش ،وذلك عائد لعلاقتهم بجيرانهم الروم ، الذين عرفوا بزرقة العيون .

ومـــن نـــتائجه أيضـــا محاولـــة التأصيل ، أو تفسير بعض العادات اللونيّة السائدة في مجتمعـــنا، مثل : ارتداء العروس للون الأبيض ، واستخدام العين الزرقاء للوقاية من الحسد، وطقـــوس الحنّاء المتّبعة في الأعراس الشعبيّة . فقد تمّ ربط بياض ثوب العروس بالإلهة الأمّ "هـــيرا"، التي كان يُعتقد أنّها تمنح الخصب للنساء . أمّا العين الزرقاء فقد تكون عائدة بدورها إلى عين "أرتمس" إلهة الصيد عند اليونان . أمّا الحنّاء فقد ربط بالدم الذي يمثّل لون الحياة، لا سيّما الدم الذي يتدفّق مع المولود .

وجـــاء الفصـــل الثانـــيّ لتتبّع الألوان في الشعر الجاهليّ ، والكشف عن مواطن اللون المختلفة ، ونظرة المجتمع للألوان في تلك المواطن .وقد لاحظت الباحثة سعة انتشار الألوان في الشعر الجاهليّ ، واختلاف دلالات الألوان باختلاف الموطن او الشيء المُلوَّن : فقد أحبّ الشـــعراء الســـواد _ علـــى سبيل المثال _ عندما يكون لونا للعين ، إو الشَّعَر ، وكرهوه في البشرة . وفضّلوا المطايا البيضاء في العطيّة والسفر ، في حين اختاروا السود منها للصيد أو الحروب . وكان الأحمر لونا يثير البهجة في الثياب، والقِباب، والحلي، والخضاب ،وهو لون

مقدّس عند ارتباطه بالنار أو الخمرة ، مشؤوم في السماء ولون البشرة ... وهذا يؤكّد أنّ دلالة هذه الألوان لم تكن فكرة مجرّدة ، بل جاءت لارتباط الألوان بحقول دلاليّة مختلفة .

أمّـا الفصـل الثالث فكان وقفة لتحليل دور الألوان في الصورة الفنّيّة ؛ إذ لعبت الألوان دورا بـارزا فـيها ، ولم يترك الشاعر جزءا من لوحته إلا وقد لوّنه بدقّة وعناية، حتّى بدت اللوحة الشعريّة أشبه بلوحة زيتيّة متقنة الألوان والأشكال .

وقد سعى الشعراء إلى تكثيف اللون ، وذلك باستخدام كلماتٍ عديدة تدلّ عليه في اللوحة الواحـدة ، كما حرصوا على الجمع بين أكثر من لون ، لاسيّما الألوان المتقابلة ، في اللوحة الواحدة . ومما يلفت الانتباه هنا ارتباط الألوان التي يختارها الشاعر بالجوّ النفسي له ؛ فعندما يذكـر عنترة سواده فإنّه يختار المسك ، والمحار الذي يغطّي الدرّ ، وسواد العيون شبّها له، ولكنّه في وصف مطايا الظعينة يختار الغراب الأسود .

وفي الفصل الرابع تمّ عرض أبعاد الألوان ،وهي : البُعْد الدينيّ أو الأسطوريّ ، والبعد النفسـيّ ، والـبعد الاجتماعيّ . ومن النتائج التي خلص إليها هذا الفصل رؤية جديدة لبعض الصـور التـي دأب الشعراء على تردادها ، ومن أبرزها نجد صورة عنترة الذي شبّه نفسه بالآلهـة في أكثر من موضع . ومنها تفسير الاستمطار للقبور ، الذي ذكّرنا بطقوس الربيع، وعـودة " أدونيس " للحياة بصورة نبتة خضراء . إضافة إلى تفسير لوحة المرأة ، والممدوح في الشعر الجاهليّ في ضوء الأساطير القديمة .

أما البعد النفسيّ فكان صدى لدلالات الألوان في الفكر القديم، والمجتمع الجاهليّ . ومن جديـد هـذا الفصل ما ورد في خصوصيّة كلّ شاعر في اختيار حزمته اللونيّة ، وتعامله مع الألوان، وذلك تبعا لموقفه النفسيّ ، وتجربته .

وكشف البعد الاجتماعيّ عن دور الألوان في المواقف المختلفة ، ودلالاتها الاجتماعيّة؛ فكـان الأسـود فـي الثياب لون الحداد، والذلّ، والفاقة ، والأحمر لون البغايا والمعشوقات ، والأخضر لون السيادة والنعيم ... .

اعـتمدت الدراسة على المنهج التكامليّ في العرض والتحليل . وتنوّعت المصادر من المعـاجم ، وكتب الأدب ، والتاريخ ، والحضارة ، والفنون ، وطائفة أخرى من العلوم ، في سبيل الوصول إلى المعرفة ، فأرجو أن تكون نتيجة هذا الجهد مرضية .

والشكر لله على تسديد الخطى .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمـد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد ،صلى الله عليه وسلم ، أما بعد ،

فـان اختـياري لـلأدب الجاهلـي موضوعا للدراسة ناتج عن علاقة وثيقة تربطني بهذا التراث، فقد نشأت على تقديره والإعجاب به لما كان عمي ــ رحمه الله ــ يرويه لنا باستمرار من قصص و حكايات شعبية تعود لهذا العصر ، مثل حكاية الزير سالم ، و قصة عنترة العبسي ... ولِمـا كان والدي ــ أدامه الله ــ يتمثل به من أشعار تلك الحكايات باستمرار ، فشعرت أن هذا العصر يستحق الاحترام و التقدير . ولا أدري إن كان ذلك شعورا لا إراديا نابعا من الحنين إلـى الماضي تسرب إليَّ من اللاوعي الجمعي .أو الشعور بقوة الأمة العربية في ذلك العصر ، المفقودة في أيامنا هذه .

ولـذا فإننـي لم أتردد عندما بدأت بالبحث والدراسة لتحديد عنوان الأطروحة في اختيار الأدب الجاهلـي . ومـا أن بدأت بالقراءة حتى تبين لي أن هذا الأدب ــ على الرغم من كثرة الدراسات التي أقيمت حوله ــ لم يوفَّ حقه ، فهناك كثير من الزوايا المعتمة ، و المواقف التي ألمـح إليها الباحثون ، ما زالت بحاجة إلي التنقيب والدراسة بشكل أعمق . حتّى يتسنّى لنا فهم الإنسان الجاهلي ، ومن ثم فهم سلوك الإنسان المعاصر سليلا لذلك الجيل الذي تسرب فينا عبر الجيـنات . ففهـم الإنسان المعاصر يزداد عمقا بعد الدراسة المتأنية للأجيال السابقة ، ومراقبة المتغيرات التي طرأت عليها . و العصر الجاهلي هو حلقة رئيسة في هذه الدراسة ، تساعد في كشف غموضها ، وتوجيهها .

ومن بين تلك الزوايا اخترت الألوان وهو موضوع سبقت الإشارة إليه في بضع دراسات أكثرها مقالات في الدوريات تبحث في ظاهرة الألوان بشكل عام ، وفيما يتعلّق بالشعر الجاهلي نجد دراسة للدكتور خليل عودة بعنوان : " المستوى الدلالي في شعر عنترة " ، وهو عبارة عن بحـث منشور في مجلة جامعة الأزهر في غزة /ع1 ، 1996 . وفصلا في كتاب " قراءة ثانية في شعر امرئ القيس " بعنوان : شاعرية الألوان للباحث محمد عبد المطلب . وأخيرا نوقش في رسـالة جامعـية في الجامعة الأردنية قدّمتها لارا عبد الرؤوف شفاقوج بعنوان " أثر اللون في نفـس عنـترة مـن خلال شعره ، دراسة أدبيّة ونفسيّة " ، ولكنها قصرت الدراسة على عنترة العبسي مع التركيز على الجانب النفسي فقط .

تكمــن أهميّة هذه الدراسة في أنّها تتجاوز الدراسات الوصفيّة الكثيرة التي تناولت الشعر الجاهليّ ، وذلك من خلال العودة إلى الأوليّات ، ومنابع الفكر الإنسانيّ عامّة ، والجاهليّ خاصّة فــي تناول هذه القضيّة ، وتفتح المجال أمام كوكبة من شعراء الجاهليّة الذين وظّفوا الألوان في شــعرهم ، بحيث نخرج في النهاية بفكرة أشمل عن هذا العصر ، وليس الاقتصار على شاعر معيّن .

ونظرا لاتساع المادة فقد رأت الباحثة أن تخصّص الدراسة في نموذج محدّد ، واعتبار هذا النموذج عيّنة للبحث ، وهذه العيّنة تمثّل شعراء المعلّقات السّبع . ولتجاوز الخلافات حول هؤلاء الشعراء فقد تمّ اعتماد جميع الشعراء الذين يرجّح أن يكونوا من أصحاب المعلّقات ، ليصل بذلك عــدد الشــعراء إلــى عشــرة شعراء ، وهي الأسماء التي اعتمدها التبريزيّ في كتابه " شرح المعلّقات العشر "

وهــذا البحــث يهــدف إلى تحقيق عدد من الأهداف ، مثل : استقراء حضور اللون في القصــيدة الجاهلــيّة ، ومحاولة تأصيل الدلالات اللونيّة التي استقى الشاعر الجاهليّ منها معانيه ولوحاتــه ، وتوضيح الوظيفة الفنيّة للون في الشعر ، وإعادة النظر في بعض المعاني والصور التي يجليها اللون ، ويكشف غموضها .

وتحقــيقا لهذه الأهداف فقد عرض البحث في تمهيد و أربعة فصول . يحتوي التمهيد على مقدمــة فــي الألوان ، و مفرداتها ،ودراسة لألفاظ الألوان الأساسية دراسة صوتية في محاولة للربط بين اللفظ والمدلول .

أمــا الفصــل الأول فقد عالج الألوان في الموروث القديم ، وقد قسم إلى مبحثين ، تناول الأول الألــوان في الموروث الإنساني ، والثاني الألوان في الموروث الجاهلي . وذلك من اجل التأصيل لهذه الظاهرة ، ومعرفة الخلفية التي انبثق منها الشعراء .

و تــناول الفصل الثاني مواطن اللون في الشعر الجاهلي مع بيان موقف الشاعر من تلك الألوان الذي كان يتغير بتغير الموطن الذي يرد فيه اللون .

أما الفصل الثالث فعالج اثر اللون في الصورة الشعرية ، وذلك باستقراء عدد من اللوحات الشــعرية وبيان ما فيها من جماليات الألوان ، ثم عرض الملاحظات حول طرائق الشعراء في التعامل مع هذه الألوان واختلافهم في ذلك .

واشتمل الفصل الرابع على أبعاد الألوان في الشعر الجاهلي وهي البعد الديني والأسطوري لهـا ، ثـم البعد النفسي ، فالاجتماعي . يلي ذلك خاتمة اشتملت على النتيجة التي خلص إليها البحث خلال فصوله السابقة .

وقـد اعـتمدت الدراسـة علـى المنهج التكامليّ في دراسة الأدب ؛ إذ استفاد البحث من الـنظريّات الحديـثة فـي علـم النفس والميثولوجيا ، والمنهج السيميائيّ في تحليل النصوص ،والمنهج الوصفي ،والإحصائي في عرض المادة ، واعتمد على الدراسة التاريخيّة والاجتماعيّة في معرفة طبيعة العصر ، والأرضيّة التي تولّدت فيها هذه القصائد .

ولـن أخفي ما اكتنف عملية البحث من صعوبات أبرزها قلة المادة وتوزعها في مراجع عديـدة على شكل ومضات أو ملاحظات سريعة تطلب الحصول عليها الجهد الطويل ، إلى أن تمكّنت من جمع مادّة يمكن الاتكاء عليها في الدراسة . راجية المولى أن يلهمني الصواب ، في تحقيق الأهداف المرجوّة .

التمهيد :

يدلّ لفظ اللون في اللغة على تغيّر الهيئة والصورة ، فهو لون البشرة الخارجيّ والغطاء الذي يظهر للعيان للأجسام المختلفة في هذا الكون . والتلوّن يعني تغيّر الصورة من شكل إلى آخر ، ومن حال إلى أخرى .[1]

يبدأ هذا اللفظ باللام التي تدلّ على دخول شيء في شيء آخر ، مما يشير إلى تركيب اللون من عناصر عديدة في صورة واحدة ، يظهر منها العنصر الذي يسود بنسبة أعلى من غيره في هذا التركيب المتداخل .[2]

وألفاظ الألوان في اللغة العربيّة كثيرة بحيث نجد عشرات الأسماء للتعبير عن اللون الواحد وهي تختلف باختلاف درجة اللون ، وهو ما عرف في المصادر القديمة باسم إشباع اللون أو تأكيده .[3]

وقد اختلفت هذه الأسماء للون الواحد باختلاف الحقل الدلاليّ الذي يرد فيه ؛ فالأبيض في الإنسان يختلف عنه في الحيوان وهكذا .[4]وكان الجاهليّ يعبّر عن أدق الفروق في ألوان البيئة المحيطة .[5]

وسوف أقوم بتصنيف الألوان في هذا البحث إلى ستة أقسام هي: الأسود ، والأبيض والأحمر ، والأخضر ، والأصفر ، والأزرق. وذلك لكون هذه الألوان هي الألوان البؤريّة في المعجم العربيّ[6].وبقية الألوان تنضوي تحتها . فالكميت هو ما كان لونه بين الأحمر والأسود

---

(1) ابن منظور : **لسان العرب** . بيروت : دار صادر . 1955 . (لون)

(2) ابن فارس ، أبو الحسين أحمد : **مقاييس اللغة** . تحقيق عبد السلام هارون . بيروت : دار الفكر . 1979 . فصل اللام والنون وما يثلثهما

(3) د. خليفة ، عبد الكريم : *الألوان في معجم العربيّة* . **مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني** . السنة 11 . تموز ـــ كانون أول 1987 / ع33 . ص 36 ـــ 37

(4) د. أبو صفيّة ، جاسر خليل : *الدقة العلميّة في مسمّيات الألوان في اللغة العربيّة* . بحث قدّم في المؤتمر العلميّ الأول حول الكتابة العلميّة باللغة العربيّة . بنغازي . آذار 1990

(5) جبري ، شفيق : *لغة الألوان* . **مجلة مجمع اللغة العربيّة** بدمشق . نيسان 1967 . ص 200 ـــ 201

(6) ينظر : صالح ،قاسم حسين : **سيكولوجية إدراك اللون والشكل** . بغداد : دار الرشيد . 1982 .ص 108

مــن الخيل والإبل ، إذا غلبت عليه الحمرة ، ولذا فهو يلحق بالأحمر[1]. والبني يلحق بالأحمر كذلك [2]، وهكذا .

ويأتي على رأس هذه الألوان الأسود والأبيض ،وهما لونان متعاكسان ،إذ يرتبطان بالليل والنهار، أو بالظلمة والنور ،وهما لذلك لونان متداولان في جميع الحضارات.

يلــي ذلــك الأحمــر ،وهو من أوضح الألوان لارتباطه بالدم ولكنه متعدد الدلالات إلى درجة التــناقض أحيانا. يليه الأخضر وهو لون مستقر ثابت لارتباطه بالنبات والخصب. يليه الأصفر فالأزرق وهما من أقل الألوان شيوعا في الموروث الإنسانيّ لاسيما الجاهليّ ، وترجع أهميتهما إلى اقتران الأصفر بالشمس والأزرق بالسماء.

وإذا نظرنا في هذه الألوان الرئيسة وجدنا أنّ الألفاظ التي استخدمت للتعبير عنها جاءت مناسبة لها ؛ فالأسود لفظ يدلّ على الغوص في الأعماق حيث الظلمة والعتمة . وقد استشفّ هذه الدلالة من حدّة الدال واتّساع الواو .

أمّا الأبيض فهو لفظ يدلّ على الإشعاع والانطلاق لما فيه من اجتماع الياء الدالّة على الاتساع ، والضاد بما فيها من نفور وإفلات من المركز . والأبيض كما نلاحظ يقابل الأسود في الدلالة والتركيب الصوتي .

يماثلهمــا في هذا التقابل الأخضر والأصفر ؛ فالصفرة لون يدلّ على الذبول ، والجفاف ، لما فيه من خفّة الفاء ، وما تفيده الراء من التكرار ، مما جعله يبدو في لفظه كنبتة هزيلة ، جافّة تطــير مــع حركة الريح . بينما يدلّ الأخضر على الخصب والحياة ، لما في الخاء من طراوة وامــتلاء بالمـــاء ، ويساعد تكرار الراء على جريان الماء في العروق ، مما يزيد في طراوته ونداوته .

أمّا الأحمر فهو لون فيه التوهّج والحرارة المستمدّة من الحاء . ويدلّ الأزرق على العبور والنفاذ إلى قرار معيّن .

---

[1] ينظر في تسميات الأحمر في الخيل عند :الخطيب الإسكافي ، الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله (421هــ) : **كتاب مبادئ اللغة** . ط1 . بيروت : دار الكتب العلمية . 1985 . ص 121 ، أو عند أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (209هــ) : **كتاب الخيل** . تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد . ط1 . القاهرة . 1986 . ص 231 ــ 234

[2] جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ط1 . عمان : دار المسيرة . 1998 . ص 66 ، 68 ، 96

وأيّا كانت الدلالة التي يحملها اللفظ اللونيّ ، ومهما نجح اللفظ في التعبير عن الألوان ، فقد استقرّت الألوان في وجدان الأمّة على نحو خاصّ ، وارتبطت بأمور عديدة في البيئة والحياة ، مما ساهم في تشكيل تصوّر عام لهذه الألوان . وقد تعاقبت الأجيال على نقل هذه الدلالات بوعي أو دون وعـــي مـــنهم[1]، حتّى أصبحت أشبه بدستور عام يتّبعه البشر ، فالأحمر يعني الدفء والخطر والأخضر يعني الخلود ، وما إلى ذلك من دلالات . ومع تقدّم الأجيال ضعف الربط بين اللفــظ ومدلوله اللونيّ ، وبقيت الدلالات الاجتماعية والنفسيّة للألوان[2]، وهي من أبرز الأمور التـــي شـــغلت الـــناس في العصر الحديث ، عصر الثورة اللونيّة وانتشار الألوان الصناعيّة .

---

[1] ينظر في الوعي واللاوعي في علم النفس عند : جاكوبي ، يولاند : **علم النفس اليونغيّ** . ترجمة : ندرة اليازجيّ . ط 1 دمشق : مطبعة الأهاليّ . 1993 . الفصلين الأوّل والثانيّ

[2] للتوسّع في هذا المجال ينظر : دراغمة ، مريم هاشم سليمان : **ألفاظ الألوان في اللغة ، دراسة دلاليّة في علم اللغة الاجتماعيّ والنفسيّ** . رسالة جامعيّة مخطوطة . جامعة النجاح الوطنيّة . 1999 . الفصل الثانيّ .

الفصل الأول

الألوان في الموروث القديم

يتناول هذا الفصل دراسة الألوان في الفكر القديم ،دراسة وصفية تحليلية ، بدءا بالموروث الإنسانيّ بعامة ، يليه الموروث الجاهليّ ، وذلك لبيان ما بينهما من اتصال واختلاف . وسوف يتم ذلك بالعودة إلى الأساطير القديمة ، والنصوص ، والنقوش التي تعود إلى ذلك العصر .

المبحث الأول:الألوان في الموروث الإنساني

اللون الأسود

يرتبط الأسود بمعانٍ عديدة يمكن تلخيصها بالموت والدمار من جهة ،والشر والمهانة من جهة ثانية ، إضافة إلى القداسة والوقار في بعض المواقف ، وهذه المعاني مازالت شائعة له حتى يومنا هذا.[1]

فالأسود لون يثير الحزن و التشاؤم و الخوف من المجهول لارتباطه بأشياء منفّرة في الطبيعة دون سائر الألوان؛ فهو مرتبط بالليل و الظلام،والزفت و السخام،والهباب والرماد المتخلف عن الحريق.[2]

ولعل ارتباطه بالليل والظلام ، وجلبه لمشاعر الخوف هو السبب المباشر للنفور منه ، فالظلام يحد الرؤية ، ويحجب الحقيقة ، ويكون مجالا خصبا للأوهام والتهيؤات ، على العكس من النور المبصر ،الذي يرى الإنسان فيه الخطر قبل أن يدهمه ، فيحمي نفسه منه ، ومن هنا كان الأسود رمزا للخوف والشر الذي يجب أن نقاومه ، ونقف في طريقه ، ومن هنا أيضا نشأ الصراع بين الأبيض والأسود ؛ فالأبيض لون النور والخير ، والأسود لون الظلام والشر، ونحن نجد صدى لهذا الصراع في ديانة الفرس القائمة على الصراع بين الخير والشر،بين النور والظلمة.[3]

وكذلك نجد صدى لهذا الصراع في دائرة (اليانج–ين)في الفكر التاوي فاليانج يمثل الأبيض أي الموجب في الحياة، والين يمثل الأسود أي السالب وهما في دائرة واحدة تمثل تداخل الخير والشر وتكاملهما في هذه الحياة .[4]

ولاقتران الأسود بالظلام أصبح هذا اللون مرتبطا بعالم الأموات ، حيث ينتهي المقام بالإنسان في الحياة ، وينتقل من الحياة على وجه هذه البسيطة إلى الحياة في رحم الأم الكبرى "الأرض" . وقد رمز الهنود للعالم السفلي باللون الأسود ، مقابل العالم العلوي الذي رمزوا له

---

[1] رياض ، عبد الفتّاح : **التكوين في الفنون التشكيلية** . ط2 . القاهرة : دار النهضة العربيّة . 1983 . ص 260

[2] عمر ، أحمد مختار: **اللغة واللون** . ط2 . القاهرة : عالم الكتب . 1997. ص 200 – 205

[3] د. عليّ ، رمضان عبده : **تاريخ الشرق القديم وحضارته إلى مجيء الاسكندر الأكبر** . القاهرة : دار نهضة الشرق . 1997 . ص 150

[4] السوّاح ، فراس : **لغز عشتار ، الألوهة المؤنّثة وأصل الدين والأسطورة** . ط5 . دمشق : دار علاء الدين . 1993 . ص 168

بألوان كثيرة[1]. وجاء هذا الوصف القاتم للعالم السفلي أيضا عند اليونان في أساطيرهم في قصة خطف (بيرسفوني) على يد (هادز)[2].

ولمـــا كـــان الميت يغيب في عالم أسود قاتم فلا عجب أن نجد الأسود لونا للحداد في العديد من الحضارات،فالأسود يعني التجرد من مباهج الحياة ، والرغبة في الموت أو الفناء بعد هـــذا العزيز الراحل . فقد كان المصريون القدماء في الأيام التي تقام فيها طقوس (أوزوريس) ينصـــبون تمثالا خشبيا لبقرة متشحة بالسواد يرمز للإلهة (إيزيس) في أثناء حدادها على ولدها وقد يحمل تمثال البقرة هذا ويطاف به لنشر الحزن وعمومه على(أوزوريس)[3].

ولم يقتصر اللون على وصف العالم السفلي بل تعداه إلى وصف الآلهة المسيطرة على هذا العالم كما نجد في وصف (هادز) عند اليونان[4]، فهو ملك وجهه أسود يرتدي درعا أسود ، ويتـــنقّل فـــي عـــربة سوداء ،فكأنه الموت يتنقّل على سطح هذه الأرض ليخطف من يشاء إلى عالمه.

ومن صور عشتار أنها سيّدة الموت والدمار وهنا تبدي لنا وجهها الأسود وصورتها البشعة.[5]ومن صورها أيضا تظهر بوجهين منير ويعني الحياة ، ومظلم ويعني الموت ، وتلد توأمين: أبيض يمثّل الحياة و أسود ليمثّل الموت ، والأسود في هذه النقوش يزداد قتامة حتى يتحول إلى شيطان.[6]

و من الآلهة السوداء ذو شرى وهو أهم آلهة الأنباط ، ويرمز له بشكل مسلّة أو حجر أسود غير منحوت له أربع زوايا.[7]ومنها صورة الإله (ست) في العصر الفارسيّ ،وقد صوّر على شكل خنزير أسود.[8]

---

(1) عمر، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 162

(2) Robert Graves : **Myths of Ancient Greece** . London . Joan Kiddell- Monroe,Cassell . p 36

(3) فراس السواح :**لغز عشتار**، 326

(4) Robert Graves : **M yts of Ancient Greece** . p 30

(5) السوّاح ، فراس : **لغز عشتار** . ص 207 ــ 234

(6) السابق ، ص 210 ــ 212

(7) إسماعيل ، حلمي محروس : **الشرق العربي القديم وحضارته** . الإسكندرية : مؤسّسة الجامعة . 1997 . ص 270

(8) ارمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة** . ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر ، و د. محمد أنور شكري . ط1 . القاهرة : مكتبة مدبولي . 1995 . ص 449

ومن باب ارتباط الأسود بالموت أيضا تظهر صورة الإله (شو بن رع)على هيئة محارب جميل يقتل وهو في مركبه الأسود[1].

وهذه الصورة للآلهة السوداء تفسّر لنا وقار هذا اللون وقداسته من جهة ، ومهانته من جهة أخرى ؛ فهذه الآلهة ، على الرغم من النفور منها لما تمثله من الموت والدّمار ، تعتبر من الآلهة التي تستحق التقديس والاحترام .

ففي مصر القديمة مثلا كانت الأرض تقسم قسمين : السوداء وهي أرض الكهنة ، والحمراء وهي أرض البرابرة. [2] فلولا قداسة هذا اللون لما خصّ الكهنة أنفسهم به .

واستخدم هذا اللون أيضا للوقاية من الشرور فقد كان رسم الإله (شو بن رع)السابق يستخدم لهذا الغرض ، وعند قبائل (الجوجارت) كان الطفل يحمى مع الأمّ عن طريق حبل من الجلد ،أو قلادة من الخرز الأسود أو الأحمر توضع حول الرقبة،و ببقع سوداء من الهباب الأسود المخلوط بالزيت،[3] واستخدم الأسود في مصر للتمائم التي تجلب الحظ والخير.[4]

وقد يكون السبب في ذلك راجع إلى محاولة إرضاء هذه الآلهة ودرء سخطها،والاستعانة بقوتها المطلقة التي لا يقف في وجهها شيء ،فكأنّ اللون أصبح رمزا لهذه الآلهة ،والناس يستحضرونها بارتدائه، أو تقلّده لدفع الشّرور عن أنفسهم بقوتها و جبروتها .

ولمّا كانت هذه الآلهة تمثّل الموت الذي يفرّ منه الإنسان ويسعى لإبعاده عن نفسه قدر ما يستطيع ، ولارتباط الموت باللون الأسود أصبح هذا اللون مكروها مهانا من قبل فئة كبيرة من الناس . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ولذا سأكتفي بانتقاء بعض الأمثلة لدى حضارات مختلفة .

---

(1) ارمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 414

(2) السابق . ص33

(3) زناتي ، محمد سلام: **من طرائف العادات وغرائب المعتقدات** . مصر : النسر الذهبي . 1966 . ص 108

(4) د. كريم ، سيد : *السحر والسحرة عند قدماء المصريين*. **مجلة الهلال** . السنة83 . يناير 1975 . ع1/ ص 62

ففي مصر القديمة ، وفي العصر الفارسي تحديدا لم يكن الكاهن يقبل الأضحية إذا كان بها شعرة سوداء[1].فهذا يدلّ على نفورهم من هذا اللون الذي يمثل الإله (ست)كما أسلفنا .

ومــن ذلــك أيضــا ما نجده في الهند حيث يمثّل الأسود عندهم لون الخدم وفق الأساطير القديمة،[2]فالأسود أقلّ شأنا من غيره وعليه تقديم الطاعة والولاء لهم . وفي الأساطير الفلبينية يذكــر في قصة خلق الإنسان ،أنه تمّ أخذ حفنة طين ووضعت في الفرن فنسيها الإله واحترقت فجــاء الشعب الأسود ،وانعكس ذلك على طباعهم بالحدة والشدة ...،وفي المرّة الثانية أخرجت قــبل الأوان فجــاء الشعب الأبيض...وفي المرّة الثالثة أخرجت بعد أن أخذ الطين كفايته فجاء الشعب البرونزي من الفليبين و نحوها[3].

نلاحــظ في هذه الأسطورة النظرة الدونية للشعب الأسود الذي نسي في الفرن ،كما يعتقدون،ولم يتابع بعناية كغيره من الشعوب .وفي الأساطير اليونانية رفضت (أفروديت)الزواج من (هيفاستون)لسواد بشرته وشعرت أنه أمر مخجل أن تكون زوجة له[4] .

ولدى بعض الشعوب تستخدم أحجار معيّنة لكشف الكذب ، إذ تتحوّل إلى اللون الأسود في يد الشاهد الكاذب.[5] وهذا يدلّ على احتقار هذا اللون ودلالته على الكذب والشر والفساد.

ويرتبط هذا اللون أيضا بالغدر ، والخيانة ؛ ففي مصر القديمة كان الكلب الأسود في المنام يفسّــر بصديق نحترس منه ، بينما الأبيض هو صديق وفي[6] . وقد تكون هذه الصفة نابعة من ارتباط الأسود بالليل والظلام ،الذي يخفي الحقائق ، ويأتي بالشر من حيث لا يحتسب الإنسان.

---

(1) ارمان، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 448

(2) عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 162

(3) السواح ، فراس: **مغامرة العقل الأول** . دمشق : دار علاء الدين . 1988 . ص 48

(4) Robert Graves : **Myths of Anciet Greece** . p 20

(5) عمر، احمد مختار : **اللغة واللون** . ص 162

(6) د. كريم ، سيد *تفسير الأحلام عند المصريين القدماء*. **مجلة الهلال** .السنة 83 اكتوبر1975 . ع 10 / ص37 ، 40

اللون الأبيض

الأبـيض هـو ثاني الألوان دورانا ، وتكاد الحضارات تجمع على دلالة هذا اللون ، فهو رمز النقاء والطهارة والنظافة،[1] ورمز النور الإلهي ،[2] وهو لون الأمل والتفاؤل والحياة ، مقابل اللون الأسود رمز التشاؤم والموت والدمار.[3]

ومـن هنا نلاحظ دلالة هذا اللون على الخير والتفاؤل والقدسية ، وقد يكون السبب وراء ذلك علاقة الأبيض بالنور والإشراق كما مر في حديثنا عن ديانة الفرس .

ومـن جهة أخرى فإنّ الأبيض يمثّل لون الشيب و التقدم في السنّ الذي هو بدوره نذير بدنو الأجل ، وانقطاع الأمل من الحياة ،فهو في هذا المجال مدعاة للخوف واليأس والقنوط.

أمـا عـن دلالته على النقاء والطهارة والنظافة فذلك عائد إلى طبيعة اللون الأبيض الذي يكشف أدنى أثر للتلوّث ونحوه في الثياب وغيرها . وقد استخدم هذا اللون في التعبير المجازي عـن الخلو من هذه الملوثات ، والنقاء والطهارة ومن ذلك العبارة التي نسمعها كثيرا في الكناية عـن صـفاء النفس ، ونقاء السريرة فيقال في ذلك : فلان قلبه أبيض ، وهذا الطفل كالصفحة البيضاء .

ومنه ما يذكر في لباس الطلبة عند الرومان الذي كان عبارة عن عباءة مصبوغة بالأبيض تعبيرا عن نقاء حياتهم الطلابية.[4] وفي هذا المعنى استخدم في القرن التاسع عشر في بريطانيا للدلالة على طهارة المتوفى ولا سيما إذا كان طفلا[5].

وعند قدماء المصريين كان ارتداء الثوب الأبيض في المنام خيرا وشفاء من مرض عضال ، بينما الرّداء المتسخ يمثّل سوءا أو مرضا [6].

---

[1] رياض ، عبد الفتاح : **التكوين في الفنون التشكيليّة** . ص 260

[2] د. نوفل ، يوسف حسن:**الصورة الشعرية والرمز اللوني** . مصر : دار المعارف . 1995 . ص21

[3] السابق ، ص 119-125

[4] جودي ، محمد حسين : **تاريخ الأزياء القديم** . ط1 . عمّان : دار صفاء . 1997 . ج 1 ، ص 30

[5] عمر، احمد مختار . **اللغة واللون** . ص 166

[6] د. كريم ، سيد : *تفسير الأحلام عند المصريين القدماء* . ص 35

واستخدم اللون الأبيض لتمائم الطهارة والخلاص[1]. وهذا التأويل يؤكد الربط بين الحقيقة والمجاز في مجال النقاء و الطهارة . وقد غلب على أزياء الرجال المصريّين في الفنون القديمة اللون الأبيض[2]، وذلك دليل التقوى و الصلاح ،والبعد عن الشرور والآثام .

ومن هذا الباب أيضا راية الاستسلام التي ترفع باللون الأبيض للدلالة على نقاء السريرة ، والرغبة في المهادنة وطرح الحقد والكراهية والمطالبة بالدم.

ولا تستبعد هذه الدلالة للأبيض عند الحديث عن ملابس العروس السائدة في مختلف الحضارات[3]، فالأبيض كناية عن النقاء والعفّة والطهارة،كما يرى أكثر الباحثين .وقد يكون السبب في ذلك ما ورد في وصف الإلهة (هيرا) وهي الإلهة الأم في جبل (الأوليمب) فهي تجلس على جلد بقرة بيضاء ،وتتخذ من هذه البقرة شعارا لها لأنها أكثر الحيوانات أمومة[4].فقد يكون استخدام اللون الأبيض للعروس استحضارا لخصوبة هذه الإلهة .

وهذا الحديث يقودنا إلى ذكر قدسية اللون الأبيض لارتباطه بعدد من الآلهة ، فالتاج الأبيض كان يرمز للوجه البحري في مصر يرتديه الفرعون للدلالة على سلطته و سيادته على هذه المنطقة[5] .

وكان الإله (مين) في مصر يمثّل بثور أبيض ،اختفى في عهد (أمون) في طيبة ،ثمّ عاد في العصور المتأخّرة باسم (بوخيس) [6].ومثّل الأبيض في السابق إله الرومان ،وكانت قرابينه بيضاء ،كما يصوّر المسيح دائما بثوب أبيض رمز النقاء والصفاء . وقد تقدّم ذكر الأضحية في مصر حيث كان الكاهن لا يقبل الأضحية إلا خالصة البياض .

ويحضرني في هذا المجال الأغنية الشعبية للعيد " بكرة العيد بنعيّد ونذبح بقرة اسعيّد واسعيّد ما اله بقرة نذبح بنته هالشقرة ،والشقرة ما فيها دم نذبح بنته و بنت العم " فهذا يدل على الصلة بين الأضحية البشريّة والأضحية الحيوانيّة ، وضرورة كونها بيضاء لتدلّ على نقاء الأصل والصلة بالآلهة كما سنرى في الصفحات القادمة .

---

[1] د. كريم ، سيد: *السحر والسحرة عند قدماء المصريين* . ص 62

[2] جودي ، محمد حسين : **تاريخ الأزياء القديم** . ج1 : ص7

[3] السابق ،1: 31 ، وعمر، أحمد مختار . **اللغة واللون** . ص 166

[4] Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 16

[5] ارمان ، ادولف . **ديانة مصر القديمة** . ص 125، 128

[6] السابق ، ص 66

وإذا كــان الإلـــه يصوَّر بالأبيض ، والقرابين لا تقبل إلا بيضاء فمن باب أولى أن تكون المعـــابد بيضـــاء كذلك ، فقد طلي معبد الوركاء باللون الأبيض و سمي بالمعبد الأبيض مقابل المعبد الأحمر الأقدم منه[1].

و يرتدي الكهنة في المعابد الزيّ الأبيض كذلك ؛ فقد كان زيّ الكهنة في العهد الأشوري عــبارة عن قميص كتان أبيض[2]، وفي جداريّات هذا العصر يمثّل الرجال باللون الأبيض كبار الكهــنة أو الوزراء أو الملك وأتباعه[3]،علما أن الملك كان يقرن عادة بالآلهة . وفي الهند يمثّل الأبيض البراهمة وهم رجال الدين وفقا لأساطيرهم القديمّة [4].

وقد ارتبط اللون الأبيض لذلك بالعبادة وأصبح لونا مقدسا لصلته بالآلهة ،كما مرّ معنا في شعار الإلهة (هيرا) وهو البقرة البيضاء ، وكان شعار (أبولو) الفأر ويفضّل الفأر الأبيض على غيره ، وكان لديه مجموعة من الأبقار البيضاء[5].

ولا يفوتـــنا فـــي هـــذا المجال التذكير بقدسيّة الأبيض النابعة من عبادة الشمس والزهرة فالزهـــرة تعـــود فـــي تســـميتها إلى الأزهر الذي يعني اللون الأبيض المشرق في الإنسان [6]. والزهـــرة هي الإلهة (عشتار) التي أخذ اسمها في اللاتينية (STAR) .فالشمس و الزهرة من رموز الإشراق والخير والتفاؤل في الحياة ، فلا غرابة أن يحظى لونهما بهذا التقدير والاحترام.

وأكـــثر مـــن ذلك فالأبيض أصبح يمثّل الوضوح و النصاعة ،ففي الأدب اليوناني تظهر بحـــيرة الذاكـــرة محاطة بشجر الحور الأبيض للدلالة عليها[7]. فهي الشيء الوحيد المشار اليه بالأبيض في العالم السفلي القاتم .

---

[1] جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 66

[2] جودي ، محمد حسين : **تاريخ الأزياء القديم** . ج1 : ص 46

[3] جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 113 – 114

[4] عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 161

[5] Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 21 , 42

[6] ابن منظور: **لسان العرب**. (زهر)

[7] Robert Graves : **Myths of Anciet Greece** . p 37

ولهــذه الصــلة بالآلهة و العبادة اكتسب اللون الأبيض قوّة سحريّة ،فالحجر الأبيض لدى بعض القبائل يحمي من عين الحسود[1]. وهذا ما نجده سائدا لدى سكان القرى في هذه الأيام من تعلــيق (الشــبّة) وهي حجر أبيض على المنزل لردّ عين الحسود عنه . وكانت (هيرا) تستخدم جلد البقرة البيضاء الذي تجلس عليه من أجل السحر و إنزال المطر عند احتباسه [2].

وفــي مصر كان الساحر يلبس نعلين من جلد أبيض [3]، وقد يكون لذلك علاقة بأسطورة (هيرا) السابقة في مجال السحر .

وفي ساحل العاج و مناطق أخرى من أفريقيا الغربيّة،إذا خرج الرجال للقتال قامت النساء بدهــن أجســادهنّ باللون الأبيض ،وزيّن أنفسهنّ بالريش و قرون الثور و أشياء أخرى،وبدأن بحركات طقوسيّة سحريّة[4] .وهذا الطقس أيضا مستوحى من أسطورة (هيرا) .

وفــي المكسيك تحتفل النساء بعيد القمر ، فيطلين أنفسهنّ بالجص والدهن النباتي ليصبحن بيضــاوات كالأشــباح ، وبعدهــا يبدأن بالدعاء ليبعد القمر أرواح الموتى عن القبيلة ، ويهبهن الخصــب والأولاد[5]. وهــذا الطقــس يشير كذلك إلي قصة (هيرا)السابقة ،ولاسيّما في مجال الخصوبة وطلب الولد ، وهو أيضا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أن لبس العروس للأبيض هو نوع من استحضار قوى إلهة الخصوبة في هذا المجال .

ويــبقى للأبيض الجانب المرتبط بالشيب و دنو الأجل و الضعف ، وفي هذا المجال نجد قصّــة الإله (رع) فعندما شاب و تقدّمت به السنّ كاد له الناس ، و تململوا من حكمه ، وحاولوا الخروج عليه و عصيانه ،مما جعله يشتكيهم إلى مجلس الآلهة ،و يستعين به على حكم الناس[6] فهــذه القصــة تبيّن لنا ضعف المسن و اقتران هذا الضعف باللون الأبيض ، و من ثمّ كره هذا اللون في الشّعر لما يحويه من عجز وضعف وإنذار بدنو الأجل .

أمــا ثياب الموتى البيضاء لدى بعض الحضارات فقد أسلفنا أنها تكون للدلالة على طهارة الميت ، ونقائه من الشرور و الآثام .

---

(1) عمر ، أحمد مختار: **اللغة واللون** . ص 162

(2) Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 16

(3) ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 405

(4) السواح ، فراس : **لغز عشتار** . ص 206

(5) د. أبو يحيى ، أحمد : **الحية في التراث العربي** . ط1 . بيروت : المكتبة العصرية . 1997 . ص 187

(6) ارمان ، ادولف . **ديانة مصر القديمة** . ص 105

ويلحق بالأبيض لون الرماد وهو لون منفّر ، وذلك لأن الرماد لا يعلو الإنسان إلا في حالة الفقـــر ، والبعد عن الغسل و الدهن ، أو عند الهزيمة والتمرّغ بالرغام ، أو عند الحزن والبعد عن مظاهر الزينة ، وأحيانا يكون لون الشيب السابق ذكره رماديا وليس أبيض ناصع البياض ، وبهذا يكون لون الرماد من الألوان التي تثير الشؤم للإنسان .

فمـــن علامـــات الحداد عند بعض القبائل إهالة التراب على الرؤوس وترك أجساد النساء بيضاء من تأثير الرماد مع إهمال الشعر[1]. وسيمر بنا الحديث عن الغبار وعلاقته بموت زعيم من الجن في المبحث الثاني من هذا الفصل.

اللون الأحمر

يعتبر الأحمر من أغنى الألوان دلالة ، وأكثرها تضاربا ، فهو لون البهجة والحزن ، وهو لـــون الثقة بالنفس والتردّد والشك ، وهو لون العنف ولون المرح ، إلى غير ذلك من الدلالات الجزئيّة المتداخلة والمتباينة في آن[2].

ولعلّ السبب في ذلك عائد إلى ارتباط الأحمر بأمور مختلفة ، فهو لون الدم ، ولون النار ولـــون الذهب والطيب ، ولون الأحجار الكريمة ،ولون الزهور ، وهو اللون الذي يعلو وجنتي الإنســـان عـــند الخوف أو عند الخجل ، وهو اللون الذي يُصبغ به بياض العين عند الغضب أو الحزن ، وهو لون السماء عندما تودع الشمس للمغيب ، ولونها عند الجدب والمحل.

وقد تكون ابرز سمة للأحمر ارتباطه بالدم مما جعله لونا مخيفا و مقدّسا في وقت واحد ، ومن ذلك مثلا ما نجده في نصوص (اوغاريت) عن الملحمة التي قامت بها (عناة) وهي صورة

---

[1] د. إسماعيل ، فاروق : **الوثنيّة مفاهيم و ممارسات** . مصر: دار المعرفة الجامعيّة . 1985 . ص 157

[2] أنظر في ذلك : عمر، احمد مختار : **اللغة واللون** . ص 211 ــ 214 ، و رياض،عبد الفتاح :**التكوين في الفنون التشكيليّة** . ص 260 ــ 261 ، و نوفل، يوسف حسن : **الصورة الشعريّة والرمز اللوني** . ص 21 ــ 22

مرعبة تصوّر لنا (عناة) وهي تسفك الدّماء التي تتناثر هنا وهناك لتلطخ كل شيء حتّى أصابعها و جسدها ، وتكون (عناة) منتشية بهذه الدماء ، فعندما شاهدت آثارها هذه فرحت وابتهج كبدها بالضحك وامتلأ قلبها بالسرور[1].

وسيبقى هذا المشهد غريبا ما لم نعلم حقيقة شرب الآلهة للدماء ، بل إن الدماء هي شرابها المفضـــل . وهذا ما يفسر لنا ولع الآلهة بالخمرة الحمراء التي يعتبرونها دم الدالية كما ورد في (اوغاريت) :

وبينما تشرب الآلهة خمرا بالكبير(يقصد الآنية الكبيرة)

ودم الدالية بكأس ذهبية ،بكأس فضية [2]

وفي هذه الملاحم نجد أيضا أنّ (فوغة) أسقت قاتل أخيها الخمر على شكل الدم حتى سكر واعترف بفعلته ومن ثم قتلته[3].

وحول الخلط بين الخمر و الدم ترد قصة أخرى في مصر القديمة و ذلك عندما كاد الناس للإلــه(رع) عــند كبره ، واشتكاهم للآلهة _ كما مرّ سابقا _ فكره (رع) أن تقوم الآلهة بإهلاك البشر ، فطلب مادّة البريدي (وهي مادة تصبغ بالأحمر) فطحنت ومزجت بماء الشعير لتحضير شراب سائل يشبه دم البشر وقدّم الشراب للآلهة فشربت حتى ثملت وبذا نجا البشر[4] .

ومن هنا نلاحظ ولع الآلهة بشرب الدم ، وصلة هذا الدم بالخمرة التي تشبه لون الدم، بل هي دم الدّالية . وعلى ذلك فالأحمر يمثل لون الدم أو لون الحياة ، فلولا الدم ما عاش الإنسان ، و ذهــاب الدم ينذر بذهاب الإنسان فهو_أي الأحمر_عند الصينيين رمز الحياة والبهجة وكذلك عند الهندوس ، إذ يستخدم لاحتفالات الزواج[5] .

ولا ننســى فــي هذا السياق علاقة الدم بالولادة فالمولود يأتي إلى الحياة مع تدفق الدم ، ويكــون ملطخــا به ، بل كانت بعض القبائل تلطخ المولود بدم الشاة ، لمنحه فرصة أطول في

---

(1) افريحة ، أنيس : **اوغاريت ملاحم و أساطير في رأس شمرا** . بيروت : دار النهار . 1980 . ص 191 ـــ 194

(2) السابق ، ص 133 ، 135 ، 146 ، 163

(3) السابق ، ص 336

(4) ارمان ، ادولف . **ديانة مصر القديمة** . ص 105

(5) جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 66

الحــياة[1] وقــد يكون من هذا الباب أيضا ما نراه اليوم من طبع كف الدم على البيت عند ذبح الأضحية أو عند ذبح العقيقة.

وفي هذا المجال كذلك يرد الحناء وقد كان معروفا منذ القدم، وقد ذكر الحناء في نصوص (اوغاريت) في مجال الزينة للبنات والنّساء ، ففي النص التاسع وردت العبارة : "كافور (حنّاء) لسبع بنات ، رائحة كزبرة وعطور"[2] ، وورد في العمود الثاني من أسطورة كارت : "ستغتسل و تتحنى (حرفيا:تصطبغ بالأحمر)[3] .

وهــذه العــادة مازالت سائدة في أيامنا لاسيّما للعروسين على حدّ سواء ، كما يحنى كف الشاب القوي في بعض القرى إشادة بقوته . أما في مجال العروس فقد يكون الحناء طقسا يؤدى من أجل منح العروس الخصوبة ، و القدرة على الإنجاب لا سيما أن من تقوم بتأدية هذا الطقس لابد أن تكون منجبة لعدد كثير من الأبناء ، وجميعهم بصحة جيدة ، فكأن صبغ الأيدي بالأحمر من باب الرقية لصبغها بالدم ، وهو دم النّفاس عند الولادة . أما الحناء للشاب القوي (القبضاي) فهذا نابع من باب القوة الذي سنتحدث عنه لاحقا.

وإذا كــان الــدم هو لون الحياة فبه تبدأ حياة المولود ، وهو الذي يحفظها ، وذهابه يعني ذهــاب الحــياة ، وهو الشراب الذي تحفظ به الآلهة قوتها وتستمد منه طاقتها فهو لذلك عنصر عزيــز وفقدانـــه يعني الموت ومن هنا جاء الخوف من هذا اللون فنزيفه نذير الموت و الهلاك ومــن هذا الباب جاء تهديد (عناة) لوالدها بأن تخضب شيبه بالدم ، لاسيما شيب لحيته[4] . فهذا الخضاب يعني إذلالا له وتهديدا بالهلاك.

كــل ذلــك جعــل الأحمر لونا مقدسا مرتبطا بالفداء والطاعة والتضحية ومن الإشارات الواردة حول تقديس هذا اللون أنه رمز الاستشهاد في الديانة الغربية [5] .والشهادة كما نعلم هي التضحية بالنفس ومن ثم بالدم في سبيل الله .

---

(1) القرعان ، فايز عارف سليمان : **الوشم والوشي في الشعر الجاهلي** . رسالة جامعية مخطوطة ، جامعة اليرموك . 1984 . ص 124 ـــ 138

(2) افريحة ، أنيس : **أوغاريت** . ص 215 ـــ 217

(3) السابق ، ص 252

(4) السابق ، ص 201 ـــ 314

(5) عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 164

وفـــي مجال التقديس يرد ذكر معبد الوركاء الذي طلي باللون الأحمر وسمي لذلك بالمعبد الأحمـــر مقـــابل المعبد الأبيض[1] . وقد تم بناء معبد من الجرانيت الأحمر في مصر في العهد الفارسي[2].

وممّـــا يـــدل علـــى قداسة هذا اللون أن الملك الإغريقي أحبّ (أبيس) فصنع له تابوتا من الجرانيت الأحمر[3]، للدلالة على المكانة التي يمثّلها .

وكذلك فقد كان الملك الروماني يرتدي عباءة ملونة بالأبيض والأحمر بالتناوب لدّلالة على قداسته وشرف أصله [4] .

ولارتـــباط الأحمر بالدم كذلك أصبح هذا اللون يمثل طبقة الجنود والمقاتلين ومن ذلك ما ورد في أساطير الهنود عن تمثيل الجنود باللون الأحمر[5]. وكان المريخ الكوكب المشهور يمثل باللون الأحمر ، وهو في بعض الأساطير إله الحرب ،ورمزه في الكون الشرطي[6] . وهو لون الراية الحربيّة عند الرومان[7].

ومـــن بـــاب الربط بين الأحمر والدم ظهر معنى الحزن كذلك ، فالأحمر يذكرنا بالقتيل و يحثنا باستمرار للثأر لهذا المغدور ، و تعبير " دم فلان " شائع في غنى عن الإثبات . وقد ورد ارتباط الأحمر بالقتيل في الطقوس التي اعتاد الناس ممارستها في احتفال الربيع ، إذ يقوم الناس بـــتجريح أنفســـهم ، وإســـالة الدمـــاء عليها تعبيرا عن حزنهم على (أدونيس) [8]. وقصة نهر (أدونيس) مشهورة في لبنان كذلك وهي تمثل حزن النهر على أدونيس وصبغته بدمه [9] .

وإذ كانت تغطية الجسد بالدم دليل حزن على المقتول فإننا نجد في العراق القديم ما يعرف باسم النائحات عند موت الملك ، وهؤلاء النائحات يرتدين الملابس الحمراء ، ويحملن أساور من

---

[1] جودي، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 66

[2] ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 451

[3] السابق ، ص 430

[4] جودي ، محمد حسين : **تاريخ الأزياء القديم** . ج1 : ص31

[5] عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 161

[6] د. عجينة ، محمد : **موسوعة أساطير العرب عن الجاهليّة و دلالاتها** . ط1 . بيروت : دار الفارابي . 1994 . ج1 : ص 230 – 231

[7] عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 164

[8] السواح ، فراس : **مغامرة العقل الأولى** . ص 360 ـــ 361

[9] السوّاح ، فراس: **لغز عشتار** . ص 301

ذهب لأن لون هذا المعدن يبعد الشيطان[1]. ولعل الذهب الذي يحمل هنا هو الذهب الأحمر لأن اللون الأصفر_كما سنرى بعد قليل في مجال الذهب _ من ألوان البهجة والزينة . وأيا كان فان اللون الأحمر في ثياب النائحات هو دليل الحزن من باب التشبيه بإراقة الدماء على النفس .

ومن علاقة الأحمر بالدم أيضا انبثقت قوّته، ومن ثم استخدامه في مجال السحر . والسبب فــي ذلك عائد إلى أن الشخص الذي يريق الدماء يكون قد أدى ما عليه من واجب ، وفدى نفسه للآلهة ، فهو لن يتعرض لبطشها وانتقامها ، يدلنا على ذلك أن الإله (يهوه) طلب من اليهود أن يمــيّزوا بــيوتهم بالدهــن بالدم (دماء الخرفان) كي لا يهلكوا مع المصريين[2]. فلم يُختر اللون الأحمر في هذه القصة ولون الدم تحديدا عبثيّا ، بل للإشارة إلى التضحية والفداء والطاعة .

وإذا كان هذا اللون يمنع غضب الآلهة وبطشها ، فهو إذن يمنح قوة لصاحبه لا تعادلها قوة فــي هــذه الحــياة ؛ إنها القوة المستمدّة من رضا الإله وتأييده ،ومن هذا المجال جاء استخدام الأحمــر في السحر ، سواء للرقيّة ، أو في الحبر الذي يكتب به السحر ، أو في لباس الساحر . فمــن الرقــيّة ما نجده في بعض ممارسات الناس في السودان ، حيث يذبح زوج المرأة الحامل أضــحية للحصول على تعويذة ، وعند الاستسقاء يذْبح الناس خنزيرا ضخما وينثرون دمه في الهواء نحو السماء أملا في الحصول على المطر [3].

وعند بعض القبائل يجري وخز إصبع الفتاة بإبرة ومسحها بشعر الفتى فلا يفارقها .أو يتمّ جرح ما بين السبابة والإبهام لليد اليسرى وإسالة الدم لعمل رقيّة من أجل إنجاب الأطفال [4] .

وفــي اليابان استخدم اللون الأحمر لطرد الكابوس[5].وفي مصر القديمة كانت هناك خواتم حمراء يرتديها الجنود حين يقابلون أعداءهم حتى لا يجرحوا،وإذا جرحوا حتى لا ينزفوا[6].وهذا الخاتم يرجح أن يكون لون الذهب الذي تنفر منه الشياطين هو اللون الأحمر.

---

(1) د. علي، رمضان عبده : **تاريخ الشرق الأدنى القديم** . ص 310

(2) السواح ، فراس : **مغامرة العقل الأولى** . ص 139

(3) د. إسماعيل ، فاروق : **الوثنيّة مفاهيم وممارسات** . ص 147 ــ 148

(4) السابق ، ص 164

(5) عمر ، احمد مختار : **اللغة واللون** . ص 163

(6) السابق ، ص 163

ولــدى بعــض القبائل تستخدم الأحجار الحمراء (البنيّة) في العلاج ، فهي تطرد الحمّى وتوقف ارتشاح العين بالدمع ، و تقلل دم الحيض[1] .

وفي مداد الساحر يذكر أن اللون الأحمر كان مخصصا لتمائم الشرّ ، سواء كتبت بالدم أو بالحبر الأحمر ، وأحيانا تكتب تمائم الحبّ بالدماء لاسيّما دماء الطيور[2].

وممــا ورد فــي لباس الساحر أن الكاهن والساحر في بابل كانا يرتديان الأحمر وتعرف ملابســهم باسم (أشيبو)لأنه لون تنفر منه الشياطين[3]. ومنه ما نجده عند الأزانديّين ،فإذا ظهر قوس قزح من الغرب كان ذلك علامة على أنّ كثيرا من النساء سوف يلاقين حتفهن، ولمواجهة ذلك الخطر تدعك النساء أذرعهنّ اليسرى بمسحوق (زالي) الأحمر ، وإذا ظهر في الشرق كان ذلك تحذيرا للرجال ،فيدعكون أذرعهم اليمنى به[4].

وفــي جبال (لانقسنا) في السودان يحمل الساحر بيده جرابا مصنوعا من جلد القط البرّي فيه بعض الأعشاب والعروق ، ويحمل عصا حمراء تتدلّى منها التعاويذ ، ليشفى المريض[5].

وقــد تكــون هــذه الطقــوس عائدة إلى أساطير قديمة ، ومن ذلك ما نجده في نصوص (أوغاريــت) فعــندما صــمّمت (فوغة)على الانتقام لأخيها أخرجت سمكة من البحر واغتسلت واصــطبغت بالأحمــر[6] ، و ذلك لتزيد في قوّتها وعزيمتها .وقد تكرّرت هذه العادة فيما بعد عند أخذ الثأر أو عند الهجاء.

---

[1] عمر، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 162

[2] د. كريم ، سيد : *السحر والسحرة عند قدماء المصريّين* . ص 62 ، 65، 68، 69

[3] يوسف شريف : *السحر عند البابليّين و المصريّين والعرب قبل الإسلام* . **مجلة التراث الشعبي** . وزارة الثقافة والفنون في العراق . السنة 9 . 1978 . ع5 / ص 69

[4] زناتي ، محمد سلام : **من طرائف العادات وغرائب المعتقدات** . ص 183

[5] د. إسماعيل ، فاروق : **الوثنية مفاهيم وممارسات** . ص 133

[6] افريحة ، أنيس : **أوغاريت** . ص335

وربما كانت هذه الطقوس السحريّة تؤدّى لإرضاء الآلهة السلبية التي تقترب إلى حدّ كبير مـن الشيطان الذي يحلو له أن يكون قبيح المنظر ، بشع الصورة ، قذرا ؛ فقد كان الساحر في العصـور التاريخيّة القديمة والحديثة ينفر من النظافة ، ولا يقدم على الاغتسال لأنّ بينه و بين الشيطان عهدا على ذلك[1].

وكان السحرة في اجتماعاتهم مع عمدتهم يذبحون الحيوانات ، وينثرون دمها في الهواء ، وكانوا يلطّخون أنفسهم بهذا الدم ، كما يقوم العمدة بذبح طفل بريء ، ويرشّ دمه على السحرة وذلك لتعميدهم . وكانت الساحرات يكتبن العهد مع الشيطان بدم الحيض ، والسحرة من الرجال يكتبونه بدم القرابين [2] .

فيما تقدّم بيّنا ارتباط الأحمر بالدم ،أمّا عن ارتباطه بالنار فيعتبر رمزا لجهنّم في كثير من الديانـات [3] . وكذلـك فهو مرتبط بمعنى الدفء الذي يصدر عن النار ، ولذا اقترن بالغواية والشهوة الجنسيّة [4].

أمـا الأحمـر فـي السماء فهو لون يدعو إلى التشاؤم ، لارتباطه بالجفاف وانعدام الحياة الطبيعيّة فمن المعروف أنّ الغيوم البيضاء قد تكون جافة و لكنّها تظهر بالصيف ممّا يؤدّي إلى تخفـيف حـدّة الحـرارة ، أمّـا الغيوم السوداء فهي تسودّ لتحمّلها بالماء الذي يؤدّي إلى نمو النبات،ولكـن الغـيوم الحمـراء هـي الغـيوم التـي تظهر في السماء في الشتاء مع ظهور الشمس،وباجتماع كثافة الغيوم مع أشعّة الشمس يظهر اللون الأحمر ، وهذا الجوّ يكون جافّا ممّا يؤدّي إلى جفاف التربة و تقشّرها ، وانعدام الحياة الطبيعيّة .

ولـذا فقد كان اللون الأحمر في السماء عند قدماء المصريّين في المنام نذير المصائب و توقّع الأخبار السيّئة[5]. وكان الفراعنة يقسمون الأرض إلى قسمين : حمراء وسوداء _كما تقدّم والحمـراء عندهم هي الأرض الجرداء و نسبت للبرابرة [6]. وكان لون السماء دائما أحمر في الفنون العراقيّة حيث البيئة الصحراويّة ، والجفاف المستمرّ [7].

---

[1] يوسف ، عمرو : **حقائق مثيرة عن السحر** . مصر : المركز العربي للنشر والتوزيع . ص 29 ـ 30

[2] السابق ، ص 21 ـ 26

[3] عمر ، أحمد مختار: **اللغة واللون** . ص 164

[4] السابق ، ص 212 ، و عبد الفتاح رياض : **التكوين في الفنون التشكيليّة** . ص 260

[5] د. كريم ، سيد : *تفسير الأحلام عند المصريّين القدماء* . ص 40

[6] ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 33

[7] جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 67

ومـــن المعانـــي الأخـــرى للون الأحمر حمرة العين ،وهي حمرة تظهر عند المرض أو الغضب أو الحقد ، وقد أستخدم هذا المعنى للأحمر في مجال الذمّ ، فقد ظهر عند المصريّين إله غريب يشبه الحمار، لونه أحمر وعيناه حمراوان ، وكان يقوم بأعمال حمراء شرّيرة[1] . وهذا يـــدل على كراهيتهم لهذا اللون في العين بل لقد كان المصريون يكرهونه بشكل عام كما أورد ذلك راوي الخبر السابق .

هكذا نتبين تضارب دلالات الأحمر وفق الأمور التي يقترن بها وان كانت الدلالة السائدة هي صلته بالدم وما يتبع ذلك من قداسة وقوّة وإراقة دماء.

اللون الأخضر

الأخضـــر من أكثر الألوان استقرارا ووضوحا في الدّلالة ، فهو لون الخصب و النعيم ، والـــنماء والزمـــرد والزبرجد[2].وهو قرين الشجرة رمز الحياة والتجدّد ، وهو مرتبط بالحقول والحدائق ولذا فهو مرتبط بهدوء الأعصاب[3].

وقـــد اقترن الأخضر بالإله (أدونيس) أو (تمّوز) لما يمثّله من الخلود والتجدّد ، ومن ذلك مـــا كان يمارس في أعياد (أدونيس) ، إذ كان الناس يضعون غصنا أخضر في ماء وقطن مما يجعله ينمو سريعا دليلا على الخصوبة ، ولكنّه سرعان ما يجف ، ممّا يمثّل مصرع (أدونيس)[4]. وفي الشرق تمثّل الخضرة بعث (تموز) و اختفاء الخضرة يعني موته[5]. وفي مصر سمّي (أوزيريس) باسم الكبير الأخضر[6].

وعـــندما كـــبر الإله (رع) وتقدّمت به السن ، أصبح شعره من اللازورد الحقيقي[7]، وفي ذلك تفاؤل بتجدّده أو خلوده . ومن هذا الباب يتمّ وضع الوشم الأخضر على المعصمين أملا في

---

(1) ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 70

(2) عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 210 ــ 211

(3) د. عجينة ، محمد : **موسوعة أساطير العرب** . ج1 : ص291 ــ 292 ، ج2 : ص200

(4) السواح ، فراس : **مغامرة العقل الأولى** . ص 255 ــ 256

(5) علي ، رمضان عبده : **تاريخ الشرق الأدنى القديم** . ص 298

(6) إرمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 73

(7) السابق . ص 104

طــول الحياة والبقاء[1] . ولأنّ الأخضر لون الحياة والخلود ، وهو لون الجنة والنعيم فقد أصبح اللون المفضل عند الكاثوليك ، واستخدموه في عيد الفصح رمزاً للبعث[2].

وعــند المصريين تضحك الحقول والشواطئ بعد انتهاء الفيضان فتكسوها الخضرة وتعم السعادة[3]. وهذا يدل على الارتياح للون الأخضر ،وجعله رمزا للسعادة والخير ، في ذلك أيضا نجد صورة عشتار الخضراء التي تجمع معاني الخير والعطاء والنماء[4].

ومــن هــذا الــباب أيضــا يرد ذكر نبتة الخلود وتجدّد الشباب في قصة (جلجامش) وقد اختطفتها الحيّة وبذلك أصبح عمرها متجدّداً وخسر (جلجامش) ذلك[5].

وتبعا لذلك أيضا فقد كانت أرضيات المعابد في مصر خضراء[6]، وذلك ليكون من يدخلها يدخل إلى الجنة والحياة الكريمة بعد الممات.

والأخضر لون الخير فهو لون الحقّ كذلك ولذا فقد كان الساحر في مصر يرسم على لسانه علامــة الحــق بمداد أخضر[7]. وكان الأخضر في مصر يستخدم في السحر والتمائم الخاصة بالصحة والشباب[8].

ولكــن هناك درجة أخرى للون الأخضر تختلف عن لون الزرع الذي يعتبر رديفا لتموز وهــي الأخضر القاتم ، وهذا اللون كان يطلق عليه أحيانا اسم الأسود للقرب بينهما ، وتختلف دلالــة هــذا اللون عن الأخضر اليانع فكان الأخضر اليانع أو الزاهي في المنام عند المصريين يعني الخير والخصوبة بينما يمثل القاتم الشرّ والخيانة [9].

---

[1] ينظر في هذا المجال ،القرعان ، فايز: **الوشم و الوشي في الشعر الجاهلي** . ص 95 ــ 117

[2] عمر ، أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 210 ــ 211

[3] إرمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 34

[4] السواح ، فراس : **لغز عشتار**. ص 105 ــ 128

[5] السواح ، فراس :**جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة** . ط1. دمشق :دار علاء الدين . 1996 . ص 232 ــ 234

[6] عمر، أحمد مختار: **اللغة واللون** . ص 165

[7] إرمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 405

[8] د. كريم ، سيد : *تفسير الأحلام عند المصريين القدماء* . ص 41

[9] Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 17

وفي هذا المجال نجد الأساطير اليونانية تؤكد أن عرش (ديمترا) إله الزرع والثمار كان مــن الأخضــر الزاهي اليانع[1]. أي اللون المحبوب وليس اللون القاتم منه الذي يبعث الخوف والأسى .

اللون الأصفر

الأصفر لون متعدّد الدلالات كالأحمر، وذلك لارتباطه بأشياء طبيعيّة مختلفة ، فهو مرتبط بالشمس والذهب والنحاس والطيب وبعض الثمار ، وهذه أمور توحي بالخير والجمال والتقديس وهو مرتبط من جهة ثانية بالنبات الجاف ، والمرض الذي يعتري الإنسان وما يصحبه من تغيّر في اللون والشحوب ، وهي أمور توحي بالضعف والانكسار والحزن[2].

ولعلّ أبرز صفة للون الأصفر هي ارتباطه بالشمس والضوء ، ولمّا كانت الشمس مقدّسة في الديانات الوثنيّة ، فقد كان الأصفر رمزا للإله (رع) في مصر وهو إله الشمس[3]. وقد تخيّل المصريّ كذلك الشمس على شكل عجل ذهبيّ تلده أمّه بقرة السماء في الصباح[4].وفي ذلك دلالة واضحة على الربط بين شروق الشمس والميلاد ، وصلة ذلك باللون الأصفر.

وعــند المصــريّين كذلك عندما كبر (رع) وشاخ أصبحت عظامه من فضّة ، وشعره من لازورد، بيــنما أعضــاؤه من ذهب[5]. وهذا يدلّ على قداسة الأصفر وصلة ذلك بالذهب الذي أصبح مقدّسا ومحبوبا ،كما سنرى بعد قليل .

وفــي مجــال قداسة الأصفر نجد أنّه كان مقدّسا في الصين والهند ، وعند المسيحيّة التي اســتخدمت الأصــفر في الكنيسة خلفيّة للوحاتهم من أوراق الشجر الذهبيّة[6]. ومن باب القداسة كذلــك نجــد تماثيل النساء الجيريّة في مصر تلوّن بالأصفر ، كما تلوّن به أيضا في الرسم [7]، وهذا مقابل اللون الأزرق الذي استخدم للخدم والجواري .

---

(1) د. كريم ، سيد : *السحر والسحرة عند قدماء المصريين* . ص 16

(2) عمر ، أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 114 ـــ 117

(3) السابق ، ص 163 ، وعبد الفتاح رياض : **التكوين في الفنون التشكيلية** . ص 261

(4) ارمان ،ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 35

(5) السابق ، ص 104

(6) عمر ، أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 163

(7) جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 16 ، 19

أمّا في مجال الذهب فقد ورد آنفا ارتباط الذهبي بلون الشمس ، كما في قصّة (رع)،ويبقى الذهـــب معدنـــا نفيسا يكثر في أيدي الملوك والطبقة الخاصّة ولذلك فقد كان ارتباط الأصفر مع الذهب دليل خير و سعادة و غنى .

وعـــن اســـتخدام الملوك أو الآلهة للذهب نجد نصوصا كثيرة ، منها ما ورد في نصوص (أوغاريـــت) : فقـــد كان يطلق على الذهب اسم الأصفر[1]، وكانت آنية الملك إمّا مصنوعة من الذهب أو مزركشة به ، بل لقد بنيت قصور كاملة من الذهب لهذه الآلهة أحيانا[2].

ومـــن هـــنا كـــان الأصفر دليل الغنى والثروة والسمو ، فقد كانت ذهبيّة لون السماء عند الشروق تعني السمو والنعم الكثيرة ، بينما الذهبي في الحياة يعني الحكمة والسمو كذلك[3]. ولدى بعـــض القـــبائل يعتقد بأنّ الحجر الأصفر يجلب السعادة والغنى [4]. ويمثّل الأصفر عند الهنود طـــبقة الـــتجّار وفـــق أساطيرهم القديمة [5]، ولا تخفى العلاقة بين التجّار والغنى ، أو التجّار والذهب ، ومن ثمّ بين التجّار واللون الأصفر.

وقد استخدم هذا اللون للعلاج وذلك للاعتقاد بأنّ الشمس هي حافظة الحياة والصحّة فكان اســـتخدام الأصفر في بعض الحضارات يقي من الأمراض[6]. وقد ربط العرب قديما بين اللون الأصفر ويوم الأربعاء وكوكب عطارد ، و لذا كان يوم الأربعاء مفضّلا لتناول الدواء[7]. و في ذلك تأكيد على قوّة الأصفر العلاجيّة .

ومـــن باب آخر فإنّ الأصفر مرتبط بالذبول وجفاف النبات ، فإذا كان الأخضر يمثّل الإله (تمّوز) وموت (تمّوز) يبدأ بجفاف الزرع وذبوله واصفراره ، فإنّ الأصفر الباهت يعني المرض والضعف .

---

(1) افريحة ، أنيس : **اوغاريت** . ص 260 ، 268

(2) السابق ، ص 125 ــ153 ،210 ، و انظر : Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 14

(3) د. كريم ، سيّد : *تفسير الأحلام عند المصريّين القدماء* . ص 41

(4) عمر ، أحمد مختار :**اللغة و اللون** . ص 162

(5) السابق ، ص 162

(6) رياض، عبد الفتاح : **التكوين في الفنون التشكيلية** .ص 261

(7) د. عجينة ، محمد : **موسوعة أساطير العرب** . ج1 : ص 213

وفي الحديث عن علاقة الأصفر بالمرض ورد في بلاد ما بين النهرين أنّه إذا كان جسد المريض أصفر مسودًا ، وسطح لسانه أسود ، فهذا دليل على قرب موته ، ولا داعي لعلاجه[1] فهو ميّت لا محالة . ومن هنا جاء التشاؤم من هذا اللون وكرهه حتّى عُدَّ لونا لكلّ شيء غير صحّيّ كالغَيْرَة ، والحسد ، والمكر ، والحقد ، وهي انفعالات تتّسم بالغموض والبعد عن الواقع . ولا زلنا للآن نستخدم عبارة ضحكة صفراء التي جاءت من هنا ، ومنه أيضا كانت صفرة السماء عند المصريّين تعني غيرة وحسدا من الأعداء وذلك في تفسير الأحلام[2].

أمّا كره الذهب في مصر فقد يكون للربط بين الذهب ولونه الأحمر وليس الذهب الأصفر البرّاق ، أو بسبب قصّة (ست) و(إيزيس) ،عندما لعن (ست) الذهب وحرّمه على مدينته[3] . ومن هنا نلاحظ بأن كره الذهب في هذه المدينة لم يكن نابعا من لونه الأصفر وإنّما لعلاقته بالذّهب ، فهو لون محبّب لعامة الناس ، ويؤكّد لنا هذا قصّة موسى ، عليه السلام ، مع قومه في ذبح البقرة ، فقد قال تعالى: " قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين" .

اللون الأزرق

للأزرق دلالات واسعة وذلك تبعا لتفاوت درجاته من الفاتح إلى القاتم ؛ فالقاتم منه يقترب من اللون الأسود ، ولذا فهو يثير النفور ، والحقد ، والكراهية . وقد ارتبط بالغول ، والجنّ والقوى السلبية في الأرض[5].

بينما يرتبط الأزرق الفاتح بالماء والسماء ،فهو لون مناسب للهدوء والبرودة[6] .وبقيّة الدرجات تتراوح بين هذين الحدّين.

---

[1] د. إسماعيل ، حلمي محروس : **الشرق العربي القديم وحضارته** . ص 126

[2] د. كريم ، سيد : *تفسير الأحلام عند المصريّين القدماء* . ص 40

[3] ينظر ،ارمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة** . ص124 ــ 125 ، فعندما شبّ الخلاف بين ست و حورس على الحكم تم الحكم لحورس ثمّ عقدت محكمة جديدة لعدم اشتراك جميع الآلهة في الحكم ، وأقيمت في جزيرة نائية ، وحاول ست إبعاد إيزيس عن المحكمة كي لا تؤثّر على الحضور ، فمنع النساء من دخول الجزيرة وأوقف الحرّاس على المعابر فتنكّرت إيزيس بامرأة عجوز ، وأعطت الحارس خاتما ذهبيّا ليسمح لها بالدخول بحجّة إرسال طعام لابنها، وهكذا دخلت المحكمة ، وعندما كشفت عن نفسها غضب ست وعاقب الملاح ولعن الذهب.

[4] البقرة . الآية 69

[5] عمر ، أحمد مختار . **اللغة واللون** . ص 164

[6] رياض ، عبد الفتاح : **التكوين في الفنون التشكيلية** . ص 261

ومما ورد في زرقة السماء أنّ سقوف المعابد في مصر كانت زرقاء وتعني السماء مقابل الأرض الخضـــراء[1]، وخلـــف عرش (زيوس) الأولمبي كانت الحجرة مطليّة بالأزرق الفاتح للدلالة على أنّ السماء كانت ملكه[2].وفي تفسير الأحلام عند المصريّين كانت زرقة السماء تعني الأمل والصفاء والفرج القريب ، والأزرق العادي يعني الوفاق والثقة[3]. ولا زال الأزرق الفاتح يستخدم في العديد من المستشفيات لأنّه يريح الأعصاب ويساعد على الشفاء .

أمّا الأزرق القاتم فيقرن بالموت لأنّه شبيه بالأسود ، وقد استخدم في الصين رمزا للموت بدلا منه[4]، ولا زالت النساء تستخدمه إلى جانب الأسود للحداد في مجتمعنا الفلسطيني .

وفي مصر إذا لحق العار بالرجل أوجبن فإنّه يطلى بمسحوق نيلي للدلالة على ذلك ، ومن هنا وردت عبارة (منيّل) الشائعة في مصر في هذه الأيام[5]. ومن هنا أيضا كان تفسير الأزرق القاتم في مصر دليل الحمقى والحمق[6]. وقد مرّ بنا في الصفحات السابقة استخدام الأزرق للخدم والجواري مقابل الأصفر للأحرار في مصر كذلك ، فقد عثر في إحدى المقابر على تماثيل من القاشـــاني الأزرق ، وكانـــت هذه التماثيل تدفن مع الملك لخدمته بدلا من دفن الخدم الذي كان سائدا في فترة سابقة [7].

وقد استمرّت هذه الدلالة للأزرق إلى يومنا هذا ؛ فالأزرق في الفنّ الحديث يعني الشعور بالإخفاق والتشرّد والفقدان [8]،بينما الأخضر المزرق يعني قوى العتامة في الكون[9].

أمّـــا العيـــن الـــزرقاء التي توضع على الطفل ، أو غيره لتردّ عنه الحسد ، وتحميه من الشـــرور فـــربّما كانت ذات صلة بالإلهة (أرتميس) ، إلهة الصيد عند اليونان [10]، فقد كان من مهامهـــا رعايـــة الأطفال حديثي الولادة ، والنساء المنجبات ، وحمايتهم من المرض والخطر ، والحســـد. وقد كانت هذه الإلهة ذات عيون زرقاء ، واشتهرت بهذه الصفة ، فكانت تدعى "ذات

---

(1) عمر ، أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 165

(2) Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 14

(3) د. كريم ، سيد: *تفسير الأحلام عند المصريّين القدماء* . ص 41

(4) عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 166

(5) زناتي ، محمد سلام : **من طرائف العادات و غرائب المعتقدات** . ص 160

(6) د. نوفل ، يوسف حسن : **الصورة الشعرية و الرمز اللوني** . ص 22

(7) ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 354

(8) د. محسن عطية : **الفن وعالم الرمز** ، مصر : دار المعارف ، 1996 ، ص 170

(9) السابق ، 132

(10) Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 21

العـيون الـزرقاء" [1]. وعلى هذا الأساس يكون وضع العين استحضارا لهذه الإلهة كي تحمي المولـود مـن الحسد والشرور ، وانتقلت قوى هذه العين للحماية من الحسد لمختلف الأمور ، كالبيت ، والحيوانات وغيرها.

أمّـا عـن الربط بين هذه العين وبين الحاسد في المعتقدات الشعبيّة فقد يكون لذلك صلة بعلاقـة العـرب مع الروم ، وهم أبغض الأعداء عليهم ، وقد يكون مرتبطا بهذه الإلهة كذلك ، فنحن نجد في وصفها أنها كانت عذراء تهوى الصيد والسباحة ،فإذا حاول شخص رؤيتها عارية كانـت تحوّله إلى ظبي وتطارده حتّى تصطاده بسهمها [2]،فهي إذن تسبّب الموت لخصمها ولا يسـتطيع أحـد حماية نفسه منها .ومن هنا ظهر التناقض بين مدلولي العين الزرقاء فهي التي تسبّب العين ، وهي التي يحمي منها والكلّ عائد إلى (أرتميس).

وأحـيانا كـان يسـتعاض عن العين الزرقاء بالخرزة الزرقاء ،فتوضع في عنق المولود لحمايـته مـن العين ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنّ وضع الخرزة الزرقاء يدلّ على صفة الطهارة والإيمان ولتجعله مطيعا لوالديه[3]،ولكن القرائن تؤكّد ما ذهبنا إليه من الحماية من العين ففي مصر القديمة كان الأزرق يستخدم للتمائم التي تمنع الحسد وتطرد الأرواح الشرّيرة [4].

ويلحق باللون الأزرق البنفسجي ،فالبنفسجي يلي النيلي في الطيف الشمسي. وهذا يدلّ على قـربهما في الدرجة . والبنفسجي ينشأ من اللونين الأزرق والأحمر ،لذا فقد ألحقته بالأزرق من باب التغليب ، والقرب في ألوان الطيف .

والبنفسـجي والأزرق لونان مقدّسان في بعض السياقات ، فالأزرق يمثّل الإله (يهوه) عند اليهود[5]. وفي جداريّات مدينة (ماري) في تلّ الحريري ظهر ثور لونه بنفسجي مائل إلى

---

[1] ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 474

[2] Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 21

[3] عمر ،أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 162

[4] د. كريم ، سيد: *السحر والسحرة عند قدماء المصريّين* . ص 61

[5] عمر ، أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 164

السـمرة [1]، ويدلّنا على أنّ هذا الثور يمثّل أحد الآلهة ما ورد في السودان عن اللون الأبيض بأنّه يمثّل كبير الآلهة وله سبعة أبناء يمثّلون بألوان الطيف السبعة[2].

وقـد اعـتاد الرومان لبس الشريط الملوّن فوق لباسهم ،وكان الشريط البنفسجي يدلّ على الحكّـام و الملوك،وأصحاب المناصب ،بينما العباءة البنفسجيّة مخصّصة للكهنة[3]. وكان الدرج الـذي يقود لعرش (زيوس) الأولمبي عبارة عن سبع درجات مطليّة بألوان الطيف السبعة على الترتيب [4]، وهذا يدلّ على قداسة هذه الألوان.

ومن جهة أخرى فإنّ الأزرق يرتبط بلون الماء و صفائه ،ففي وصف جزيرة الثعبان في أدب الرحلات المصريّة القديمة ورد أنّ الثعبان كان لونه فضّيا عليه نقوش ذهبيّة وزرقاء (وهذا دليل قداسة) ، وكانت الجزيرة محاطة بالمحيط الأزرق[5] . فالأزرق في تسمية هذا المحيط هو اللون الذي يظهر للماء بشكل طبيعيّ .

واقتران الأزرق بالماء أمر طبيعيّ لما يشاهده الإنسان باستمرار ، وذلك لأنّ الماء يمتصّ ألوان الطيف جميعها عدا الأزرق فيعكسه ، ولذا فسطح الماء غالبا ما يظهر باللون الأزرق .

وهكـذا فـإنّ دلالة الأزرق تختلف باختلاف درجة اللون والشيء الذي يلوّن به ، فهو في الماء غيره في الثياب ، وغيره في البشرة ، وغيره في الحيوان .

---

(1) جودي ، محمد حسين : **فنون العرب قبل الإسلام** . ص 96

(2) إسماعيل ، فاروق : **الوثنية مفاهيم و ممارسات** . ص 59

(3) جودي ، محمد حسين : **تاريخ الأزياء القديم** . ج1 : ص 30 ـ 31

(4) Robert Graves: **Myths of Anciet Greece** . p 14

(5) د. كريم ، سيد : *الرحلات الفرعونيّة في الأدب المصريّ القديم* . **مجلة الهلال** . السنة 83 . يوليه 1975 . ع7 / ص 35 ـ 36

المبحث الثاني : الألوان في الموروث الجاهليّ

عـند تتبّع الألوان ودلالاتها في الموروث الجاهلي ، تبيّن أنّ هذه الألوان تحمل الدلالات التـي تحملهـا فـي الفكـر الإنساني بعامّة ،من حيث الدلالة والاستخدام . ولا غرابة في ذلك فالجاهليّ جزء من حضارة سادت على بقعة جغرافيّة معيّنة ، ولكنّه لم يكن معزولا عن غيره ، أو مغلقا على نفسه ، بل كان يتفاعل مع الحضارات الأخرى ، يتأثّر بها ويؤثّر فيها .

والفكـر الإنسـاني عبارة عن دائرة متكاملة تنبثق من مركز واحد ، وتتسع وتتباعد عن المركز ، ولكنها تبقى مرتبطة مع المركز ، كما ترتبط مع بعضها على اتساع محيطها .

والقراءة السريعة للإشارات الواردة حول الألوان عند الجاهليّين تؤكّد ما ذهبنا إليه ، ولذا سـأكتفي بعـرض نمـاذج توضّـح الدلالات السابقة ، وإذا وجدت خصوصيّة للفكر الجاهلي فسأعرضها مع التحليل في حينه .

الأسود في الموروث الجاهلي

أول مـا يطالعنا في هذا الباب هو أن العرب عاملوا الأسود بخصوصيّة تختلف عن بقيّة الألـوان فـي الاصـطلاح : فالسواد عندهم ليس لونا بل هو انعدام اللون ، فقد ذهب ابن حزم الظاهـري إلى أنّ المكفوف سمّي مكفوفا لأنّه لا يرى إلا السواد ، ويضيف : " الظلمة والسواد واحد لا يختلف في ذلك اثنان ، أمّا الزنجي والغراب والثوب فهي ألوان غير الأسود ، وسمّيت به مجازا " [1].

ومـن هنا نلاحظ ارتباط الأسود عند العرب بالظلام وعدم وضوح الرؤية . وهذا جعلهم يخـافون مـن هذا اللون ويعدّونه لون المجهول من الجنّ والغيلان ونحوها وقد ورد عندهم أنّ الكلـب الأسود والقط الأسود من الصور التي يتشكّل بها الجن ، أو هما واسطة بين عالم الجن وعالم الإنس[2]. وأكثر مطايا الجنّ سوداء ، سواء في ذلك الكلب أو القط أو النعام ونحوها[3].

---

[1] ابن حزم الظاهري ،أبو محمد علي بن أحمد (456هـ) :**الفيصل في الملل والأهواء والنحل** ،تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر ، ود. عبد الرحمن عميرة ،بيروت :دار الجليل ،1985، ج 5 : ص 272 ـ 275

[2] د. عجينه ، محمد : **موسوعة أساطير العرب** . ج 2 : ص 25 ـ29 ،200

[3] السابق ، 1 : 297 ـ 299

ومـــن ذلك ما جاء في قصّة أميّة بن أبي الصلت عندما قابله الشيخ المسيحيّ ... وعندما سأله عن أحب الثياب لديه ، وأجابه بأنّها السوداء ، قال له الشيخ : " هذا خاطر من الجِن و ليس بمُلك " [1].

ومـــن بـــاب الظلام أيضا اقترن الأسود بالقبر والموت ، ومن هنا جاء تشاؤم العرب من الغـــراب للونـــه ، مما جعل البعض وعلى رأسهم الجاحظ يعتقد أنّ الغراب هو مصدر تسمية الغـــربة والغرب والغريب [2]. وهذا الرأي غير دقيق وذلك لأنّ علاقة الغرب بالموت أوثق من علاقـــة الغراب به فمملكة الموتى في المعتقدات القديمة تكون في الغرب ، و الدخول إليها يتمّ مـــن جهـــة الغرب كذلك [3]. وقد اعتاد العرب توجيه رأس الميّت نحو الغرب ، ولا زلنا نسمع العـــبارة " غرّبوا بفلان " بمعنى مات ، ومن ذلك لا بدّ أن يكون الغراب سمّي للونه وصلة هذا اللون بالموت .

ولمّا كان الغراب أسود اللون فهو يمثّل لون الموت وظلمة القبر ، ولذا فقد تشاءموا منه . وفي قصّة الطوفان أعجب الغراب بالموت فلم يعد ، بينما فضّلت الحمامة الحياة فعادت إليها[4].

أمّـــا غـــراب البيـــن فهو طائر صغير من فصيلة الغربان ، ينزل الديار بعد رحيل أهلها وخرابه[5] فهو نذير شؤم وفرقة وخراب ، إلى جانب لونه الأسود .

واستمرّ هذا المعنى ملازما للأسود حتى يومنا هذا ، فهو نذير الموت والخراب ، وفي ذلك يقول ابن سيرين إنّ السواد في المنام للمريض يدلّ على الموت[6] ، ورؤية العنب الأسود تعني المرض ، والخوف [7]. والأسود هو لون الحداد عند الجاهليّين ، كما سنرى في الفصل الثاني .

---

[1] الأصفهاني، أبوالفرج (359هـ) : **الأغاني** . شرح وتعليق :سمير جابر، بيروت :دار الفكر ،ط2 ،ج 4 : ص 133 ــ 134

[2] الجاحظ ، عمرو بن بحر (255هـ) : **الحيوان** . تحقيق: فوزي عطوي . بيروت: دار صعب ، ط2 ــ 1978 ،م1 ، ج3 : ص 566 ــ 567 ، وانظر أحمد النوتي :**التشاؤم و مظاهره في الشعر الجاهلي** ،رسالة جامعيّة مخطوطة جامعة اليرموك ،1991 ، ص 98 ــ 106

[3] ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ص 340

[4] السواح ، فراس : **مغامرة العقل الأولى** . ص 191 ــ 192

[5] الجاحظ : **الحيوان** . م1 ، ج3 : ص562

[6] ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . بيروت : دار الفكر ، ط1 ــ 1996 ، ص 119

[7] السابق ، ص 25

ذكــرنا أنّ الأسود يرتبط أيضا بآلهة الموت والعالم السفلي ، وقد ورد عند العرب في ذلك قصّة العزّى ؛ فعندما قطع خالد بن الوليد سمرات العزّى خرجت عليه من إحداها عجوز شمطاء سوداء [1]. فهي على ما يبدو صورة من صور (عشتار) وهي سيّدة الدمار والموت . وتكرّرت هــذه الصورة في قصّة (أساف) و(نائلة) ؛ فعند كسر الصنمين خرجت من أحدها امرأة شمطاء ســوداء[2]. وفــي هذا المجال أيضا يذكر أنّ قبيلة طيء عبدت جملا أسود [3]، وكانت عك إذا خرجت للحج اصطحبت معها غلامين أسودين يسيران في المقدّمة ويقولان " نحن غرابا عك "، فتردّد عك خلفهما " عك إليك عانية ، عبّادك اليمانية ، كيما نحج الثانية "[4].

ويبقى هذا الطقس غريبا إلا إذا قرن بالفداء والتطهير ، فقد يكون هذان العبدان هما القربان الــذي تقــوده عــك معها [5]. ولعلّ أفضل ما قيل في هذا المجال هو التفسير الذي قدّمه أحمد النعيمي بالربط بين هذه القصة وقصة التطهير في (أيونا) إحدى مدن اليونان القديمة ، إذ يُختار رجلان دميمان يزيّنان بعقود وتين مجفّف ... ثمّ يطردان من المدينة رجما بالحجارة تخلّصا من النحس[6].

من خلال هذه الصورة للعبدين ، وصورة الرجلين السابقة يظهر أنّ هذين العبدين يمثّلان صــورة مــن صــور إله الموت ، وهو الذي يقضي على تمّوز ، ويخطف (بيرسفوني) وبذلك استحقّ العقاب.

ولمّا كان الأسود رمزا للموت والخراب ، وظلمة القبر فقد أصبح لونا مكروها يُنفر منه ، ومن هنا جاءت عبارة يوم أسود كناية عن التشاؤم به ، وتوقّع الشرّ فيه [7]

---

[1] الكلبي ، ابن السائب ، هشام بن محمد : **كتاب الأصنام** ، تحقيق : د. محمد عبد القادر أحمد ،وأحمد محمد عبيد ، القاهرة : مكتبة النهضة المصريّة ، 1993 ، ص 41 – 42

[2] د. عجينه ، محمد : **موسوعة أساطير العرب**. ج1 : ص248

[3] أبو عبيده ، معمر بن المثنّى (209هـ) :**أيّام العرب قبل الإسلام** ،تحقيق : عادل البياتي ، بغداد : دار الجاحظ للطباعة والنشر ، 1976 ، ج1 :ص 144

[4] الكلبي ، ابن السائب : **الأصنام** . ص 23 – 24

[5] شفاقوج ، لارا عبد الرؤوف : **أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره ، دراسة أدبيّة نفسيّة** . رسالة جامعيّة مخطوطة ، الجامعة الأردنية. 1999 . ص 18

[6] د. النعيمي ، أحمد إسماعيل : **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام** . القاهرة : سينا للنشر ، ط1 – 1995 ، ص 202 – 203

[7] الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد : **فقه اللغة وسرّ العربيّة** ،تحقيق : املين نسيب ، بيروت : دار الجليل ، ط 1 – 1998 ، ص 107

واعتبر الكلب الأسود عند العرب شرّا وسوءا ، وقد حثّ الإسلام على قتله لأنّ عقره أكثر من غيره من الكلاب ، ويضيف الجاحظ أنّه :" ليس في الأرض حيوان من بقر وثور ، وحمار وفرس وكلب وإنسان إلا والسواد أشدّها شرّا وعِصيًا ، وأظهرها قوّة وصبرا "[1]. وهنا تظهر نظرتهم العنصريّة للأسود .

وإذا كانـت الحقيقة العلميّة تؤكّد ما ذهب إليه الجاحظ في مجال القوّة ، فالألياف الحمراء فـي العضـلة تكـون ذات تـردّد بطيء ، ولذا فإنّ التعب لا يظهر عليها بسرعة[2]. والألياف الحمـراء هي التي تعطي اللون الأسود للبشرة عند ترائيها من تحت الجلد الأسمر اللون ــ فإنّ ذلـك لا يقـال في الشرّ ، والعصيّ ، إذ لا تلازم بين القوّة الجسديّة والانحراف السلوكي نحو الفساد والعنف .

وارتـبط الأسود عند العرب أيضا بالسيادة والسيّد لأنّ الناس يلتجئون إلى سواده[3].ويفسّر ابن سيرين سواد شعر اللحية في المنام بأنّه دليل على الاستغناء إذا كان حالكا ، فإذا ضرب إلى الخضرة نال الشخص ملكا ومالا كثيرا ، ولكنّه يكون طاغية لأنها صفة لحية فرعون[4]. ورؤية الحجر الأسود في المنام تعني سرورا وسيادة وشرفا وسلطانا [5]، والملابس السوداء صالحة لمن لبسها في اليقظة ويعرف بها ، وهي سؤدد ومال وسلطان[6]. وقد روى له شخص أنه رأى عدوا فـي ثـياب سود ، وقلنسوة سوداء ويركب حمارا أسود ، فقال له : القلنسوة تعني تولّيه القضاء والحكـم ، والثـياب سؤدد يصيبه والحمار خير.[7]وهذه المعاني تدلّ على مكانة هذا اللون في الثياب وليس في لون البشرة .

وكـان الأسـود عند العرب ، كغيرهم من الشعوب ، يستخدم للوقاية والحماية من الشرّ ، فكانوا يضعون خرزة سوداء في عنق الصبي تسمّى الكحلة لحمايته من العين [8].

---

[1] الجاحظ . **الحيوان** . م1 ،ج1 : ص157 ، ج2 : ص261 ، 370

[2] د. هارون ، بسّام ، وآخرون : **الرياضة والصحّة** ،عمّان : دار المسيرة ،ط1 ــ 1995 ، ص 28

[3] ابن فارس: **مقاييس اللغة** . (سود)

[4] ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير**. ص 74

[5] السابق ، ص 150 ، 119

[6] السابق ، ص 115

[7] السابق ، ص 116

[8] د. علي ، جواد: **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . بيروت : دار العلم للملايين ، وبغداد : دار النهضة، ط2 1978 ، ج 5 : ص 352

وقــد يكون الكحل الذي كثر استخدامه في العصر الجاهلي ، وما يزال مستخدما إلى الآن يــدلّ على هذا المعنى وهو الحماية ودفع الشرّ، لاسيّما أنّ هناك نوعا يكون أخضر يعرف باسم الإثمد ، والأخضر هو لون الحياة والنمو والخلود.

وفي هذا السياق أيضا ما ذكره ابن سيرين من أنّ رؤية الغراب في المنام تدلّ على طول العمــر [1]. فقــد يكون هذا من باب التفاؤل بالضدّ الذي عرف عند العرب ، أو من الباب الذي ذكــر سابقا وهو قداسة الأسود لأنّه يمثّل إله الموت والعالم السفلي ، واستخدامه يتمّ لاستحضار هذا الإله لطلب المعونة بقوّته .

ونظرا لارتباط الأسود بالظلام وعدم وضوح الرؤية فقد كان رمزا للغدر والخيانة ــ كما أســلفنا ، ورمــزا لذهاب العقل والحمق ، وتتضح هذه الصفة عند العرب في قصص ألف ليلة ولــيلة وإن كتبــت في عصر لاحق ،فقبولها يدلّ على رسوخ هذا الاعتقاد في الفكر الإنساني ، واللاوعي الجمعي .

والقصــص فــي ألف ليلة وليلة على خيانة الأسود كثيرة ولذا فسأكتفي بذكر مثال واحد ، وهــو ما جاء في قصّة شهريار نفسه ، وخيانة زوجته له مع عبد أسود ، وكذا زوجة أخيه[2]، ممــا جعله يقدم على عادته الشهيرة التي كانت سببا لهذه القصص الكثيرة ، ولا غرابة بعد ذلك أن تتكرّر هذه الحادثة لارضاء شهريار .

ويوصــف الأســود دائما بالشرّ والبغي ، ومن ذلك ما جاء في قصّة أبي محمّد الكسلان والقرد والشريف ، فعندما أقبلت على أبي محمّد الحيّتان أخذ حجرا ، وضرب السوداء لأنّه اعتقد أنّها الباغية ، وقد صدق حدسه ، كما يرد في القصّة [3].

وفــي مجــال الحقــد والكره يقال للأعداء سود الأكباد لأنّ الحقد قد أحرق أكبادهم حتى اسودّت [4].

---

[1] ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 167

[2] مؤلف مجهول:**ألف ليلة وليلة**، بيروت : دار مكتبة التربية،ط6 ــ 1992 ، ج 1 : ص 6 ،وانظر البقيّة عند: عمر، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ص 200 ــ 205

[3] مؤلف مجهول : **ألف ليلة وليلة** . ج 2 : ص 288 ــ 289 ، الليلة 345 و 346

[4] د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 5 : ص 324

ويــدل الخمار الأسود للمرأة في المنام على سفاهة الزوج [1]، وهذا من باب الظلام الذي يعادل الجهل . ويبقى ذكر الأسود في القرآن الذي يدلّ على الغيظ ، كما في قوله تعالى : "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم" [2] . أو على الفشل والخسران يوم القيامة ، كما في قوله تعالى :" يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون" [3] .

الأبيض في الموروث الجاهلي

يمــثّل الأبــيض في الموروث الجاهلي الجمال والنقاوة والسلام [4]، ولم يذمّ إلا في مجال الشيب وفي باب المفاخرة بين السوداء والبيضاء في قصص ألف ليلة وليلة [5].

ففي تفسير الأحلام مثلا نجد الأبيض رمز الخير والطهر ، فرؤية العنب الأبيض في المنام تعني خير الدنيا[6]، والفرس الشهباء تعني امرأة متديّنة ، والبغلة الشهباء تعني امرأة جميلة[7].

وكذلــك رؤية الأبيض في الثياب فإنّها تعني الخير والصلاح في الدين والدنيا[8]. أمّا شيب اللحــية فــي المــنام فيعني الوقار والهيبة [9]، وذلك لارتباطه بتقدّم السنّ وزيادة الخبرة وعمق التجربة لدى الإنسان ، والتخلّص من نزق الشباب .

واكــثر العــرب مــن ذكر النعمة البيضاء في باب الكناية [10] ، وذلك للدلالة على الخير والصلاح بعيدا عن المنّ ، الذي يفسد النعمة ويسبب الحرج للموهوب.

---

[1] ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 116

[2] النحل ، الآية 58

[3] آل عمران ، الآية 106

[4] ذياب ، محمد حافظ : *جماليّات اللون في القصيدة العربيّة*،مجلة **فصول** ، شتاء ، 1985 ،ع2 / ص 42

[5] مؤلف مجهول : **ألف ليلة وليلة** . ج 2 : ص 331 ــ 335 ، الليلة 376

[6] ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 25

[7] السابق ، ص 148 ــ 149

[8] السابق ، ص 115 ــ 118

[9] السابق ، ص 74

[10] الثعالبي : **فقه اللغة و سرّ العربية** . ص 107

والمــوت الأبيض وهو الذي يأتي فجأة ولم يكن قبله مرض يغيّر لون المريض [1]،أي دون معاناة وألم .

والأبــيض لون مقدّس لارتباطه بالزهرة الكوكب المشهور ــ كما مرّ سابقا ــ فقصة هذا الكوكب تقول بأنّ الزهرة كانت عبارة عن امرأة ذات قدر من الجمال ، وعندما أرسل الله ، جلّ شــأنه ، الملَكين (هاروت) و (ماروت) إلى الأرض فتنا بها ، فأغوتهما وتعلّمت منهما الطريقة التــي يصعدان بها إلى السماء وينزلان . وعندما صعدت عوقبت على فعلتها ، فأُنسيت طريقة النزول وبقيت معلّقة هناك على شكل نجمة[2].

ومــن هــنا نلاحظ الصلة بين الزهرة واللون الأبيض لاسيّما في وصف المرأة في الغزل الجاهلي ، فالزهرة عند العرب هي إلهة الحب والجمال والحرب . ولكلّ ذلك أصبح الأبيض لونا مقدّسا في الفكر الجاهليّ . وقد اعتاد العرب تقديم الضحايا للزهرة من الأسرى أو الأعداء ، وإذا لم يجدوا أسيرا ذبحوا ناقة خالصة البياض قبل طلوع الشمس[3] .

وفــي مجال قداسة الأبيض نجد أنّ بعض القبائل عبدت الشاة البيضاء[4]، وكانت (اللات) عبارة عن صخرة بيضاء [5]، ووصف ذو الخلصة بأنّه مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج[6] ، وكانوا يسمّونه بالمرأة البيضاء [7].

ويذكر من تفضيل العرب للأبيض على غيره من سائر الألوان ، وارتباطه بمعاني الخير والصلاح ما كان يفعله ملوك الحيرة مع الشعراء والمقرّبين ،فقد كانوا يمنحونهم نوعا من الثياب

---

(1) د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 5 : ص 148

(2) الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ) :**جامع البيان عن تاويل آي القرآن**،بيروت : دار الفكر،1988 ، ج 1 : ص 455 ــ 456

(3) شيخو، لويس : **شعراء النصرانية** . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيّين . 1926 . ص 16

(4) الدميري ، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى (808هـ) : **حياة الحيوان الكبرى**، تحقيق: حسن الهادي حسن ، مصر: مطبعة محمد علي صبح ، ج 2 : ص 57

(5) د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 6 : ص 228

(6) الكلبي ، ابن السائب : **كتاب الأصنام** . ص 49 ــ 50

(7) د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 6 : ص 273

عرفت باسم " أثواب الرضا " ، وهي عبارة عن جِباب أطواقها الذهب في قضيب الزمرّد ،وقد وصفت بالبياض ، وسمّاها الإخباريّون باسم " الحبرة البيضاء" [1].

وفي مجال الوقاية من العين والشرور عرف العرب " القبلة "، وهي خرزة بيضاء توضع في عنق الفرس لتحميها من العين[2]، وهذا شبيه بما جاء في الحجر الأبيض في المبحث السابق.

واستمرّت هذه الدلالات للأبيض في الإسلام ، فقد وصفت ثياب أهل الجنّة به ، وجعل لأهل الحجّ والعمرة ، وفي كفن الميّت ، وقد ورد في الحديث الشريف قوله ــ عليه السلام ــ "البسوا من ثيابكم البياض ،فإنّها أطهر وأطيب ، وكفّنوا بها موتاكم"[3].

وقد استخدم في القرآن للدلالة على الطهارة والفوز برضا الله تعالى ،كما في قوله :" **وأمّا الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون** " وفي قصص ألف ليلة وليلة تحوّل المسلمون إلى سمك أبيض[5]، وهذا يدلّ على طهارة هذا اللون وتفضيله على غيره .

ويلحق بالأبيض لون الغبار ، وهو كما تقدّم لون يثير الحزن والكآبة لإهالة التراب على الرؤوس عند الوفاة ، ويرد ذكر بني الغبراء وهم الفقراء لأنّ التراب يعلو رؤوسهم وأجسادهم لبعدها عن الغسل والدهن ، والغبراء هي الأرض مقابل الخضراء وهي السماء عند العرب [6].

ومما زاد من تشاؤمهم من الغبار أنهم كانوا يعتقدون أنّ " الغبار لا يثور إلا لمقتل زعيم من الجنّ " ، ومقتل هذا الزعيم ينذرهم بالشرّ والفساد لرغبة الجان بالانتقام والثأر له [7].

ومن هنا فإنّ هذا اللون وقد شابهُ شيء من السّواد لون مشؤوم ،يخشون منه ويشعرهم بالخوف والخطر ،أو المهانة والاحتقار .

<u>اجتماع الأبيض والأسود :</u>

---

[1] عاقل ، نبيه : **تاريخ العرب القديم** . طبعة دمشق ،ط2 ــ1972 ، ص 203 ــ204

[2] د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 5 : ص 352

[3] النسائي : **سنن النسائي** ،شرح: جلال الدين السيوطي ، المطبعة المصريّة ، ج 8 : ص 205 (الجنائز)

[4] آل عمران ، الآية 107

[5] مؤلف مفقود : **ألف ليلة وليلة** . ج 1 : ص 38 ، الليلة الثامنة

[6] ابن فارس : **مقاييس اللغة** . (غبر)

[7] الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد : **أخبار مكّة** . تحقيق:رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس ط1 ــ 1983 ج 2 : ص 61

إذا كان الأسود يمثّل لون الموت والعالم السفلي ، والأبيض لون الحياة والنور والإشراق ، فإنّ اجتماعهما يمثّل قوّة هائلة ، لأنهما يمثّلان التكامل في هذه الأرض فلا موت دون حياة ، ولا حياة دون موت ، لقوله تعالى في محكم التنزيل :" تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي " ، فالليل والنهار متداخلان وكذا الحياة والموت[2]، ولذا فإنّ اجتماعهما يمثّل القوّة المطلقة في الحياة ويؤكّد ذلك دائرة (اليانج _ ين) التي أشرنا إليها سابقا وهي تعني استمرارية الحياة المطلقة ، إذ الموت يؤدّي إلى الحياة والعكس ، وهما في هذه الدائرة متداخلان بشكل لا يمكن الفصل بينهما [3].

ومن أمثلة اجتماعهما يرد أنّ الحيّة الرقشاء هي أخبث الحيّات ،والرقشاء هي الحيّة التي خالط بياضها سواد ،أو خالط سوادها بياض [4].

والغراب الأبلق في المنام يعني رجلا محتالا ،والمحتال يجب أن يكون على جانب كبير من القوّة والبطش والدهاء حتى يوصف بهذه الصفة[5].

ومنها ما حظي به النسر من مكانة متميّزة لاجتماع السواد والبياض في لونه ، فهو يرمز إلى القوّة في حضارات عديدة ، ومنها العربيّة الجاهليّة . وقد يكون السبب في ذلك عائد إلى نسور لقمان بن عاد ،وارتباطها بطول العمر ومن ثمّ الخلود [6].

والفرس البلقاء في المنام امرأة ذات جمال[7]، وهذه الصفة تذكّرنا بصورة الزهرة التي كانت على جانب كبير من الجمال ، وكانت تمثّل الحبّ والجمال إلى جانب الحرب .

---

(1) آل عمران ، الآية 27

(2) د. الديك ، إحسان: *صدى عشتار في الشعر الجاهلي* ،مجلة **جامعة النجاح للأبحاث** (العلوم الإنسانيّة)،عمادة البحث العلمي ،م15 حزيران 2001 ، ص 144 ــ 152

(3) السواح ، فراس : **لغز عشتار** . ص 168

(4) النوتي ، احمد موسى : **التشاؤم ومظاهره في الشعر الجاهلي** . ص 143

(5) ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 167

(6) د. الرباعي ، عبد القادر : **الطير في الشعر الجاهلي** . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ــ 1998 ص 91 ــ 93

(7) السابق ، ص 148

ويذكر في هذا المجال ما ورد في قصة هدم الكعبة وإعادة بنائها ، فقد وصفت حيّة الكعبة بأنّها سوداء الظهر بيضاء البطن ، وكذلك الطائر الذي رفعها إلى السماء كان على هيئة العقاب ظهره أسود وبطنه أبيض[1].

والوعل الأعصم هو أقوى الوعول ، وأكثرها تحمّلا ، إذ يُعَدّ نزوله عن الجبل دليلا على شدّة المطر الذي لم يسلم منه أحد ولم يحتمله أحد حتّى الوعل الأعصم .

وباجتماعهما أيضا يجمع بين الضدّين وهذا الاجتماع يكوّن جمالا فاتنا ، نجده في العين الحوراء ، وهي أجمل العيون عند العرب ، وفي اجتماع سواد الشَّعر مع بياض البشرة ، وهي من أسمى آيات الجمال عند العرب أيضا .

وهكذا فقد كان اجتماع الأبيض والأسود عند العرب دليل على القوّة والجمال معا ، ولا غرابة في هذا الاجتماع .

الأحمر في الموروث الجاهلي

يرتبط الأحمر _ كما أسلفنا _ بالدم والنار والذهب الأحمر وبعض الأحجار الكريمة ، فهو لذلك متنوّع الدلالات ، وأوّل ما يصادفنا عند العرب هو ارتباطه بالدم .

عدّ العرب الأحمر لون الحياة[2]، وذلك لارتباطه بالمولود من جهة ، ولأنّ خروجه من الشخص يعني خروج الروح ومفارقتها الجسد . ولذا فقد اعتقد الجاهلي أنّ النفس هي الدم لا غير وسمّيت المرأة نُفَساء لما يخرج منها من الدم[3].

وارتبط الأحمر كذلك بالمعارك والقتل ومن هنا جاءت عبارة موت أحمر [4]، أي مات قتلا لما يخرج من القتيل من الدم[5].

---

[1] الأزرقي :**أخبار مكة** . ج1 : ص 161 ــ 162 ،88

[2] الماجدي ، خزعل: **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ** . عمّان : دار الشروق ، ط1 ــ 1997 ، ص 117

[3] د. الفيومي ، إبراهيم محمد : **الفكر الديني الجاهلي** ، القاهرة : عالم الكتب،1979 ، ص 240

[4] الثعالبي :**فقه اللغة وسرّ العربية** . ص 107

[5] د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 5 : ص 148

وكـــان العرب يرشّون القبر بالدم ، واستخدموه أيضا للحلف فكانوا يغمسون أيديهم بالدم عند برم العهد على المناصرة في القتال[1]، وقد استعاضوا عن الدم أحيانا بالنار ، فكانوا يقسمون عـــندها للتأكـــيد علـــى حلفهـــم[2]، وصلة النار بالأحمر بارزة كذلك ، إضافة إلى قداستها في المعتقدات الوثنيّة .

وصـــوّرت الناقة في العصر الجاهلي بأنها ربّة الحرب ، تلقح الأسنّة فتحمل حملا كريها وتدرّ دما أحمر مشؤوما[3]. وفسّر الأحمر في المنام للمريض بالموت[4].

ولهـــذه الأسباب أصبح الأحمر عند العرب لون شؤمٍ في كثير من السياقات ؛ فقد وصف الـــنعمان بن المنذر بأنّه كان دميم الوجه أحمره ، وقصير القامة ، على العكس من إخوته الإثني عشـــر الذين اشتهروا بالوسامة والجمال، وعرفوا باسم الأشاهب ، مما سبّب له عقدة نفسيّة[5] . ومـــن هـــنا نلاحـــظ كره الأحمر في لون البشرة ، وهي صفة للعجم أيضا ، وتفضيل البياض والشهبة عليه .

وقـــد يكـــون ذلـــك مرتبطا بحمرة العجم ، فبنو الحمراء عند العرب هم العجم وذلك لأنّ الشـــقرة أغلـــب على ألوانهم ، ويقال لمن لا يحمل سلاحا في المعركة " يا أحمر " تشبيها بجبن العجم [6]، أو بسبب ارتباط الأحمر بالدم والتشاؤم به لذلك .

ومما ورد في تشاؤم العرب من هذا اللون ومن وصف به نجد أيضا قصة الفتى الذي قتل الجنّي في الكعبة [7]، ومنه ما جاء في قصة الحارث بن حلّزة اليشكري في الخصومة بين قبيلته وبين بني تغلب عندما قال عمرو بن كلثوم : "أرى والله الأمر سينجلي عن أحمر ، أصلج ، أصم من بني يشكر "، فبرز في هذه الخصومة الحارث [8].

---

(1) د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج 5 : ص 73 ــ 74

(2) د. العشماوي ، محمد زكي : **النابغة الذبياني** . مصر: دار المعارف، 1960 ، ص 131 ــ 132

(3) د. أبو سويلم ، أنور: **دراسات في الشعر الجاهلي** ، بيروت : دار الجليل ودار عمّار ،1987 ، ص 185

(4) ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 114

(5) د. إسماعيل ، حلمي محروس : **الشرق العربي القديم و حضارته** . ص 343 ، وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أنّ عيني النعمان كانتا حمراوين دون أن يذكر لون البشرة للمزيد أنظر ،الجاحظ : **الحيوان** . م2 ،ج2 ،ج5 ، 301

(6) ابن فارس : **مقاييس اللغة** . (حمر)

(7) الأزرقي : **أخبار مكة** . ج 2 : ص 15 ــ 16

(8) الأصفهاني : **الأغاني** . ج 11 : ص 44 ــ 45

ومـــنه وصـــف الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، عمرا بن لحى في قصّة الإسراء ، فقد وصفه بأنّه رجل قصير أحمر أزرق ، يجرّ قصبته في النار[1].

وممـــا تشـــاءموا بـــه أيضا الفرس الشقراء وذلك مرتبط بحميرة ، وهي فرس ابن مدلج الجشمي التي كانت سببا في غزو قومها عندما تبعوا آثار الفرس [2].

ولـــرؤية الخيل في المنام دلالات عديدة ؛ فالفرس الشقراء في المنام فرح ، بينما الحصان الأشقر حزن [3] . وقد وصفت خيل الملائكة بأنها شقراء ولذلك حملت الخيل الشقراء في المنام دلالة النصر والتأييد الإلهي [4] .

فالأشـــقر فـــي الخيل ، والبشرة ليس مذموما بحد ذاته وإنما لارتباطه بأمور تنفر منه ؛ فحمرة البشرة مرتبطة بالعجم وبأحمر عاد ، وحمرة الخيل (شقرتها) مرتبطة بحميرة .

وفـــي مجال الدم كذلك نجد ارتباط الأحمر بالخمرة التي كثر تداولها في العصر الجاهلي كمـــا يظهـــر فـــي الشعر ، وهذه العادة تعود إلى الربط بين الخمرة والدم ، وأنّ الدماء ومن ثم الخمرة الحمراء مشروب مقدس خاص بالآلهة ، كما أسلفنا في المبحث الأول .

ومـــن ذلك المقولة السائدة في ذلك العصر وهي إنّ دماء الملوك تشفي من داء الكلب [5]. فكأنهـــا دماء مقدسة ليست كغيرها من الدماء وإنما هي ذات صبغة مقدسة ، ووردت في عبارة أخرى تقول إنّ دماء الأشراف تشفي من الكَلَب [6].

وفـــي ارتـــباط الدمّ بالخمرة نجد العادة التي ذكرناها من نضح الدمّ على القبر تتحوّل إلى نضح الخمرة على القبر ، وهذا يؤكّد أنّ الدمّ والخمرة في الفكر الجاهلي هما شيء واحد .

أمّـــا عـــن ارتباط الأحمر بالنار فهناك إشارات عديدة منها أنّ عبدة الشمس في الجزيرة اتّخـــذوا لهـــا صنما بيده جوهرة بلون النار ، وله بيت باسمه [1]. فلون النار وهو أقرب الألوان

---

[1] الكلبي ، ابن السائب : **الأصنام** . ص 43

[2] النوتي ، أحمد موسى : **التشاؤم و مظاهره في الشعر الجاهلي** . ص 131

[3] ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 148

[4] السابق ، ص 148

[5] الجاحظ : **الحيوان** . م1 ، ج 2 : ص 235

[6] السابق ، م2 ، ج 5 : ص 305

للأحمـــر يدلّ على الشمس عندهم ، ولا غرابة في ذلك فالشمس عند مغيبها تظهر بهذا اللون ، ومـــن هـــنا أصـــبح هذا اللون مقدّسا لدلالته على الشمس من جهة وعلى النار من جهة ثانية ، وكلاهما مما عبدت العرب .

وقـــد ذكر ابن السائب الكلبي في وصف هبل أنّه كان من عقيق أحمر ، وأدركه أهل مكّة ويـــده مكسورة فجعلوا له يدا من الذهب[2]. وهذا الوصف يدلّ على قدسيّة الأحمر ، ويرجّح أن يكون هبل من آلهة الشمس .

ونظرا لارتباط الأحمر بالنار أصبح رمزا لجهنّم في جميع الديانات السماويّة[3]، ولا زلنا إلى الآن نسمع عبارة " جهنّم الحمراء "على ألسنة العامّة .

وفـــي قصص ألف ليلة وليلة تحوّل المجوس إلى سمك لونه أحمر[4]، وما ذلك إلا لأنّهم يعبدون النار ، ويقدّسونها ، ويحرصون على إبقاء جذوتها مشتعلة .

ويرتـــبط الأحمـــر أيضا بالشيطان ، فقد خلق هذا الشيطان من نار ، كما ورد في التنزيل الكـــريم فقد قال تعالى على لسان إبليس : " **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** " ولذا دلّ هذا اللون في الثياب على الفساد في الملك والحكم .

وقد نهى الإسلام عن ارتدائها لما فيها من البطر والكِبر ، والتشبّه بسلاطين العجم[6] ، فقد روى شخص أنّه رأى في المنام أنّ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، عمّمه بعمامة حمراء

---

[1] د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** .ج 5 :ص 159

[2] الكلبي ، ابن السائب : **الأصنام** . ص 43

[3] عمر ، أحمد مختار : **اللغة و اللون** . ص 164

[4] مؤلف مجهول : **ألف ليلة وليلة** . ج 1 : ص 38 ،الليلة الثامنة

[5] الأعراف ، الآية 12

[6] ابن حنبل،أحمد (214هـ) : المسند . ط1. بيروت : دار الكتب العلميّة . 1993 . ج1 : 101 ، 129

لواهـا اثنتيـن وعشرين لية ، فقيل له : " تلي اثنتين وعشرين سنة ولاية في بغي "، فحصل ما ذكرله [1] . والحمرة في الثياب للنائم تعني كثرة المال مع منع حقّ الله فيه ، وللملك دليل اشتغاله باللهو وبعده عن أداء مهمّته[2].

ولمّا كان الأحمر مرتبطا بالذهب والجوهر والزينة أصبح لذلك يدلّ على اللهو والسرور ، وقد ذكر العرب أنّ الخمر واللحم والطيب هي الأحامرة الثلاث التي ذكرها الأعشى بقوله :

إنّ الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بها قديما مولعا

الخمر واللحم السمين وأطّلي بالزعفران فلن أزال مولعا[3]

وقيل أهلك الرجال الأحمران : اللحم والخمر ، وأهلك النساء الأحمران : الذهب والزعفران[4]، لهذا السبب كانت الحمرة في غير الثياب دليل سرور وفرح[5]. وقد كثر استخدام الأحمر في هذا المجال حتّى ظنّ بعض الباحثين أنّ الأحمر دليل الفرح فحسب [6].

وقـد عـرف العرب الخضاب ، واختضبوا به في الأعراس والأعياد ، ثمّ أصبح خاصا بالمـرأة تتزيّـن به لتحظى بالإعجاب ،وقد حثّ الإسلام عليه للمرأة من هذا الباب[7]، كما حثّ علـيه للرجال في صبغ الشيب وإخفاء بياضه[8].أما استخدامه عند الجاهليّين فكان لقداسته التي تحدّثنا عنها في المبحث السابق ،ولكونه طقسا يمارس لاستحضار الطاقة الإخصابيّة .

كمـا عـند الشعوب الأخرى استخدم العرب الأحمر للسحر، فكانت المادّة التي يكتب بها السـحرة هـي الحـبر الأحمـر ، أو دم الإنسان ، أو دم الضحيّة ، أو الزعفران[9]، علما أنّ الزعفران مادّة صباغة بين الأصفر والأحمر وهو أقرب للأحمر[10].

---

(1) ابن سيرين ، **تفسير الأحلام الكبير** . ص 115

(2) السابق ، ص 115 ـ 118

(3) د. علي ، جواد : **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج5.: ص 64 ـ 65 ، والأبيات ليست في ديوان الأعشى

(4) السابق ، ج5 : ص 65

(5) ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 115 ـ 118

(6) ذياب ، محمد حافظ : *جماليّات اللون في القصيدة العربيّة* . ص 42

(7) النسائي : **سنن النسائي** . ج8 : ص142

(8) السابق ، ج8 : ص139

(9) د. علي ، جواد : **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج5 : ص 105

(10) الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود : **كتاب النبات** . تحقيق : برنهارد لفين ، بفيسبادن : فرانز شتاينر ، 1974 ، ج3 ص 171-173

وذكـــر فـــي هـــذا المجـــال أن حسان بن ثابت كان إذا تهيأ لإطلاق لعناته خضّب شاربه وعَنْفَقَتَهُ بالحناء ، ولا يخضّب باقي لحيته ، وعندما سئل عن ذلك قال : لأكون كالأسد الوالغ في الدم [1].

وكانوا يعتقدون أن طلاء فم الأسد أو جبينه بالدم يزيد في قوته [2]، لقول الأعشى : [3]

فما مُخْدِرٌ وَرْدٌ كأن جبينَــه يُطَلّى بورسٍ أو يُطانَ بمُجْسِدِ[4]
بأصدق بأسا منك يوما ونجدة إذا خامت الأبطال في كلّ مشهد

فطـــلاء جبيـــن الأسد بالأحمر هنا هو الذي زاد في قوّته ، وقد يكون ذلك من باب تمثّل الحدث الـــذي يُـــرجى حصوله ، ليحدث بالفعل ، وهذا المعتقد كان وما زال سائدا في السحر إذ يلحق الضرر بشيء يتبع للشخص الذي يراد إلحاق الضرر به ليحصل الضرر في الإنسان نفسه.

الأخضر في الموروث الجاهلي

يمـــثّل الأخضر في الموروث الجاهلي لون البعث والنهضة والتجدّد ، وهي الدلالات التي يحملها في الفكر الإنساني عامّة .

ولعـــلّ أبـــرز ما يتميّز به الفكر الجاهلي في هذا الباب هو الوشم والكحل ؛ فالوشم جزء رئيس في لوحة الأطلال ،وهو تصوير يحتذى به لدرجة الإجلال والتقديس ، وقد فسّر الباحثون ذلـــك بأنّ الشاعر يحاول أن يخلق بقدرة الوشم حالة من الحياة الدائمة أو المستمرّة عبر قنوات الزمـــن ، فكـــأنّ الوشم بذلك رقية سحريّة تقصي الموت ، وتساعد على تجدّد الحياة ،لاسيّما أنّ الوشم كان مجدّدا في تلك القصائد [5].

ويـــرى الباحـــث فايز القرعان بأنّ الوشم في لوحة الأطلال يرتبط بالمرأة لأنّ المرأة هي التي تنجب ، ومن ثمّ لها الفضل في حفظ الحياة واستمراريّتها [6] ... ولعلّ سبب ذلك عائد إلى ارتباط السحر في بدايته بالمرأة [7]، فالمرأة هي الساحرة وهي التي تصنع هذه الرقية ، ومن هنا ارتبط الوشم بالمرأة أو الفتاة .

---

(1) الأصفهاني : **الأغاني** . ج4 : ص 143 . العنفقة : شعر بين الشفة السفلى والذقن

(2) القرعان ، فايز عارف سليمان : **الوشم والوشي في الشعر الجاهليّ** . ص 108

(3) الأعشى ، ميمون بن قيس : **ديوانه** . بيروت : دار صادر . 1994 . ص 48 ـ 49

(4) ورد : أسد لونه مشرب بالحمرة ،المخدر:الأسد في عرينه ، المجسد:الزعفران

(5) القرعان ، فايز عارف سليمان : **الوشم و الوشي في الشعر الجاهلي** . ص 95 ـ 117

(6) السابق ، ص 112 ـ 115

(7) السواح ، فراس: **لغز عشتار** . ص 256 ـ 262

أمّـــا الكحل فكان يستخدم للمرأة والرجل على حدّ سواء ، فقد ورد في الأخبار عن رسول الله ، علـــيه الصـــلاة والسلام ، أنّه كان يكتحل بالإثمد ، ويحثّ عليه ، ولكنه ارتبط في الشعر بالمـــرأة لما لها من قوىً سحريّة ، فكأنّ الكحل يمنحها نظرة متبصّرة تتجاوز بها حدود الزمن لتنعم بالخلود ، ومن هنا كانت المرأة الراحلة كحلاء العينين ، فارقت الأرض القاحلة باحثة عن النبات والحياة ، ومن ثمّ الخلود .

ولا غـــرابة فـــي تعلّـــق الجاهليّ بالأخضر لونا للخلود والحياة ، فقد كان يعيش في بيئة صـــحراويّة تفـــتقر إلى عنصر النبات باستمرار ، ولذا فالبحث عن هذا النبات غاية يسعى إليها الإنســـان ، وتوفّـــره يعني توفّر النعم والحياة والخصب ، إضافة إلى ما وقر في نفسه من صلة النبات ببعث (تمّوز) من الموت ، وهي الأسطورة التي ما زال الناس يتمثّلونها دون وعي منهم ممـــا يدعوهـــم لتقديس الخبز دون سائر نعم الله تعالى ، لصلة هذا الخبز بجسد الإله القتيل [1]. واستمرّت هذه الدلالة للأخضر في الإسلام فوصفت به ثياب أهل الجنّة بقوله تعالى : " ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق" . كما وصفت به الجنّة وما بها من زينة ورياش ، قال تعالى: " متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان " .

وفـــي تفســـير الأحلام يرى ابن سيرين بأنّ رؤية الياقوتة الخضراء في المنام يعني امرأة حســـناء[4]، والحمامـــة في المنام امرأة صالحة وأفضل الحمام الأخضر[5]، أمّا البغلة الخضراء فتعني امرأة صالحة طويلة العمر[6].

والخضـــرة فـــي الثياب جيّدة في الدين لأنّها لباس أهل الجنّة ،وهي قوّة دين وزيادة عبادة للأحياء ،وقد تعني إصابة ميراث ، أمّا للأموات فهي حسن حال[7].

---

(1) السواح ، فراس : لغز عشتار . ص 271 وما بعدها

(2) الكهف ، الآية 31

(3) الرحمن ، الآية 76

(4) ابن سيرين : تفسير الأحلام الكبير . ص 330

(5) السابق ، ص 169

(6) السابق ، ص 149

(7) السابق ، ص 115

ومـــن هذه المعاني جاءت عبارة عيش أخضر كناية عن النعيم والسرور والغنى [1]،ومنه أيضا جاء تشبيه الممدوح بالربيع وهو كثير في الشعر الجاهليّ .

يلاحظ عند العرب في هذا الباب التعبير عن الأسود باسم أخضر، وهما لونان متعاكسان ؛ فالأســـود يمـــثّل قـــوى الموت ، والعدم ، والهدم ، بينما يمثّل الأخضر قوى الخصب والخلود والـــتجدّد ، ومـــن ذلك قولهم فلان أخضر أي أسود ، والخضرة في الخيل غبرة تخالطها دهمة وسمي البحر بالأخضر من هذا الباب [2].

ولعـــلّ ذلـــك عائد إلى باب التسمية بالضدّ من باب التفاؤل ، أو عدم الرغبة في ذكر ذلك اللـــون المكـــروه فـــتمّ التعبير عنه بأفضل الألوان ، وأكثرها استحضارا للخير والخصب وهو الأخضر .

الأصفر في الموروث الجاهلي

تخـــتلف دلالة الأصفر باختلاف المجال الذي يذكر فيه ، فهو مقترن بالشمس ، والمرض ، وجفاف النبات ، والزينة ، والطيب .

وقـــد عـــبد العـــرب الشمس وقدّسوها ولكنهم ربطوا بينها وبين لون النار وهو أقرب إلى الأحمر ـــ كما أسلفنا ـــ وهذا أمر طبيعيّ في الجزيرة العربيّة حيث الشمس الملتهبة في الظهيرة ووقت الزوال ولا يكاد الشخص يرى لونها في هذا الوقت عندما تكون صفراء اللون .

ولاقـــترانه بالطيـــب والذهـــب أصـــبح رمزا للمجد والثروة [3]، ومن ذلك ما يروى عن الزبرقان ابن بدر ،فقد كان له بيت من عمائم وثياب ، وينضح بالزعفران والطيب ، وكانت تميم تحـــجّ ذلك البيت ، وقد سمّي الزبرقان بهذا الاسم لأنّه كان ينضح عمامته بالزعفران ، وكانت سادة العرب تفعل ذلك [4].

---

[1] الثعالبي : **فقه اللغة وسرّ العربية** . ص 107

[2] ابن فارس : **مقاييس اللغة** . (خضر)

[3] ذياب ، محمد حافظ : *جماليات اللون* . ص 42

[4] د. النعيمي ، أحمد إسماعيل : **الأسطورة في الشعر العربي** . ص 119

وقد سبق أن ذكرنا أنّ الزعفران صبغة بين الأصفر والأحمر (برتقالي) ، وقد استخدمت أحـيانا بمعـنى الأحمر وأخرى بمعنى الأصفر [1]، وإذا رجّحت في حبر السحرة الأحمر فذلك للتشـابه مع المواد الأخرى المستخدمة للغرض نفسه ، ولأنّ الصبغ هناك لا بدّ أن يكون مركّزا وهـذا سيزيد في حمرة اللون ، بينما صبغ الملابس والعمائم يحتاج إلى كمّيّة كبيرة من الصبغة وهذا يستدعي تخفيف اللون ، أضف إلى ذلك الغطاء الشعبي لرأس المختار في القرى الفلسطينيّة وهـو عـبارة عـن كوفيّة صفراء اللون تميل إلى البرتقالي قليلا ، و هذا يدعم أن تكون قصّة الزبرقان تعني الأصفر وليس الأحمر.

وعلـى هـذا يكون ارتداء هذا اللون دليل السيادة والمُلك ، وهي صفات تدنو من التقديس للصلة الوطيدة بين الآلهة والملوك في المعتقدات القديمة .

وعن ارتباط الأصفر بالمرض والذبول ترد عبارة مصفرّ الأنامل في كثير من القصائد ، وهي تعني دنو الأجل ،أو الأجل نفسه ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

فيبدؤه بضـربة أو يشـكّه   بنافذة تصـفرّ منها الأنامل [2]

وقد شاعت هذه الدلالة للأصفر أكثر من غيرها ، واستمرّت إلى يومنا هذا ، وفي ذلك يقول ابن سيرين :" الصفرة كلّها مرض ... وهي مرض وضعف إلا في الديباج والخزّ والحرير " [3].

والصفرة في اللحية دليل على الفقر والعلّة [4]،ورؤية حمامة بيضاء في عينها صفار تعني امـرأة جمـيلة فيها سوء خلق[5] ، وهذا يؤكّد ما جاء في المبحث الأول من دلالة الأصفر على الغشّ والخداع .

وفـي قصص ألف ليلة وليلة تحوّل اليهود إلى سمك أصفر [6]، وهم أكثر الشعوب غدرا وخداعا واحتيالا ، يشهد بذلك تاريخهم الحافل بالخيانة ونقض العهود .

---

[1] د. الخويسكي، زين: **معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم** . بيروت : مكتبة لبنان،ط1 ــ 1992 ، ص87 (الزعفران)

[2] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . بشرح : سيف الدين الكاتب ، وأحمد عصام الكاتب . لبنان : دار مكتبة الحياة . 1986 ص 97

[3] ابن سيرين :**تفسير الأحلام الكبير** . ص 115 ، 119

[4] السابق ، ص 74

[5] السابق ، ص 170

[6] مؤلف مجهول : **ألف ليلة وليلة** . ج 1 : ص 38 ، الليلة الثامنة

وقـــد تشـــاءم العرب من الأصفر لأنّ الروم كانوا صفر الوجوه ، دعاهم العرب لذلك بني الأصفر ، والروم هم أكثر الشعوب عداوة للعرب ، وقد وردت هذه التسمية للروم عند عدد كبير مـــن الشعراء ، منهم على سبيل المثال الشاعر العبّاسيّ أبو تمّام ، الذي قال بعد نصر المسلمين في معركة (عمورية) على الروم :

تركت بني الأصفر الممراض كاسمهم صـــفر الوجوه وجلّت أوجـــه العرب[1]

فالأصـــفر هو لون الهزيمة والذلّ ، الذي لحق بهم فتشاكل مع لونهم الأصلي ، وكلاهما ممقوت مـــن العرب . وذكر الشاعر كلمة الممراض ليؤكّد لنا أنّ هذا اللون في الروم هو لون المرض والذبول وليس الأصفر الفاقع الذي يسرّ الناظرين .

الأزرق في الموروث الجاهليّ

الأزرق عند العرب لون مشؤوم مكروه ينفر منه ،وذلك للربط بينه وبين عيون العدو ، أمّا مـــا عرف عند الحضارات الأخرى من تقديس الأزرق فلم يكن عند الجاهليّ ، لأنّ لون السماء عـــندهم كان الأخضر وليس الأزرق ، فاقتصر الأزرق على لون عيون أعدائهم ولون الذباب ، وعيون الجوارح من الطير والحيّات وبعض الهوام [2].

وقـــد وصف العرب كلّ عدوّ بالزرقة فقالوا : عدوّ أزرق ، نسبة إلى زرقة عين الروم ، وتشبيها بهم[3]، ووصفت عين الغول ، والجان الخبيث بالزرقة وذلك من هذا الباب ،وهو الدلالة على المكر والعداوة ، وفي ذمّ زرقة العين قال صحار العبديّ :

ولا عيب فيها غير شُكْلَة عينها كذاك عتاق الطير شُكلٌ عيونها[4]

ويقول الشاعر في زرقة العين أيضا ،ذاكرا زرقة الجان :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر كذا كلّ جنّيّ من اللؤم أزرق[5]

---

[1] التبريزي : **شرح ديوان أبي تمّام** ، تحقيق: محمد عبده عزّام . م1 . مصر : دار المعارف . 1964 . ص 73 ــ 74

[2] د. عجينه ، محمد : **موسوعة أساطير العرب** . ج 2 : ص 201

[3] الثعالبي : **فقه اللغة و سر العربية** . ص 107 ،حاشية المحقّق

[4] الجاحظ : **الحيوان** . م2 . ج 4 : ص 93 ، ج 5 : ص 300

[5] ابن سيدة الأندلسي ، أبو الحسن علي ابن إسماعيل(458هــ) : **المخصّص** ، بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، السفر الأوّل ، ص 100 ، وانظر الجاحظ . **الحيوان** . م2 . ج5 : ص 301

وقد تشاءم العرب من البسوس وهي زرقاء العينين ، والزبّاء ملكة تدمر ، وزرقاء اليمامة لهذه الصفة ، كما تشاءموا من كلّ أزرق العينين[1].

ويروى من أسباب الوأد عند العرب أنهم كانوا يئدون الفتاة إذا كان بها نقص عند الولادة كأن تكون زرقاء ، أو شيماء ، أو برشاء ، أو لحساء ، وهي صفات يتشاءم بها العرب[2].

ومن هنا نلاحظ الموقف المعادي الذي وقفه العرب من هذا اللون مما جعلهم يئدون بناتهم لمجرّد أن يولدن بهذا اللون وهي نظرة مغالية في العنصريّة .

ولـــم يقـــترن الأزرق في ذهن العربي المنحدر من نسب سكّان الجزيرة إلى الآن بما هو إيجابي في الحياة ،ولذا فقد عدّ ابن سيرين الأزرق في المنام كلّه همّ وغمّ [3].

أمـــا ما وصل إليهم من عادات متّصلة بهذا اللون كالعين الزرقاء مثلا فمارسوها دون أن تغيّر من نظرتهم العنصريّة لهذا اللون .

---

(1) الجاحظ : **الحيوان** .م2 ، ج5 : ص 300 ــ 301

(2) د. علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ج5 : ص 88 ــ 89

(3) ابن سيرين : **تفسير الأحلام الكبير** . ص 119

الفصل الثاني

مواطن اللون في الشعر الجاهلي

يحتل اللون في الشعر الجاهلي مساحات واسعة ، فقد أكثر الشعراء من ذكر الألوان حتى بدت صورهم لوحاتٍ فنية رسمت بريشة فنان ماهر تمكن من محاكاة الطبيعة من جهة ثم صبغ لوحته بمشاعره الخاصة ، فكانت قطرة من روحه ، ونسمة من معاناته وهمومه .

والشـــعراء في تعاملهم مع الألوان لم يكونوا تسجيليين مقلدين ، وإنما صدروا عن الحس الجمعي والعقلية السائدة ، ولذا جاءت صورهم شبه مكرّرة ، أو تعاملوا مع الألوان في دلالاتها العامّـــة على نحو واحد ، وإن كانت لكلّ منهم خصوصيّة معيّنة في الجزئيّات الدقيقة ،يدلنا على ذلك ما ذهبنا إليه في الفصل السابق من دلالات الألوان وتأويلها ، فاللون يختلف باختلاف البيئة التـــي يـــرد فيها ، وتختلف دلالته تبعا لذلك باختلاف الموطن اللوني ، وتعامل المجتمع مع هذا اللون في هذا السياق . وفيما يلي عرض مفصل لمواطن الألوان وتعامل شعراء المعلقات معها .

أولاً : مواطن اللون الأسود

الأسود من أكثر الألوان ترددا في الشعر العربي فلا يتفوّق عليه في العدد سوى الأبيض . وهـو كذلـك مـن أكـثر الألوان دلالة ، وهذا أمر طبيعي فهو مرتبط بأشياء عديدة في البيئة والإنسان نفسه ، ومن هنا اختلفت الدلالات فتارة يعدّ مصدر جمال وقوة ، وأخرى مصدر حزن وتشاؤم ، تارة يدعو إلى الفخر والإعتزاز ، وأخرى يكون مدعاة للتشاؤم والطيرة ، وإذا تتبعنا مواطن هذا اللون في الشعر الجاهلي نجدها على النحو الآتي :

1 ــ الأسود في الإنسان :

لعـل من أكثر الصفات المحببة للأسود ارتباطه بالإنسان ، وفي الوقت نفسه فإن ارتباطه بالإنسان أيضا كان مدعاة للذمّ وضعة الشأن ، وهذا التناقض عائد لاختلاف العضو الملوّن .

فالأسود هو أكثر الألوان المحببة للشّعر والعين واللثة ، والشفاه وهي الصفات التي طالما تغنّى بها الشعراء ومجّدوها في معشوقاتهم ومن ذلك قول امرئ القيس في الشعر الأسود:[1]

وفرعٍ يزينُ المتنَ أسود فاحمٍ   أثيثٍ كقنو النخلة المتعثكل [2]

فهـو هنا يصف شَعْر محبوبته الأسود الفاحم وهي صفة جمال وزينة كما يذكر في البيت .ومن ذلك قول النابغة في وصف محبوبته كذلك :

و بفاحم رَجْلٍ ، أثيثٍ نبتُه   كالكرم مال على الدِّعام المُسْنَدِ[3]

فهو يصف شعر المرأة بالأسود الفاحم الكثيف المنسدل كأغصان الكرمة وهي صفات محببة في المرأة وشعرها ، بل جعله كثيفا ليزيد في حدة سواده .

ولا يقتصـر وصـف السـواد والتغني به على شعر المرأة بل هي صفة محببة في شعر الرجل كذلك ، وفي ذلك نجد قول عبيد بن الأبرص :

درَّ دَرُّ الشباب والشعر الأسـ   ـود والراتكات تحت الرحال[4]

فهو هنا يتلهف على شبابه وشعره الأسود .ونجد هذا المعنى في قول امرئ القيس :

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . بيروت : دار صادر . 1998 . ص 44

[2] فرع : الشعر . أثيث : كثيف . المتعثكل : خرجت قنواته

[3] النابغة الذبياني : **ديوانه** . تحقيق كرم البستاني . بيروت : دار صادر (د.ت) ص41

[4] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . شرح :أشرف أحمد عَدَرة . ط1 . بيروت : دار الكتاب العربي 1994، ص 97 .

الراتكات : الإبل السريعة .

وقالت بنفسي شبابٌ له ولمَّتُهُ قبل أن يَشجُبا
وإذ هي سوداء مثل الفُحَيم تغشّي المطانب والمَنْكِبا [1]

فقد نهى الشاعر هند في هذه القصيدة عن زواج الرجل الضعيف فاعتذرت بهذين البيتين وحجتها فيهما هي سواد الشعر والشباب . ومنه أيضا قول الأعشى :

وإذا لمّتي كجناح الغُداف ترنو الكعابُ لإعجابها [2]

ومن هنا نلاحظ إعجاب الشعراء باللون السود في الشعر ومدحه ، ومحاولتهم البحث عن صور لتدل على شدة هذا السواد فهو يشبه بجناح الغراب الأسود الضخم وبالفحم ، وبالظلام [3] وغيرها من الأمور البينة السواد .

والسبب في هذا الميل نحو الأسود واضح ومعروف ، وهو كره الشيب بما فيه من ضعف وإنذار بالموت ، مما جعلهم يمجدون اللون المعاكس له والمبعد له . ولعل اختيار السواد دون سائر الألوان للشعر هو أصدق دليل على ذلك ، فالسواد هو أكثر لون يظهر فيه البياض (الشيب) فإذا كان الشعر أسود فاحما فهذا دليل قاطع على الشباب ، وبُعد الشيب الذي سيظهر في السواد عندما يبدأ بالانتشار ، أما سائر الألوان فإنها تخفي الشيب وتخفي حدة ظهوره .

هذا عن الأسود في الشَّعر ، أما في العين فقد مُدح السواد أيضا ، ولا سيّما إذا كان بيّنا وذلك في العين الحوراء حيث تجتمع شدة السواد مع شدة البياض المحيط به مما يبرزه بشكل أجلى ، وقد كثرت الأشعار التي تحدثت عن العين الحوراء ، أو الكحلاء ، أو السوداء حتى نافت عن الخمسة والعشرين بيتا لدى شعراء المعلقات وحدهم ، ومن هذه الأبيات قول عبيد بن الأبرص:

وإذ هيَ حوراء المدامع طَفْلَةٌ كمثل مهاةٍ حُرَّةٍ ، أمِّ فَرْقَد [4]

فهو هنا يذكر العين الحوراء ويتغنّى بها ، ويشبهها بعين المها الشهيرة بسوادها وسعتها . وفي العين الكحلاء يقول الأعشى في الغانيات مشبها إياهن بالظباء :[5]

فيهن مَخْروفُ النواصف مسـ ـروق البُغام شادنٌ أكحلْ [6]

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 74

[2] الأعشى : ديوانه . ص 24

[3] ينظر ديوان عنترة العبسي ، ص32 ، 72 حيث يشبه الشعر الأسود بالظلام وممن ذكر سواد الشعر أيضا : الأعشى : **ديوانه** . ص 75 ، 177

[4] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 57

[5] الأعشى : **ديوانه** . ص 172

[6] المخروف : الذي أصابه مطر الخريف . النواصف : الأودية

رخصٌ ،أحمُ المقلتــين ضعيـــ ـــف المِنكبين ، للعناق زَجِلْ [1]

فهن كحيلات العيون سود المقل كالظباء وهي كما يشير السياق صفات حسن وجمال .

ولا يقتصر السواد على عين المرأة بل هي صفة للعين بشكل عام عند العرب فقد ذُكر هذا اللـــون فـــي معرض الحديث عن الرجل كذلك ، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص مخاطبا امرأ القيس :

أتوعد أسرتي وتركت حجراً يريغُ سواد عينيه الغُراب[2]

فقد ذكر عين حجر وسوادها هنا وكيف أنهم قتلوه وتركوا جثته للغربان فنهشت هذه سواد عينيه

وهذا عنترة يدافع عن لونه ، وحجته في ذلك أن السواد لون العيون المحبّب فلا ينبغي أن يعاب ، يقول :

وما وجد الأعادي فيّ عيباً فعابوني بلونٍ في العيون[3]

فالأسود في العين لون محبّب يدعو إلى المدح أو الفخر لأنه صفة جمال وحسن ، والسبب في ذلك أن هذا هو اللون السائد في الجزيرة العربية وهو لون يدل على حدّة البصر ، وهو يقابل اللـــون الأزرق الـــذي وجـــد في الجوارح وفي العدو فنفروا منه ، ولذا كان الأسود هو اللون المحبـــب الدال على الأصالة ، وحدة البصر والجمال ، الذي يزيد جمالاً مع بياض البشرة الذي وصفوه وتغنوا به كما سنرى في الصفحات المقبلة .

وقـــد أسلفنا في الفصل الأول أن اجتماع الأسود مع الأبيض يزيد في قوة الشيء ، ويزيد الجمال لاجتماع الضدّين فلما صوّروا المرأة ، والسيد الكريم الأصيل باللون الأبيض كان اللون الأسود في الشّعر والعين هو المتمم لصورهم هذه ، مما يزيدها بهاء وجمالا .

ولـــذا فقد أكثر الشعراء من الجمع بين بياض البشرة وسواد الشعر ، أو الجمع بين الأسود والأبيض في وصف العينين ومن ذلك قول عنترة :

منازل تَطْلُعُ البدور بها مبرقعـــاتٍ بظُلْمَة الشّعرِ

صادت فؤادي منهنّ جاريةٌ مكحـــولة المقلتـــين بالحَوَر [4]

فالشـــاعر هـــنا جمع بين اللونين الأبيض والأسود في صورة جميلة ، فالجواري بيض كالبدور وشعورهنّ سود كالظلام ، وكذا وصف المقلتين بالحور الذي يجتمع فيه الأبيض والأسود .

---

[1] الزجل : المصوّت

[2] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . 26

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . دار الكتب العلمية _ بيروت ، طبعة 1995 ، ص 149

[4] السابق ، ص 72

وفي الشفاه نجد اللون الأسود كذلك لونا محببا ، فأجمل الشفاه عند العرب ما كانت لمياء يحيط بها السواد فيزيد جمالها ويَدِق وصفها ، ومن الشعر الذي يتحدث عن لمى الشفاه قول طرفة بن العبد :

وتَبْسِمُ عن ألْمىً ، كأن منوّراً   تخلَّل حُرَّ الرَّمْلِ دَعْصٌ له نَدِي[1]

ومنه قول الأعشى :

تجري السّواك بالبنان على   ألمى ، كأطراف السّيال رَتِل[2]

ومن الصفات المحبوبة في الإنسان سواد اللثة فقد كانت اللثة تطلى بالإثمد كي يبرز بياض الأسنان ولمعانها . وإذا عرفنا خصائص الإثمد الذي كان يوضع في العين لحمايتها وعلاجها فقد يكون وضعه على اللثات من هذا الباب أي لتطهير الفم وقتل الميكروبات ، وتطييب رائحته ، أمّا الشعراء فلم يذكروا شيئاً من ذلك وإنما وصفوا اللثات السود المطلية بالإثمد وعدوها صفة جمال وحسن دون تعليل . ومما قيل في وصف اللثات السود قول النابغة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكةٍ   بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُهُ بالإثمدِ[3]

والبرد هنا الأسنان . ومنه أيضا قول طرفة في وصف ثغر المرأة عند تبسمها :

سقته إياةُ الشمس إلا لِثاته   أُسِفّ ولم تكدم عليه بإثمدِ[4]

وقد توصف الشفة بأكملها بالسواد وليس فقط اللمى أو اللثة ، والشفة اللعساء من أجمل الشفاه عند العديد من الشعراء ، وممن ذكرها الحارث بن حلزة بقوله :

وبالسبيك الصّفر يعقبها   وبالآنسات البيض واللعس[5]

والبيت ورد في معرض مدحه للملك المنذر بن ماء السماء الذي يهب هذه الأعطيات ، فلا بد أن تكون العطيّة من أفضل الأشياء وأجملها لتليق بمقام الممدوح ، فالمال من الذهب ، والجواري من النساء البيض سود الشفاه ، وهو هنا يعيدنا إلى اجتماع الأبيض والأسود ليزيد في وضوح الجمال وحسنه .

وفي مقابل هذه الصور المحببة فإنّ الأسود في بشرة الإنسان لون ينفر منه الشعراء ويمقتونه ، وذلك لاقتران هذا اللون بالظلام وآلهة الشّر والقوى السلبية كما أسلفنا في الفصل

---

[1] طرفة بن العبد : **ديوانه** . شرح : مهدي محمد ناصر الدين . ط1 . بيروت : دار الكتب العلميّة . 1987 . ص 20

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 173

[3] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 40

[4] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 20

[5] الحارث بن حلزة اليشكري : **ديوانه** . تقديم عمر الطبّاع . بيروت : دار القلم . 1994 ، ص 82

الســـابق مـــن جهـــة ، ومن جهة ثانية لاقترانه بطبقة العبيد ، وللشبه القائم بين هذا اللون ولون الغراب الطائر المشئوم .

ولعـــلّ أكثر الشعراء استخداما للون الأسود هو عنترة العبسي وذلك لإحساسه بالظلم من هـــذه المعاملة الدونية في مجتمعه ، فهو أقلّ شأنا من والده وأبناء عمومته بسبب هذا اللون الذي كســـاه بالعار والنقيصة دون غيره من فرسان القبيلة ، ولا يشفع له في ذلك شجاعته وبطولته ، فهـــو حامي العشيرة بلا منازع ، وهو الفاتك الذي يخشى نزاله أعتى الفرسان ، ومع ذلك فهو دون هؤلاء الفرسان لسواد بشرته .

ولـــذا فقـــد أورد في ديوانه ما يزيد على العشرين بيتا يدافع فيها عن لونه ويعتذر عنه ، ويحاول أن يذكّر قومه بأفعاله للتغاضي عن هذه المثلبة الملازمة له ،وفي ذلك يقول عنترة :

تعيّرني العدا بسواد جلدي ‏ ‏ ‏ ‏ وبيض خصائلي تمحو السّوادا[1]

وفي هذا المعنى يقول أيضا :

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني ‏ ‏ ‏ ‏ وما لســـواد جلـــدي من دواء[2]

ولكن تبعـــد الفحشـــاء عنّي ‏ ‏ ‏ ‏ كبعد الأرض عن جوّ السماء

ومنه قوله :

وقد أمسوا يعيبوني بأمّي ‏ ‏ ‏ ‏ ولوني كلّما عقدوا وحلوا[3]

وعنـــترة إذ يدافع عن سواده هذا فإنه لا ينكر خبث هذا اللون والنفور منه ، فهو يرى أنّ الأســـود رمز الخبث والمكروه ، ولكنّه ليس كذلك لأنه لم يتأثّر بسواد ظاهره وإنما فعاله بيض فهو سيّد وابن سيّد وإن كان ظاهره يشي بغير ذلك .

والأبيات السابقة تمثّل هذه النظرة حيث يدافع عن لونه ويؤكد لنا بياض فعاله على العكس من لونه الأسود [4]، وهو في معرض آخر يذم السواد في قوله :

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 46

[2] السابق ، ص 8

[3] السابق ، ص 105

[4] لمعرفة المزيد عن تعامل عنترة مع هذا اللون ينظر : لارا عبد الرؤوف شفاقوج ، ص 11 ــ 46

ليسوا كأقوامٍ علمتهم سود الوجوه كمعدن البُرم [1]

فهـــو يصف عدوه بالبياض ويؤكد ذلك للدلالة على شرفه وسيادته ، فصرعه لهذا العدو يدعوه للفخـــر لأنه انتصر على كريم الحسب أبيض أغرّ ، ولم ينتصر على من هم دوناً عنه من سود الوجـــوه . والشاعر هنا ينساق بتيار العصر الذي يحيا فيه ويؤكد النفور من هذا اللون والشعور بتدنـــي منزلـــته ، وإن كان بعض الباحثين يشكك في صحة نسبة هذا البيت ومثيله لعنترة لأنها تخالف ما جاء عليه أكثر الأبيات من الدفاع عن السواد [2] .

والحقـــيقة إنّنـــي أرى هذا البيت لا يخرج عن جوّ الشاعر ونفسه في ديوانه ، وذلك لأن الشـــاعر لـــم يدافـــع عن لونه إلاّ لشعوره بالنقص بسببه ، فطبيعة الإنسان تحاول دائماً تغطية الضعف والاعتذار عن الخطأ ، وهذا سبب كثرة الدفاع عن الأسود في شعره ، وإلا لما اكترث برأي قومه واعتدّ بشجاعته دون محاولة إخفاء ما يعتريه من نقص بسبب لونه .

ومن جهة أخرى فإن عنترة قد أولع بابنة عمّه عبلة ، وفي رأيي أن السبب وراء ذلك ليس حبا عابرا جاء مصادفة فطرق قلب هذا الشجاع المغوار ، وإنما جاء عن دراية وحاجة في نفس الشاعر ، فهو أراد أن يُعتَرَفَ به كسيّد من الأسياد ، وأن يأخذ حقه الشرعي في النسب إلى والده ولـــذا فقد اختار ابنة عمّه تمشيا مع عادات الأشراف في ذلك ، واختار لمحبوبته هذه اسم عبلة الذي يوحي معناه باللون الأبيض ، فالأعبل هو الجبل الأبيض والعبلاء هي الصخرة البيضاء أو الهضبة البيضاء [3] كذلك ، ومن هنا فقد جاء اسم عبلة حاملاً معنى البياض ليؤكد لنا بأنّه كغيره من السادة البيض لا ينقص عنهم شيئاً على الرغم من سواده الممقوت .

ولم يقتصر ذكر الأسود في البشرة على عنترة وإن كان أكثر الشعراء ترديداً له ، فقد ذكر الأعشى سواد البشرة وذلك بقوله :

ليست بسوداء ولا عنفصٍ داعرةٍ تدنو إلى الداعِرِ [4]

وهـــو في مجال الذم للأسود إذ يذكرنا الشاعر بأن هذه المرأة بعيدة عن الذم واللوم لأنها لا تحمل هذه الصّفات وعلى رأسها السواد .وفي هذا المعنى يقول طرفة :

كأنّ السلاح فوق شعبة بانةٍ ترى نَفَخاً وَرْدَ الأسِرّة أسحما [1]

---

(1) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 128

(2) الأحمد ، أيمن محمد سليم: **الرق و مظاهره في الشعر الجاهلي** . ص 123

(3) ابن منظور : **لسان العرب** . (عبل)

(4) الأعشى : **ديوانه** .ص 92 ، وله في ذكر الأسود بيت آخر ص 42

فهـــو هنا يذم ابن عمّه وصهره عبد عمرو ، وقد وصفه باللين ، والانتفاخ والتجعّد والسواد من باب الثلب والمذمة . وذمّه كذلك النابغة في وصف المرأة فقد ذمّ السوداء بقوله :

تحيد عن أستن سودٍ أسافله مشي الإماء الغوادي تحمل الخُرَما [2]

ودافع عمّن أحب بقوله إنها ليست سوداء كبيت الأعشى السابق ، وذلك بقوله :

ليست من السود أعقاباً إذا انصرفت ولا تبيعُ ، بجنبي نخلة ، البُرما [3]

وهكذا نجد أنّ السواد في البشرة لون مكروه تنفر منه العين ، وتأباه النفس ويدعو للتشاؤم .

وفـــي مجـــال الأسود في الإنسان نجد الأسود الطارئ الذي يتركه لبس الحديد في الجسد وهـــي صفة تفاخر بها الشعراء وعدّوها من المكارم ، فلا يطيل لبس الحديد إلاّ الشجاع الباسل الذي يصمد في المعركة ويقهر عدواً إثر عدو . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم في الدروع :

إذا وُضِعَتْ عن الأبطال يوماً رأيتَ لها جلودَ القوم جونا[4]

ومنه أيضا قول عنترة :

ولو أني كشفت الدرع عنِّي رأيتَ وراءه رســـماً مُحيلاً[5]

فكلاهمـــا يؤكـــد على السواد الذي يعلو الجسد نتيجة لبس الدرع لفترة طويلة ، مما يغير لون البشرة إلى الأسود ، وهي كما أسلفنا صفة يفخر بها الشاعر .

وقد يسودّ لون البشرة لتأثير خارجيّ كالبرد مثلاً ، وفيه يقول الأعشى :

وإذا القيانَ حســبتها حبشـــيّةً غبراً وقل حلائـــب الأرفـــاد[6]

فهـــو يقـــول هنا بأنّ القيان قد تحوّل لونها إلى الأسود بسبب شدّة البرد وإمحال الأرض ، وما يترتب على ذلك من الجوع والتقشّف ، فالسواد هنا صفة مشؤومة .

وممـــا يـــتعلق بالإنسان أيضا لون الثياب ، وقد وصف الشعراء ثيابهم بالسواد في مجال الحداد والحزن ، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة : [7]

يخمشن حُرَّ أوجهٍ صحاح

في السُّلب السود وفي الأمساح[1]

---

[1] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 70

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 103

[3] السابق ، ص 101 ، البرم : القدر من النحاس .

[4] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . شرح وتقديم عمر الطبّاع . بيروت : دار القلم . 1994 ، ص 99

[5] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 104

[6] الأعشى : **ديوانه** . ص 52

[7] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . تحقيق : د. حنّا نصر الحتّي . ط1 . بيروت : دار الكتاب العربي . 1993 . ص 60

وهــو هــنا يصوّر النائحات اللواتي يضربن وجوههنّ ويرتدين الثياب السوداء ، وثياب الشّعر وكلاهمــا دليل على الحزن والبعد عن الزينة والرفاه ، علماً بأنهنّ كريمات الأصل . ويقول في موضع آخر بهذا المعنى :[2]

متسلبات في مسو ح الشّعر أبكاراً وعونا[3]

وهي علامة حداد أيضا . ويقول في موضع آخر مشبهاً صوت الرعد بصوت النائحات :[4]

كأنّ مصفحات في ذراه وأنواحاً عليهنّ المآلي[5]

فيصف الشاعر هنا الجبل ، وقد تردّد فيه هزيم الرعد ، فكأنّه في ذراه سرب نوقٍ أخذن بالحنين الموجع لبعدهن عن صغارهن ، أو جمع نائحات في مأتم . وفيه يذكر خِرق النائحات السوداء .

وقصــة امرئ القيس في ارتداء العمامة السوداء عند مطالبته بثأر أبيه شهيرة ، فقد كانت العمامة السوداء لا تلبس إلاّ لذلك [6] .

2 ـ الأسود في الحيوان :

وصــف الشــعراء الحــيوانات بهذا اللون أو الألفاظ الدالة عليه بشكل كبير ، حتى نافت الأبــيات التي تذكر السواد في الحيوان عن الستين بيتا ، ولم يدانها في هذا العدد سوى الأبيض ولــم يكن وصفهم هذا من باب محاكاة الواقع بل على العكس من ذلك فقد يكثر الشاعر من ذكر الإبــل الســوداء على قلّة هذا اللون في الجزيرة .فلا بدّ إذن أن يكون السبب في ذلك عائدا إلى صفات معنويّة أراد الشاعر أن ينقلها إلينا من خلال اللون ،فقد يدل الأسود على قوّة الحيوان أو نجابته أو من باب التشاؤم به .

ومــن معانــي القوّة التي أشار الشعراء إليها بهذا اللون قول عنترة في وصف قوّة الخيل واقتحامها الخطر :

---

[1] السلب : الثياب السوداء . الأمساح : ثياب من الشّعر .

[2] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 264.

[3] أبكار : جمع بكر وهي العذراء حديثة السّن . عون : جمع عوان وهي متوسطة العمر .

[4] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 165

[5] المصفّحات : النوق التي عزلت عن أبنائها . المآلي : الخرق السوداء .

[6] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 16 ، مقدمة الناشر .

والخيل سود الوجوه كالحة   تخوض بحر الهلاك والخطر[1]

فقد جعل خيله سود الوجوه لتقابل الخطر الذي يواجههم ، ومنه أيضا قول امرئ القيس :[2]

والماء منهمر ، والشدّ منحدر   والقصب مضطمر ، واللون غربيب[3]

فقد جعل فرسه حالكة السواد للدلالة على قوّتها وصلابتها في المعركة ، ثمّ يضيف :[4]

كأنها حين فاض الماء واحتَفَلت   صَقْعاءُ لاح لها في المرقب الذِّيب[5]

ومـــن الأبيات التي تدلّ على نجابة الحيوان لسواده قول الحارث بن حلّزة في مدح المنذر ابن ماء السماء ، ذاكرا عطاياه :

يحبوك بالزغف الفيوض على   هميانها والدهم كالغرس[6]

فجعــل العطيّة دروعا سابغة ، وأكياس مال ، والخيل السود الفتيّة ، فسواد الإبل هنا دليل نجابة وأصالة ، ومن ذلك أيضا قول عمرو بن كلثوم :

رددتُ على عمرو بن قيس قلادة   ثمانين سودا من ذرى جبل الهضب[7]

فالشاعر هنا يباهي بعطيّته وهي عبارة عن خيول سوداء تشبّه لنفاستها بالقلادة .

وعــندما سُـئل ابن لسان عن الإبل قال : " حمراها صبراها ، وعيسها حسناها ، وورقها غزراها ، ولا أبيع جونة ولا أشهد مشراها ". ويقصد بذلك أنّ الإبل السوداء ليست للمتاجرة فلا تــباع إلا لعيــب فيها [8].وهذا ينطبق على الخيل كذلك فالسواد فيها صفة أثيرة كما يرى أكثر الباحثين [9].

أمـــا الشؤم فقد ورد في قول عنترة يصف القافلة التي رحلت فيها المرأة عن الديار ، فقد سار في هذه القافلة عدد من النوق السوداء فقال :

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 73

[2] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 76

[3] الماء : عرق الخيل . الشدّ منحدر : لا تحتاج إلى حثّ لأنّ سرعتها الطبيعيّة تغنيها عن ذلك . القصب مضطمر : جسد الفرس ضامر . غربيب : حالك السواد .

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 76

[5] احتفلت : بالغت في الجري . صقعاء : صفة للعقاب وهي بياض في الرأس .

[6] الحارث بن حلزة : **ديوانه** . ص 82

[7] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 22 ، ردّ : أعطى .

[8] النمري ، أبو عبد الله الحسين بن علي (385هـ) : **كتاب الملمع** . تحقيق : وجيهة أحمد السطل . دمشق : مطبعة زيد ابن ثابت ، 1976 ، ص 73

[9] د. عبد المطلب ، محمد: **قراءة ثانية في شعر امرئ القيس** . ط1 . لونجمان : الشركة المصريّة العالميّة للنشر1996 ، ص 37

فيها اثنتان وأربعون حلوبة　　　سودا كخافية الغراب الأسحم[1]

وقد وقف الباحثون طويلا عند هذا البيت ، فمنهم من رأى فيه أصالة ونجابة هذه الإبل [2]، وهو الأمر الذي عرضناه في الأبيات السابقة ، ومنهم من رأى تشاؤم الشاعر لاختياره هذا اللون [3]. ويبدو أنّ هذا الرأي هو الأرجح وذلك لاختياره الغراب شبها لهذه النوق ، وقد كان لعنترة وقفة طويلـــة مع الغراب الذي يقيم في الديار بعد رحيل أهلها ، فيتذمّر الشاعر من الفراق ، ويحمّل الغراب مسئوليته. بل زاد الشاعر على سواد الغراب كلمة الأسحم ليؤكّد هذه الصفة ، ويزيد فيها لتوازي حجم الفجيعة التي لحقت به ، ومقدار التبريح الذي أصابه .

فـــلا أظنّ بعد ذلك أنّ شاعرا مثل عنترة ــ وهو أكثر الشعراء استخداما للألوان ، ووعيا بهـــا ــ يخونـــه الوصـــف ، فلو أراد ذكر السواد باعتباره دليل نجابة لما شبّهه بسواد الغراب المشؤوم في حين يشبّه غيره بالقلادة الثمينة ، لذا لا بدّ أن يكون المقصود ما اعتاد عليه في ذكر الغراب وهو البين والشؤم بسبب السواد .

ومن الحيوانات التي وصفت بالسواد الخيل والإبل ، وفيها ذكرت الأبيات السابقة ، ومنها الحمار الوحشي ، وممن ذكره امرؤ القيس بقوله :[4]

فبات على خدٍ أحم ومنكب　　　وضجعته مثل الأسير المكردس[5]

وقد وصف الشاعر حماره بهذا السواد ليجعله قويا في مواجهة كلاب الصيد ، مما يدلّ على قوّة هذه الكلاب التي تمكّنت من اصطياده بعد جهد .

ومنها الحوت وقد وصفه عبيد بن الأبرص بقوله :[6]

وباصَ ولاصَ في مَلَصٍ مَلاصِ　　　وحوتُ البحر أسود ذو مِلاصٍ[7]

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 119

[2] الجاحظ : **الحيوان** . م1 ، ج 3 : ص 560 ، والأحمد ، أيمن محمد سليم : **الرق ومظاهره في الشعر الجاهلي** . ص 125

[3] د. الرباعي ، عبد القادر: **الطير في الشعر الجاهليّ** . ص 115 ، 116

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 116

[5] الأحم : الأسود . المكردس : الموثوق القيد .

[6] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 74

[7] باص : هرب . لاص : حاد . الملص : الزّلق . الملاص : التخلّص والانفلات .

كلون الماء أسـودُ ذو قشـور   نسِـجْنَ تَلاحُمَ السَّرْدِ الدّلاص[1]

وهـو هنا يريد أن يعبّر عن نشاط الحوت وقوّته في السباحة والاختفاء ، لأنّ الشاعر يقول إنّ لسانه في الشعر وتصريف الكلام أمهر من هذا الحوت في السباحة،فالسواد هنا دليل قوّة وأصالة في الحوت.

ومـن الحيوانات أيضا العقاب والصقر ، وقد أكثر الشعراء من ذكرهما، والتشبيه بلونهما لأنّهمـا طائـران جارحـان قويّان ، يتمكّنان من الفريسة باستمرار ، وأحيانا يذكران لصلتهما بالموت والقتل إذ تجتمع العقبان والصقور فوق جثث القتلى في المعارك ، فذكرها دليل على قوّة الممـدوح من جهة ومن جهة أخرى فهي دليل على التنكيل بالأعداء الذين تركوا للصقور تنهش أجسادهم .ومما جاء في ذكر العقاب قول عمرو بن كلثوم :[2]

جلبنا الخيل من كنفي أريك   عوابس يطّلعن من النِّقاب[3]

كأنّ إناثها عقبانُ دجنٍ   إذا طُوْطِئْن في بلد يَباب[4]

والشـاعر هنا يعبّر عن قوّة الخيل التي تستخدم للقتال وإقدامها ،وفي ذكر الصقر يقول الحارث ابن حلّزة في وصف حصانه وقد جرى خلف الظباء :

لكأنّهنّ لآلئ و كأنّه   صقر يلوذ حمامة لم تدرج[5]

فقـد شبّه حصانه بالصقر هنا ليدلّ على قوّته وعدم مقدرة الفريسة على الإفلات منه ، وأنّى لها ذلك وهي حمامة لم تدرج بعد فلا تستطيع البحث عن مهرب آمن .

ومن صور العقاب الذي يحوم حول جثث القتلى نجد قول عنترة :

وكم من فارس أضحى بسيفي   هشيم الرأس مخضوب اليدين

تحوم عليه عقبان المنـايا   وتحجل حوله غربان بَيْـنِ[6]

فقـد جعل الشاعر للمنايا عقبانا تحوم حول القتيل ، حتى عدّ بعض الباحثين العقاب صورة من صور الموت الذي يدهم الإنسان [7].

---

[1] السرد : الدرع من الحلق . الدلاص : الليّن .

[2] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 21

[3] كنفي : جانبي . أريك : اسم جبل . النقاب : الطريق في الجبل .

[4] الدجن : الغيم المظلم . طوْطئن : جُذب الحبل فأحنين الرؤوس للجري .

[5] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 75 ـ 76

[6] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 142

[7] حسن، خيري صابر: **الفارس والموت في الشعر الجاهلي** . رسالة جامعيّة مخطوطة ،الجامعة الأردنيّة، 1997 ، 170

ومـــن الحيوانات التي وصفت بالسواد كذلك قطعان البقر الوحشي، علما أنّ اللون الغالب على البقرة في هذا الشعر هو البياض ، ومما جاء في ذكر السواد قول الحارث بن حلّزة :[1]

لمن الديـــار عفون بالحبــس   آيـــاتـــها كمهـــارق الفرس[2]

لا شـــيء فيها غير أصـــورة   سفع الخدود يلحن في الشـــمس[3]

ويبدو أنّ السبب في اختيار هذا اللون هو التشاؤم ، لأنّ الحديث يدور حول رحيل المرأة وإقفار المكان ، ولذا فقد خالف الشاعر اللون المألوف للبقرة في الشعر من باب الحزن والتشاؤم .

ومـــن الحـــيوانات التي وصفت بالسواد كذلك الأسد ، وفيه يقول عنترة في مدح قيس بن زهير وقومه بالشجاعة والنوّة :

إذا شهدوا هياجا قلت أُسْدٌ   من السمر الذوابل في عرين[4]

وقـــد شـــبه قومه في الأبيات السابقة بالشموس ، ولكنهم في الحروب أُسد سمراء ، فالسمرة هنا دليلُ قوّة فلا يعقل أن يكونوا بلون الشمس واللون الأسمر معا إلا إذا أراد قوّة هذا الأسد الأسمر التي تفوق قوّة غيره من الأسود .

وذكـــروا أيضا الظليم الأسود ، ويبدو من خلال الشعر أنّ هذا اللون يدلّ على قوّة الظليم وذلك لأنّه من مطايا الجان ، وقد ذكره عنترة بقوله :[5]

صعل يعود بذي العشيرة بيضه   كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم[6]

فهذا الظليم الذي يشبه العبد في سواده يعيش في مكان موحش ، لا يجرؤ أحد على الذهاب إليه ، وقد وصله الشاعر بناقته مما يدلّ على قوّته وشجاعته .

وجعل الشعراء لون بعض الوعول أسود للدلالة على قوّتها كذلك ، ومن ذلك قول لبيد ابن ربيعة في المطر : [7]

وحطّ وحوش صاحة من ذراها   كأنّ وعولها رُمك الجمال[8]

---

[1] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 81

[2] الحبس : موضع . مهارق : جمع مهرق وهو الصحيفة البيضاء يكتب عليها .

[3] الأصورة : قطعان البقر الوحشي . سفع : سود مشربات بالحمرة .

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 150

[5] السابق ، ص 121

[6] الصعل : الصغير الرأس الدقيق العنق . ذو العشيرة : موضع . الأصلم : المقطوع الأذنين .

[7] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 166

[8] صاحة : اسم جبل . رمك : سود .

والشـــاعر هـــنا أراد أن يعبّر عن شدّة المطر فذكر هذا البيت ليدلّ على شدّته فلولا قوة الوعل الأســـود الضخم كالجمل لما اختاره لبيد مثالاً له ، لأنّ الوعل الضعيف يخشى من أدنى عاصفة ممطرة ، أمّا الوعل القوي فلا يجبره على هذا النزول سوى شيء أقوى منه .

ومـــن هـــنا نلاحـــظ أنّ ذكـــر هذه الحيوانات ووصفها بالسواد لم يكن مقصوداً لذاته بل لإعطائها صفات القوة أو السرعة ، أو النجابة ممّا يدل على قوة الشاعر أو شرف الممدوح .

أمّـــا نوق عنترة في لوحة الظعن فجاءت لتعكس لنا ما يجول في خاطره تجاه هذه الرحلة التي تركت الهمّ والألم في نفسه . ويشبههن لذلك بالغربان ، فقد احتلّ الغراب مساحة واسعة في الشعر العربي ، وجاءت صورته عند الجاهليين على نحو واحد ؛ فهو دليل شؤم ونذير خراب ، كما وقر في اللاوعي الجمعي ومن الأبيات التي قيلت في الغراب قول عنترة :

غرابَ البينِ مالكَ كلَّ يومٍ تعاندني وقد أشْـــغَلْتَ بالي[1]

وأجد في هذا البيت مرارة ما بعدها مرارة ، فالشاعر لم يجد خليلاً يواسيه في محنته ، فلجأ إلى غـــراب البين معاتباً على عناده ، وعدم استماعه لاستغاثة الشاعر ، فكان بينه وبين هذا الغراب صحبة وألفة ، فلا يكاد يفارقه لشدة أحزانه وهمومه ، وفي موضع آخر يقول :

يا عبلُ كم تَنْعَقُ غربان الفلا قد ملَّ قلبي في الدُّجى سَمَاعَها[2]

فلم يقتصر الحزن والشؤم عنده على صوت الغربان ، بل زادته ظلمة الليل ظلاما .

وقـــد أكثر الشعراء من ذكر الغراب والشكوى منه ، وجعلوه سببا في الفراق والخراب ، ومن ذلك مثلا نجد قول النابغة :

زعم البوارح أنّ رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغدافُ الأسودُ[3]

فالغراب في هذه الأبيات كان نذير الشؤم الذي حلّ بالشاعر .

ومـــن الصور المكروهة للأسود في الحيوان نجد وصف الجان وإن لم تكن من الحيوانات حقيقة ، وفيها يقول الأعشى :

والجنّ تعـــزف حولهـــا كالحُبـــش في محرابها[4]

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 104

[2] السابق ، ص 81

[3] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 38

[4] الأعشى : **ديوانه** . ص 16

فقــد شــبّه الجنّ بالحبش لسواد ألوانهم ، ومن ذلك أيضا وصف الغول ، وهو حيوان خرافي ، تخــيّله العقل البشري ــ وما زال ــ بصور عديدة ، وقد وصف وجهه بالسواد وفي ذلك يقول عنترة :

والغول بين يديّ يَخْــفَى تارة   ويعود يظهر مثل ضوء المشعل
بنواظرٍ زُرْقٍ و وجهٍ أســودٍ   و أظافر يُشْــبِهْنَ حَدّ المِنْــجَلِ[1]

لم تكن الحيوانات خالصة السواد دائما بل كان الأسود يختلط أحيانا مع ألوان أخرى ، فقد ذكــر السواد في مجموعة من الأبيات السابقة في خدّ الحيوان ، وهناك من يصف قوائم الحيوان وحدها بالسواد ، ومن ذلك قول النابغة في حمار الوحش :[2]

سراته ما خلا لبّاته لهق   وفي القوائم مثل الوشم بالقار[3]

وهو هنا يعطي الحيوان قوّة إضافيّة لاجتماع الأسود مع الأبيض أولا ، ثمّ لأنّه شبّه السواد الذي في قوائمه بالوشم ذي القوّة السحريّة التي تحدّثنا عنها في الفصل السابق .

أما الوعل الأعصم فهو الوعل الذي خالط سواده بياض أو العكس ، وقد اعتبره العرب من أقوى الوعول ، وأكثرها بأسا ، ومن الأبيات التي قيلت فيه ، وهي كثيرة ، قول امرئ القيس في المطر :

ومرّ على القنّــان من نفيــانه   فأنزل منه العصم من كلّ منزل[4]

ومــن مواطن الأسود في الحيوان العيون ، والعين السوداء صفة جمال في البقر والظباء وغيرها ، ومما جاء فيها قول طرفة بن العبد:[5]

طحوران عوّار القذى فتراهما   كمكحولتي مذعورة أمّ فرقد[6]

فهو هنا يشبّه عين الناقة بعين البقرة وكلاهما مكحولة ، والمقصود هنا هو قوّة الإبصار عندهما وهناك من وصف القرن بالسواد أيضا ، كما في قول زهير :[7]

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 114

[2] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 25

[3] لهق : أبيض . سراته : ظهره . القار : الزفت .

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 61

[5] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 23

[6] طحوران : تبعدان . فرقد : ولد البقرة الوحشيّة .

[7] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 30

نجاءٌ مُجِدٌّ ليس فيه وتيرةٌ   وتَذْبِيبُها عنها بأسْحَمَ مِذْوَدِ[1]

وفـــي عـــدم اشتمال السواد يرد ذكر الغراب الأبقع عند عنترة وهو من أخبث الغربان ، فذكره يدلّ على القوّة لاجتماع الأبيض مع الأسود فيه ، وهو يقول :

ظعن الذين فراقهم أتوقّع   وجرى ببينهم الغراب الأبقع[2]

كمـــا قلنا في الإنسان هناك ألوان طارئة على هذه الحيوانات ، ومن ذلك لون العرق الذي ينسكب عليها ، فقد وصفه الشعراء بالأسود وشبهوه بالقار ، والقطران ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى : [3]

وتنضح ذفراها بجونٍ كأنّه   عصيم كحيلٍ في المراجل مُعْقَدِ[4]

وقـــد يكـــون الســـبب في ذلك عائداً لانعكاس لون السواد على هذا العرق ، أو كما يرى الـــنمري فـــي كتاب الملمع ، إذ يقول : إنّ أول عرق الخيل والإبل أسود [5]. وهو هنا لا يتحدّد بلون الخيل بل يشملها جميعاً .

ومما يطرأ على الخيل من السواد أيضا تغيّر موضع الركل الذي يسودّ بعد طول الركوب على الخيل ، وقد ذكره زهير بقوله :[6]

وكلُّ طُوالةٍ وأقــبَّ نَهْدٍ   مَراكِلُه من التَّعداء جونُ[7]

وهي صفة تدل على قوة الفرس وشجاعته ، فهو يحتمل الركل بكثرة ، كما أنّ العرق لا يسح إلاّ عند نشاط الخيل وتعبها ، فالسواد الطارئ دليل شجاعة وقوة في الحيوان أيضا .

وممّـــا يلحـــق بالحـــيوان وصف المكان الذي يأوي إليه كما في وصف جرن النحل عند الأعشى وقد ذكر سواده :

في يافعٍ جونٍ ، يُلَـــفَّعُ بالـــ   ـــصّخْرى إذا ما تجتنـــيه أهَلّ[8]

<u>3 ــ الأسود في الطبيعة :</u>

---

[1] النجاء : سرعة السير . وتيرة : انقطاع السير . تذبيب : دفاع .

[2] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 84

[3] زهير بن أبي سلمى. **ديوانه** . ص 28 وانظر له في هذا المعنى ص 96 ، و لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 251 ، 188 ، وعنترة العبسي : **ديوانه** .ص 121 ، 122

[4] ذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن . عصيم : أثر القطران . كحيل : قطران .

[5] النمري : **الملمع** . ص 99

[6] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 127

[7] الأقب : الضامر البطن . جون : أسود من العرق والركل . النهد : القوي الضخم .

يقترن الأسود في الطبيعة بعدد من الظواهر مثل : الليل ، والسحاب ، والشجر .ولكل منها دلالـــة خاصـــة لدى الشعراء . وأول ما يطالعنا في هذا الباب الليل وظلامه ، فقد احتلّ مساحة واســعة في الشعر الجاهليّ ، ويعتبر الليل السبب الرئيس في صبغ الأسود بمعاني الهمّ والحزن والخوف ونحوه .

فالليل مظلم يخفي الحقيقة ، ويختفي الإنسان به فيقدم على فعل ما لا يجرؤ على فعله في وضـــح النهار ، فهذا عنترة يستغلّ ظلمة الليل ليلهو مع المرأة بعيدا عن أعين الناس، وفي ذلك يقول:

لهوت بها والليل أرخى سدوله   إلى أن بدا ضوء الصباح المبلَّج[1]

ولا يقتصــــر الأمـــر علـــى العشق والغرام بل كان الفرسان أيضا ينتهزون فرصة الليل وظلامه للانقضاض على خصومهم ، فلا مجنّ أفضل من الليل ، وفي ذلك يقول عنترة :

ولقد هممت بغارة في ليلة   سوداءَ حالكةٍ كلون الأدلَمِ[2]

والشعر في هذا المعنى كثير إذ كان العرب ينتخبون الليل لبدء الهجوم على أعدائهم مما يمنحهم فرصة لمباغتة القوم وهم نيام ، ويخفي خبر سيرهم ، فلا يستعدّ عدوّهم لملاقاتهم و ردّهم .

ومـــن هـــنا أصــبح الـــيل والسير فيه قوّة وشجاعة ، فالمنطلق فيه لا بدّ منتصر ، وهو بخـــروجه هـــذا يكون قد تحدّى ما قد يعترض الإنسان في الليل من قوىً خارجيّة مثل الغول، والهوام ونحوها ، ونجد هذا المعنى عند العديد من الشعراء ، منهم الأعشى بقوله :[3]

وليل يقول القوم في ظُلُماتــه   سواءٌ بصيراتُ العيون وعورُها

كأنّ لنا منه بيوتا حَصينَــةً   مُسوحٌ أعاليها وساجٌ كُسورُها[4]

وهـــو يقول هنا إنّ الليل كان شديد السواد ، فقد أحاط بهم كالبيت الذي يقيم فيه الإنسان ، ومع ذلك فقد كانوا آمنين حصينين ، وهذه من أعلى مراتب القوّة ، فهم لا ينتصرون على عدوّهم بل إنهم لا يجرؤ أحد على مداهمتهم في الليل ، ويأمنون الأخطار التي تجيء مع الظلام فهم شجعان

---

(8) الأعشى : ديوانه . ص 173

(1) عنترة العبسي : ديوانه . ص 29

(2) السابق ، ص 126

(3) الأعشى : ديوانه . ص 68

(4) المسوح : الثياب المصنوعة من الشَّعر الخشن . الساج : الأسود .

وبسلاء لذلك الحال . ويقول في موضع آخر في ذكر الخرق وهو الطريق غير الممهّد : [1]

وخَرْقٍ مَخوفٍ قد قطعتُ بجَسْرَةٍ إذا الجِبْسُ أعْيا أنْ يرومَ المَسالِكا[2]

قطعت إذا ما الليل كانت نجومُهُ تراهنّ في جو السماء سوامكا

فقد قطع هذا الخرق غير الممهّد في الليل والنجوم مرتفعة ، ممّا يدلّ على قوته واقتحامه الخطر فالأرض موحشة ، والليل مظلم ومع ذلك فقد نجا ووصل إلى هدفه .

أمّا عنترة فقد بالغ في هذا المعنى وجعل نفسه ينتصر على الليل ، الذي طالما قهر الأبطال ، فقال :

بصارمِ عزمٍ لو ضربت بحدّه دجى الليل ولى وهو بالنجم يعثُر[3]

فلا يقتصر نصر الشاعر على هزيمة أعدائه في الليل ، بل إنّ الليل يخشى منه ويفرّ أمامه .

ومن هنا جاء تشبيه الشخص القوي بالليل الذي قلّما ينجو منه أحدٌ ، لما فيه من الخطر غير المتوقع ، وفي ذلك يقول النابغة :

فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع[4]

هذا عن علاقة الليل بالخطر ، ومن جانب آ خر فإنّ الليل وقت هدوء وركون ، يأوي فيه الناس إلى بيوتهم أو كهوفهم ، ولذا فإنّ الليل يمنح الشخص فرصة ليتأمّل في الحياة ، ويتذكر المواقف التي مرّت به ، ومن هنا نجد الشخص الحائر يؤرّق في الليل ، ويجد متنفّسا يفرغ فيه همومه ، فتعاوده هذه الهموم كالحمّى ، وكل ذلك جعل من الليل مجالاً للهموم والأحزان وفي ذلك يقول امروْ القيس:[5]

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخليُّ ولم ترقُد [6]

وبات وباتت له ليلةٌ كليلةِ ذي العائر الأرمد [7]

فقد تأرّق الشاعر لهمومه بعد مقتل والده ، فطال ليله كليل المصاب بألم في عينه فلا يتحرّر من الظلام وهذا الطول نفسي نتج عن كثرة الهموم . ومن ذلك أيضا قول عنترة :

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 130

[2] الجبس : الجبان .

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 67

[4] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 81

[5] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 84

[6] الإثمد : موضع . الجليّ : الخالي من الهموم .

[7] العائر : وجع يصيب العين ، وكذا الرمد .

وأجفان تبيت مقرّحات   تسيل دما إذا جَنَّ الظلام[1]

ولم يكتف الشعراء بهذه الصور بل جعلوا الليل كذلك يحزن لفقد عزيز كريم ، فكأنّ الليل يتسربل ثوبا أسود حزنا على فقده ، ومن ذلك قول عنترة في رثاء الملك زهير بن جذيمة العبسي :

خسف البدر حين كان تماما   وخفا نوره فعاد ظلاما

ودراريُّ النجوم غارت وغابت   وضياءُ الآفاق صار قتاماً[2]

فالظلام هنا دليل همّ وحزن وحداد .

وأصبح الليل عندهم دليل الشدة والألم إلى جانب الهمّ والحزن وفي ذلك يقول الأعشى : [3]

يراقبن من جوعٍ خلال مخافةٍ   نجومَ السماء العاتمات الغوامصا[4]

فالشاعر هنا يذم قوم علقمة بن علاثة لأنهم يبيتون مليئي البطون وجاراتهم جوعى لا يكدن يرين ضوء النجوم لسوء الحال واشتداد الظلام ، فالظلام هنا دليل بؤس وفاقة .

وشبيه بهذا المعنى ما نجده في تخير الليل للرحيل الذي كثر في لوحات الظعائن في الشعر العربي ومنه قول امرئ القيس : [5]

وحدّث بأن زالت بليلٍ حُمولُهم   كنخلٍ من الأعراض غيرِ مُنَبّقِ[6]

فالقوم قد تخيروا الليل لرحيلهم علما أنّ الليل كان معدا للحرب ، ولا يجرؤ على السير فيه سوى أشجع الشجعان ، فلماذا يتم اختيار الليل لرحلة الظعن خلاف الواقع ؟

هذا الأمر لا يمكن تفسيره إلاّ عند رسم لوحة كاملة للظعن لمعرفة أبعاد هذه اللوحة ، وما يمكن ذكره هنا هو أنّ هذه الرحلة إذن لم تكن رحلة واقعية وتجربة مرّت بالشاعر ، بل هي أمر نفسيّ سنقف على تفاصيله في الفصل الرابع . وسنكتفي بالقول هنا أنّ الليل دليل همّ وألم جاء من باب التشاؤم والحزن كما في المعنيين السابقين .

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 134

[2] السابق ، ص 137

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص 100

[4] الغوامص : الضعيفة النور تشبيهاً بالعين المصابة .

[5] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 133

[6] الأعراض : أعالي الشجر . المنبق : الشجر الذي فسد وأصبح كالنبق في صغره .

ولما كان الليل مصدر هذا الحزن وهذه الهموم كان انجلاؤه دليل فرح وسرور ، وفي ذلك يقول الحارث بن حلزة :

أرِقــاً بتُّ ما ألــذُّ رُقــاداً   تعتــريني مُبَــرِّحاتُ الأمور

واردات وصادرات إلى أن   حسَر المدّلهمُ ضوءِ البشير[1]

فقد أمضى الشاعر ليله أرِقاً لا يلذ له النوم حتى بان الصباح وجاء البشير معه ، واختفت الهموم بانقضاء هذا الليل الحالك .

إذا كــان اللــيل يرتــبط بالظلام ، والخوف ، والخطر ، والشدّة ، والقوة ، وكان مرتبطا بالســكون ومــن ثمّ الأحزان والهموم والحيرة والألم ، فإنه كذلك يرتبط بالشمول وكثرة العدد . فعــندما يلــفّ الليل المنطقة يأتي على كل شيء ، فيدخل المنازل ، ويغطي الساحات ، ويعبر الســهول والجــبال ، فلا يقف الرّائي على حدّه ، ولا يجد مهربا منه وبعدا عنه ولذا فقد أصبح الليل دليلاً على الكثرة والكثافة .

وممن ذكر الليل للدّلالة على كثرة العدد الأعشى وذلك بقوله ذاكراً موقعة ذي قار :[2]

لمّا أتونا كأنّ الليل يقدُمُهُم   مُطَبِّق الأرض يغشاها لهم سَدَفُ[3]

فقد شبّه كثرة خصومهم بالليل الذي يغطي كلّ شيء ، ويشمل ظلامه كلّ مكان . وممن ذكر هذه الدلالة لليل عنترة بقوله :

فسائلي فرسي هل كنت أُطلقه   إلاّ على موكبٍ كالليل محتبك[4]

فقد شبه كثرة الجيش والتفافه هنا بالليل أيضاً .

هذا عن الليل ومعانيه في الشعر الجاهلي ، أمّا السحاب الأسود فيأخذ دلالات مغايرة فهو يعني الخير والخصب ووفرة المياه . وقد ورد سواد السحاب في أربعة عشر بيتاً ، وهناك بضع أبــيات أخرى وصفت السحابة فيها بالبلقاء وهي الفرس التي خالط سوادها بياض . وممن ذكر السحاب الأسود عبيد بن الأبرص وامرؤ القيس في المساجلة التي دارت بينهما ، وفيها قال عبيد في بعض أبياته :

ما السّود والبيض والأسماء واحدةٌ   لا يستطيع لهنّ الناس تمساسا

فأجابه امرؤ القيس :

---

[1] الحارث بن حلزة : **ديوانه** . ص 80

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 112

[3] سدف : جمع سدفة وهي ظلمة الليل .

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 95

تلك السحابُ إذا الرحمن أرسلها   روّى بها من مُحول الأرض ايباسا[1]

فهـو يذكـر هنا أنّ السحاب الأسود والأبيض كلاهما يروي الأرض العطشى ، وهما هبة من الرحمن لهذه الأرض .

حـرص الشـعراء على ذكر السواد في السحاب والتأكيد عليه لأنه علامة خير وخصب فعمـدوا إلى تشبيهه بالليل ، والثوب الأسود ، والعبد ، وهي أمور بيّنة السواد . ومن ذلك قول عبيد ابن الأبرص :[2]

لواقِـحَ دُلّـحٍ بالماء سـحم   تَثُجُّ الماء من خَـلَل الخصـاص [3]

سـحاب ذات أسـحم مُكْفَهِرٍ   تُوَحِّي الأرضَ قطراً ذا افتحاص [4]

تألّـف فاسـتوى طبقا دكاكا   محيـلاً دون مَتْـعَبِـه نـواص [5]

كليلٍ مظـلم الحَجَـرات داجٍ   بهيـمٍ أو كبحـرٍ ذي بـواص [6]

حرص عبيد هنا على إبراز سواد السحاب ، فجعلها سوداء متلبّدة ليزيد في كثافتها ومن سوادها ثـم جعلهـا طبقات فوق بعض مما يزيد في سوادها ، وبعد ذلك شبهها بالليل المظلم ليزيد في سـواده ، أو بالبحر العميق ، كل ذلك ليبالغ في ظلام سحبه وإبراز هذا السواد لما يترتب عليه من تدفّق الماء وغزارته .

ومن عناصر الطبيعة التي ذكرها الشعراء ووصفوها بالأسود الشجر ، والأسود المستخدم هنا يأتي بدرجتين : الأسود الفاحم ، والأسود المائل إلى الخضرة . أمّا الأول فهو لون مشؤوم إذ هو لون الشجر المحروق ، الذي أتت النيران على خضرته البهيّة وأحالته إلى فحمٍ أسود ، وفي ذلك يقول الأعشى في وصف النخيل وقد احترق :

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص119 ، و عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 65 ـ 66

[2] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 72

[3] دُلّح : متقلة بالماء . تثجُّ : تصبّ . الخصاص : الغيوم .

[4] المكفهر: المتلبّد المسودّ . توحيّ : تعجّل . القطر : المطر .

[5] الطبق : الغطاء . الدكاك : المستوية . محيل : أتى عليه حول . المتعب : مجرى الماء . النواصي : الأعالي .

[6] الحجرات : النواحي . البواص : البعيد .

كأنّ نخيل الشطّ غِبّ حريقه　　　مآتم سودٌ سلّبت عند مأتم[1]

فقد شبه الشاعر النخيل بعد الحريق بجمع من النساء مرتديات ثيابَ الحداد السوداء . فكما يوحي منظر النساء في ثياب الحداد الحزن والشؤم ، فإنّ منظر النخيل المحترق يوحي بهذه المعاني .

والشـــجر الأسود لا فائدة منه ، ولا يفي بحاجة الإنسان أو الماشية من الغذاء ، وفي ذلك يقول طرفة بن العبد في الهجاء :

خير ما ترعون من شجر　　　يابس الطحماء أو سَحَمُه[2]

أما اللون الآخر الذي ذكره الشعراء فهو اللون الأخضر المشرب سوادا لشدّة اخضراره ، والسواد هنا يدلّ على كثافة اللون الأخضر ، ومما قيل فيه قول عبيد بن الأبرص : [3]

كأنّ أظعانهم نخل موسّقة　　　سود ذوائبها بالحمل مكمومة[4]

وعبيد هنا يشبّه أظعان النساء بالنخل الأخضر لريّه حتى مالت خضرته إلى السواد ، وهو نخل مثمر كثيف الحمل ، فالأخضر الداكن هنا لون يوحي بالخصب والخير .

ومـــن عناصر الطبيعة أيضا الجبل والهضبة ونحوهما ، وعندما يذكر السواد هنا فإنّه يدلّ على القوّة والمنعة غالبا ، ومن ذلك قول الحارث بن حلّزة : [5]

وكأنّ المنون تردي بنا أر　　　عن جونا ينجاب عنه العماء[6]

ويقصـــد الشـــاعر بهذا التشبيه أنّ المنون لن تمسّ بقوّتهم ولن تضعفهم ، فكأنّها حين أصابتهم أصابت هذا الجبل الأسود [7]، فكان السواد في الجبل دليلا على قوّته ، وشدّة احتماله . وفي هذا المعنى يقول النابغة :

أو أضعُ البيتَ في سَوداء مُظْلِمَة　　　تُقَيِّدُ العَيْرَ لا يَسْرِي بها الساري[8]

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 184 ، وانظر له ، ص 202

[2] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 72

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 110

[4] موسّقة : متقلة بحملها . المكمومة : المغطاة .

[5] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 30

[6] العماء : الغيم الأبيض . أرعن : جبل .

[7] الزوزني ، القاضي أبو عبد الله الحسين : **شرح المعلّقات السبع** . بيروت . مكتبة المعارف ، 1988 ، ص 197

[8] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 56

فهــو هــنا يقول بأنّه سيلجأ إلى مكان آمن حصين ، وهو هذه الحرّة [1]السوداء ، ذات الطبيعة الصعبة التي لا تحسن الخيل السير فيها . فالسواد هنا دليل قوّة ومنعة .

وممن ذكر الجبال السوداء أيضا زهير بن أبي سلمى بقوله :[2]

فلما بدت ساقُ الجواءِ وصارةٌ وفَرْشٌ وحَمَّاوَاتُهُنّ القوابلُ[3]

وهــو هــنا يذكر الجبال للدلالة على موضعها إذ أنّها أوّل ما يبرز من المكان لارتفاعها ، وقد أثــارت في نفسه البهجة لا لسوادها وإنّما لأنّها دلّت على وصوله إلى تلك المواضع التي سعى إليها .

وهكــذا فــإنّ الأســود في وصف الجبل كان دليل قوّة ومنعة ، وهو بذلك من باب الخير والنصر ، والرضا بهذا اللون والرغبة فيه .

ومــن مظاهر الطبيعة التي يلعب الأسود دورا رئيسا فيها لوحة الأطلال ، وهي من أكثر اللوحات تداولا في الشعر الجاهليّ ، وفيها يظهر الأسود من خلال البقايا التي ترتسم في المكان بعد رحيل أهله مثل الدمن ، والأثافي ، وروث الحيوانات ، فهذا عنترة يذكر الأثافي بقوله :

ولقد حبست بها طويلا ناقتي أشكو إلى سُفَعٍ رواكد جثّم[4]

فلــم يجد الشاعر سوى موقد النار ليشكو له رحيل أهل الدار، إذ أصبح المكان قفرا بعد رحيلهم عنه . أما امرؤ القيس فقد لفت انتباهه روث الآرام منتشرا في ساحات الديار فشبهه بحبّ الفلفل لسواده واستدارته ، وفي ذلك يقول :

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنّه حبّ فلفل[5]

فهــو منتشر في كلّ مكان ، ويطغى على المنظر العام للديار . أما طرفة فلم يرَ في أطلاله إلا الرماد الذي يغطّي السواد الآخذ في التلاشي ، فقال :

أشجاك الربع أم قدمه أم رماد دارسٌ حُمَمُه [6]

ويُلحق بالأسود في لوحة الأطلال ذكر الغربان ، وقد تحدّثنا عنها مع الحيوان ، بما تمثّله من الشؤم والحزن . والملاحظ على الأطلال أنّ المكان يكسى دائما بهذا السواد ، فكأنّه ثوب من

---

[1] الحرّة : الأرض البركانيّة لما فيها من حجارة سوداء . النمري : **الملمع** . ص81

[2] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 96

[3] ساق الجواء ، وصارة ، وفرش : مواضع . حماواتهن : الجبال السود . القوابل : المتقابلة .

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 117

[5] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 30

[6] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 71

الأســـلاب التي تلبسها النساء في المآتم ، فهذا السواد دليل حزن وكآبة يعكسها الشاعر من نفسه على المكان ، وليس دليل حياة وسعي نحو الخلود ، كما يرى الباحث فايز القرعان ، الذي يرى أنّ هـــذه الرســـوم السوداء تدلّ على تمسّك الشاعر بالحياة ، ومقاومته للموت الذي يطغى على المكـــان [1].أما الحياة فيجلبها الشاعر بعودة الحيوان إلى هذا الطلل ، وهذا ما سنعرض له عند الحديث عن الأبيض في الحيوان .

4 ـ الأسود في حياة الناس اليوميّة :

هناك مواطن ذكرها الشعراء للأسود تدلّ على أمور يستخدمها الإنسان في حياته اليوميّة ، ومنها القدور ، والأواني ، والسلاح وغيرها .ومن ذكر القدور قول النابغة : [2]

له بفناء البيت سَوْداءُ فَخْمَةٌ تُلَقَّمُ أوصالَ الجزورِ العَراعِرِ [3]

واســـتخدام الأســـود في هذا البيت ونحوه للقدور يدلّ على كرم الممدوح ؛ فلا تسودّ القدور إلا لكثرة الطبخ بها ، ويؤكّد النابغة هذا المعنى في البيت التالي إذ يقول :

بَقِيَّةُ قِدْرٍ من قدور تُوُرِّثت لآل الجُلاح ، كابرا بعد كابر [4]

فهي إذن سوداء لطول عهدها مع كثرة الاستخدام . وقد تلوّن أواني الطعام كذلك بالأسود ، وذلك للدلالـــة على صلابتها وجودتها لأنّها سوف تستخدم كثيرا ، وتنتقل من يد إلى يد أخرى فلا بدّ إذن أن تكون قويّة لتحتمل ذلك ، وهذا المعنى يعرضه النابغة في قصيدته السابقة فيقول :

ترى الراغبين العاكفين ببابه على كلّ شِيزى أُتْرِعت بالعُراعر [5]

والشيزى هي القدر المصنوعة من الخشب الأسود الصلب .

ومـــن الأدوات التـــي لوّنها الشعراء بالأسود الرماح ، مقابل السيف الذي أطلق عليه اسم الأبيض . ولعلّ السبب في ذلك راجع إلى لون الحديد الذي يستخدم لصناعتها ، يضاف إلى ذلك رقّـــة السيف وصقله حتّى يبدو لامعا برّاقا ، أما الرماح فهي كثيفة يدبّب رأسها فقط فلا يظهر فيها لمعان السيف ، وربّما كان التركيز على سواده حتّى سمي به من باب التأكيد على صلابته ومـــن ثمّ قوّته . وقد ذكر شعراء المعلّقات الرماح باسم السمر ، والأسمر ، والسمراء ، والسحم

---

[1] القرعان ، فايز عارف سليمان : **الوشم والوشي في الشعر الجاهليّ** . ص 96 وما بعدها

[2] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 75

[3] سوداء : قدر . فخمة : عظيمة . العَراعر : جمع العُراعر وهي السمينة .

[4] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 75

[5] السابق ، ص 75

نحـــو ثلاثيـــن مرّة منها ما يزيد على العشرين في ديوان عنترة ، والسبب في ذلك كثرة الشعر القتالي الذي يعجّ به هذا الديوان.

ومن هذه الأواني أيضا دنّ الخمرة ، فقد أكثر الشعراء من ذكره ، وركّزوا على سواده ، حتّى بدا الأسود هو اللون الوحيد الذي يستخدم له ، فلم يذكر الأبيض في وصف هذا الدنّ إلا في بيت واحد ، ومن الأبيات التي ذكرته قول لبيد بن ربيعة :

أغلي السباء بكلّ أدكن عاتقٍ   أو جونة قُدِحت وفُضّ ختامها[1]

فهو يصوّر الإناء الذي يحتوي الخمرة بالأدكن ، ثمّ سمّى خابية الخمرة بالجونة ، وكلاهما يعني الأسود. ويقول الأعشى في وصف الخمرة :

إذا بزلت من دنّها فاح ريحها   وقد أخرجت من أسود الجون أدهما[2]

فقد استخدم هنا ثلاث كلمات بمعنى الأسود ليؤكّد هذه الصفة .

وقد يكون السبب في ذلك هو استخدام هذا اللون على وجه الحقيقة ليحجب أشعّة الشمس عنها ، فلا يتغيّر مذاقها ، ولكن التركيز على اللون يدلّ أنّ له دلالة أخرى ، فإذا شبّهت الخمرة بالدماء ، وعرفنا علاقة الدماء بالولادة بحيث سميت المرأة نفساء بسببها ، فقد يكون السبب في اســـتخدام اللون الأسود لإناء الخمرة هو التشبيه بهذه الولادة ، التي تخرج الحياة من الظلام مع تدفّق الدماء عند خروج الوليد ، وكذا الخمرة تتدفّق خارج الإناء من الظلام لترى النور ، فتبعث البهجة في صدر شاربها لرؤيتها قبل مذاقها ، بل إنّها تمنحه القوّة والحياة وفق الأساطير القديمة التـــي جعلـــت من الدماء مشروب الآلهة المفضّل ، الذي يحفظ حياتهم ، ثمّ حلّت الخمرة محلّه للونهـــا ، وعلـــى هـــذا يكون استخدام الأسود في إناء الخمرة من باب التشبيه بعمليّة الولادة ، فكلاهما رمز لاستمراريّة الحياة ، وكلاهما يستقبل بالبهجة والسرور .

5 ـ الأسود في باب الكنايات :

ذكـــرنا في حديثنا عن الليل أنّه استخدم للتعبير عن الهموم والحزن ، أو كثرة العدد ، أو الشدّة والقوّة ، وهي كنايات استخدم الليل وظلامه للتعبير عنها . وقد استخدم الأسود لونا مجرّدا في عدد من الكنايات ، منها قول الأعشى :

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 228

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 186

فما أُجشمت منِ إتيان قومٍ هم الأعداء والأكباد سود[1]

فاستخدم الأسود هنا للدلالة على الحقد والضغينة . ومنها قول طرفة :

ألا إنّني شربتُ أسودَ حالكا ألا بَجَلي من الشراب ألا بَجَلْ[2]

فهو هنا يقصد بالكأس الأسود كأس الموت . أما امرؤ القيس فقد استخدم السواد للدلالة على الذلّ والعار ، وفي ذلك يقول :

وإن أُمسِ مكروبا فيا رُبَّ بُهمة كَشفتُ إذا ما اسودّ وجه الجبانِ[3]

فهــو يفخر بنفسه وعلاجه للأمور المُشكِلة المحيِّرة في حين يعجز الجبان عن مواجهتها .ويقول أيضا معبّرا بالسواد عن البغض ، وعدم الرغبة في الشيء :

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيّئ الظنّ والبال[4]

مِمـــا تقـــدّم يتضـــح لنا أنّ دلالات الأسود في الشعر الجاهليّ لم تكن موحّدة ، بل تخضع للســـياق والبيـــئة التي ترد فيها ، فهو لون محبّب في العيون والشعر ...، مكروه في البشرة ، والظـــلام . فـــلا يجـــوز لنا أن نحكم على الأسود لمجرّد لونه بأنّه دليل كذا ، كما ذهب بعض الباحثيـــن ، فيرى الدكتور محمد عبد المطّلب أنّ امرأ القيس استخدم الأسود بعيدا عن المتوارث وهو الحزن [5]. وهذا رأي غير دقيق لأنّ امرأ القيس مدح الأسود في مواطن المدح ، وذمّه في مواطن الذمّ ، تبعا للسياق الذي توارث عليه الناس جميعا ، ولم يخالفهم في ذلك .

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 63

[2] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 62

[3] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 170

[4] السابق ، ص 142

[5] د. عبد المطّلب ، محمد: **قراءة ثانية في شعر امرئ القيس** . ص 35 — 38

ثانيا : مواطن اللون الأبيض

الأبـيض من الألوان المحبّبة للإنسان ، وقد كثر استخدامه بشكل مفرط ، مما جعله أكثر الألـوان تـداولا في الشعر الجاهليّ . وفيما يلي عرض لمواطن هذا اللون ، ودلالاته في تلك المواطن .

1 : الأبيض في الإنسان

ورد الأبيض في الإنسان لوصف الوجه ، والأسنان ، والشَّعر ، وبياض العين ، وذلك في الـرجل والمـرأة على حدّ سواء . فالأسنان دائما بيضاء واضحة اللون ، وقد كثر هذا الوصف للمـرأة لـيدلّ علـى نظافة المرأة ، وطيب رائحة فمها ليطيب للشاعر اللهو معها دون تكدير. وقـد ذكـر بياض الأسنان للمرأة لدى شعراء المعلّقات في عشرين بيتا ، وذكر للرجل في بيت واحد . وشبّه البياض بالبرد ، واللؤلؤ ، والأقحوان ، وشوك السيال . ومما قيل فيه :

بادنٍ تجلو إذا ما ابتسمت   عن شَتِيتٍ كأقاحِ الرمل غُرّ[1]

فطرفة هنا يشبّه بياض أسنانها بالأقحوان الذي ينبت على الرمل ، ويؤكّد صفة البياض فيضيف كلمة غرّ ، ومنه قول الأعشى : [2]

وتَفْتَرُ عن مُشْرِقٍ باردٍ   كَشَوْكِ السَّيال أُسِفَّ النَّؤورا [3]

أمّـا البـياض الذي ذكر في أسنان الرجل فورد عند عنترة ، وكان المراد منه بيان شدّة المعركة إذ اضطرّ عمّه لكشف أسنانه لهولها ، وفي ذلك يقول :

ولقد حفظت وَصاةَ عمّي بالضحى   إذ تُقْلِصُ الشّفَتان عن وَضَحِ الفم [4]

وهـذا يؤكّد أنّ صفة البياض هذه مستحبّة للرجل والمرأة ، ولم تذكر للرجل بكثرة لأنّه لم يكن موضوعا لوصف الجمال ، أو الغزل على نحو ما وجدنا في المرأة .

ومن البياض المستحب في الإنسان بياض البشرة ، وهو للمرأة صفة جمال وعفّة وشرف نسب ، وللرجل دليل عفّة وشرف نسب ، فكانت المرأة دائما بيضاء ، وقد ذكرت هذه الصفة في

---

[1] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 41

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 85

[3] النؤور : دخان الشحم .

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 125

بضـــع وثمانين بيتا عند شعراء المعلّقات ، وهذا يدلّ على حرص الشعراء على ذكرها والتأكيد عليها .

وقــد شــبّهت المــرأة فيها بأدم الظباء[1]، والنعاج[2]، والآرام[3]، واللبن[4]، واللجين[5]، والدمـــى المصـــنوعة من الشيد الأبيض[6]،والبيضة[7]، والمصباح[8]، وغير ذلك . على أنّ هذا البياض لم يكن خالصا بل شابه شيء من الصفرة ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس : [9]

كبكر المقاناة البياض بصفرةٍ   غذاها نمير الماء غيرُ المحلّل

لأنّ صـــفة البياض الخالص في الإنسان تعدّ من أقبح الصفات[10]، ومن هنا جاء تشبيه المرأة بالشمس[11]، والبدر[12] ، وهو باب متّسع في الشعر العربي .

ومـــن المعروف أنّ السمرة كانت غالبة على ألوان العرب في الجزيرة العربيّة ، والبياض صـــفة نادرة أو قليلة ، ويؤكّد ذلك أنّ من كان لونه أبيض عرف بهذه الصفة ، ولازمه ذكرها ، مـــثل فاطمـــة الزهـــراء ، فمن أين جاء هذا اللون على هذا النحو من الكثرة ؟ حتى لقد بدا هو الصفة الوحيدة للنساء ولم يخرج عنها إلا نادرا كما في قول عنترة :

وقد كنت تخفي حبّ سمراء حقبةً   فبح لان منها بالذي أنت بائح[13]

وقــد حيّر هذا الأمر الباحثين ، فهذا الدكتور عبد الله الطيّب يفسّر ذلك بأنّ النساء اللاتي ذكرن في الشعر العربي كنّ من بغايا العجم ، أو هو بياض الإشراق وليس بياض اللون[14].وهذا

---

[1] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 52 ، وطرفة بن العبد: **ديوانه** . ص 39

[2] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 206 ، والنابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 27

[3] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 171 ، والأعشى : **ديوانه** . ص 141

[4] الأعشى : **ديوانه** . ص 206

[5] السابق ، ص 62 ، 141

[6] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 40 ، وعمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 64

[7] الأعشى : **ديوانه** . ص 92 ، وامرؤ القيس : **ديوانه** . ص 38

[8] طرفة بن العبد: **ديوانه** . ص 60 ، والنابغة الذبياني: **ديوانه** . ص 50

[9] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 42

[10] ابن سيدة :**المخصص**. السفر الثاني . ص 108

[11] طرفة بن العبد: **ديوانه** . ص 20 ، وعنترة العبسي: **ديوانه** . ص 82

[12] عنترة العبسي: **ديوانه** . ص 38 ، 134

[13] السابق ، ص 34 ، لان : الآن

[14] د.الطيّب ،عبد الله : *اللون والجمال في الشعر القديم*.**مجلّة مجمع اللغة العربيّة**. القاهرة . ج 74 . 1993 . ص 26

محمــد حافظ ذياب يفسّر الأبيض بأنّه دليل الطهارة والجمال[1]. وقد يكون السبب في ذلك عائداً إلـى ارتباط الغزل الذي تضمّنته أكثر القصائد الجاهليّة بطقوسٍ دينيّة؛ فالشعر كما نعلم بدأ على شكل ترانيم دينيّة يؤدّيها الكهنة في المعابد [2]، وعليه فقد يكون الغزل الذي نجده في الشعر من بقايـا تلك الطقوس ، فنحن نجد النساء فيها تبدو بصورة واحدة ، وهي صورة (عشتار) ، و (أفروديت) و(إيزيس) وغيرها من الأسماء التي تمثّلت فيها آلهة الحب والجمال ، فاللون الذي تغنّى به العرب ليس الأبيض الخالص بل الأزهر الذي شاب بياضه شيء من الأحمر أو الأصفر أي لون كوكب الزهرة إلهة الحب عند العرب .

ومـع الزمـن أصبحت هذه الصفات ، وعلى رأسها البياض ، صفات مثالية للمرأة فدأب الشعراء على ذكرها وإن لم تطابق الواقع ، وهذا ما نسمعه في الأهازيج الشعبية عندما يوصف وجـه الفـتاة بالـبدر ، والشعر بالليل ، والفم بخاتم سليمان ، والشفاه بالعناب وما إلى ذلك من صـفات ، والفـتاة تبتهج بهذه الصفات ويقرّ الجميع بها وإن كانت غير متوفرّة بها جميعها أو بعضها .

وقـد مـرّ بنا في الفصل السابق عند الحديث عن قداسة الأبيض ضرورة كون الأضحية بيضـاء اللـون ، وشرف النسب الأبيض الذي ذكر في أغنية العيد الشعبية ، فالفتاة التي يجب تقديمهـا لا بـدّ أن تكـون شقراء ، والشقرة هي بياض علته حمرة ، أدنى الألوان للزهرة في الإنسـان وهـذا يـدلّ على أنّ الصفات المذكورة للمرأة هي صفات إحدى الإلهات التي عرفها العرب في العصر الجاهليّ .

ويدلّـنا علـى ذلـك كـثرة تشبيه النساء بالدمى وهي كما يذكر شارحو الدواوين تماثيل مصنوعة من الجير الأبيض ، ومن خلال تسميتها بالدمى نستدل أنّها كانت تماثيل معبودة تراق عليها الدماء ، فتشبيه المرأة بهذه الدمية المقدّسة يدل على أنّ الصفات التي ذكرت تعود بدورها إلى هذه الدمى أيضا ، فالغزل في الشعر العربي تقليد ديني وليس غزلا حقيقيّا ، وإن ورد على وجـه الحقـيقة عند بعض الشعراء فإنّ الصفات التي يستخدمها صفات دينية تأتي من اللاوعي الجمعي للإنسان .

---

[1] ذياب ، محمد حافظ : *جماليات اللون في الشعر والنثر* . ص 42

[2] د. النعيمي ، أحمد إسماعيل : **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام** . ص 12 ـ 13

أمّـا بيت عنترة الذي ذكره فبها المرأة بالسمرة فقد قبل في زوج أبيه وقد ورد هذا البيت بتغيير الشطر الأوّل عند بعض الرّواة بذكر اسم سميه فيه [1] . وهذا يدل أنّ هذا البيت من باب الغزل الحقيقي ، وليس من باب الغزل التقليديّ المتّبع في الشعر العربي .

ومن جهة ثانية يفسّر سبب استخدام الأبيض للأشراف من الرجال . فقد أكثر الشعراء من ذكـر هـذه الصفة للندامى ، والممدوحين ، والخصوم [2]، للدّلالة على شرف نسبهم . وقد ذكر الشـعراء هذه الصفة في نحو ثمانين بيتا تذكر البياض وتشبّهه بصور عديدة مثل المصباح[3]، والبدر [4]، والشجر [5] والنجم [6] .

والملاحـظ فـي هذه الأبيات أنّ الشعراء زادوا في أكثرها على لون البياض صفة المنعة والمقدرة كما في قول الحارث بن حلزة :

حول قيس مستلئمين بكبشٍ قرظي كأنّـه عبـلاء[7]

فقـد أعطى الممدوح هنا صفة الضخامة والقوة الموجودة في العبلاء وهي الصخرة أو الهضبة البيضاء . ومنها قول الأعشى :

أغرُّ أبلج يسـتسـقى الغمامُ به لو صارع الناس عن أحلامهم صرعا[8]

فـالممدوح هـنا ابيض ، يستجيب الغمام لدعائه ، له تأثير قويّ على الناس ، وهذا يدلّ أنّ هذه الصفات تقرّبه من الآلهة ، أو الملوك المؤلّهة على الأرض .

وذكـر البـياض كصفة محبّبة في العين عند استحسانهم للعين الحوراء ، وذلك من باب الجمع بين الأسود والأبيض ، وهي الصفة التي تحدّثنا عنها في اللون الأسود.

أمّا البياض في الشعر فقد كان لونا مشؤوما، كرهه العرب ونفروا منه في الرجل والمرأة علـى حدّ سواء . وقد ذكر الشيب في ستّة وثلاثين بيتا لتدلّ على كبر السنّ وتقدّم العمر ، وفي عشرة أبيات أخرى ذكر من باب المشيب قبل الأوان للمصائب والأهوال التي تمرّ بالإنسان .

---

[1] عنترة العبسي : ديوانه . ص 34 ، حاشية المحقّق

[2] عنترة العبسي : ديوانه . ص 149 ، 100

[3] النابغة الذبياني : ديوانه . ص 107

[4] لبيد بن ربيعة: ديوانه . ص 96

[5] الأعشى : ديوانه . ص 103

[6] السابق ، ص 160

[7] الحرث بن حلزة : ديوانه . ص 43 ، قيس هو قيس بن معد يكرب .

[8] الأعشى : ديوانه . ص 109

ومما قيل في الشيب قول عنترة :

ذنبي لعبلة ذنب غير مغتفر   لمّا تبلّج صبح الشيب في شعري[1]

وفيه يقول عبيد بن الأبرص :

بل إن تكن قد علتني كَبْرَةٌ   والشيب شَيْنٌ لمن يشيب[2]

وفيه يصرّح بكرهه للشيب ، وأنّ الشيب عيب يشين صاحبه لأنّه ينذره بالموت واقتراب الأجل[3]. ومما قيل في شيب المرأة قول الأعشى :

ولقد ساءها البياض فلطّت   بحجابٍ من دوننا مسدوف[4]

فقد ساء هذه المرأة أن يظهر الشيب في شعرها فسترته عنهم .

أما النوع الثاني من الشيب فهو الذي قد يصيب الأولاد قبل أن يبلغوا ، فهو شيب ناتج عن الأهوال والشدائد ، فقد يؤثّر الخوف الشديد على عصب الشعر فيحرق جذوره فيشيب الرأس أو جزء منه ، وقد استغلّ الشعراء هذه الظاهرة للتعبير عن شدّة المعارك وكثرة المصائب التي تمرّ بالشخص ، ومن ذلك قول عنترة :

تلك الليالي لو يمرّ حديثها   بوليد قومٍ شاب قبل المحمل[5]

أما الأعشى فلم يحدّد الشيب بالوليد ، وإنّما هو شيب قبل الأوان بسبب طول الحروب ، وإن لم يشمل الشيب الرأس ، وفي ذلك يقول :

أفي كلّ عام تقتلونا ونتّدي   فتلك التي تبيضّ منها القوادم[6]

وأيّـا كان نوع الشيب فهو مكروه ، وينفر الإنسان منه ، ولم يمدح في الشعر ، بل رافقه شعور بالحسرة على الشباب ، والحرمان من متع الحياة ، لا سيّما الغرائز الجنسيّة .

ويتبـع الإنسان أيضا الثياب ، فقد ذكر الأبيض في مجموعة من الثياب منها كفن الميّت ، وفيه يقول عبيد بن الأبرص :

---

(1) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 68

(2) عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 23

(3) حسن ، خيري صابر : **الفارس و الموت في الشعر الجاهلي** . ص 168

(4) الأعشى : **ديوانه** . ص 113

(5) عنترة العبسي: **ديوانه** . ص 114

(6) الأعشى: **ديوانه** . ص 179

ولا محالةَ من قبرٍ بمحنيةٍ   وكَفَنٍ كسراةِ الثور وضّاح[1]

ووصــفت ثياب السادة والممدوحين بالبياض للدلالة على شرفهم وعفّتهم وطهارتهم ، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة في المديح :

حقائبهم راح عتيق ودرمك   وريط وفاثوريّة وسلاسل[2]

فالــريط هــي الثياب البيضاء ، وهي مما يحمله هؤلاء السادة لباسا لهم . وقد يذكر البياض في الثياب للدلالة على الطهارة ، فالأبيض يكشف أدنى دنس يعلق به ، وقد ذكر زهير بن أبي سلمى ذلك بقوله:

ليأتينّك منّي مَنْطِقٌ قَذِعٌ   باقٍ كما دَنّس القُبْطيّةَ الودكُ[3]

والــودك هنا تعني الدهن ، وأثره في الثياب البيضاء يبقى واضحا ، ولا يمكن إخفاؤه ، ولذا تمّ اختيار البياض هنا ، ومنه أصبح البياض صفة للطهارة.

والبــياض فــي الثياب يدلّ على الطهارة ، والسيادة ، والشرف ، واختيرت للميّت للدلالة على طهارته وبعده عن الذنوب . فالأبيض في الإنسان لونٌ محبوب إلا في الشيب .

2 : الأبيض في الحيوان

ذكر البياض في الحيوان في أكثر من ستّين بيتا عند شعراء المعلّقات . والملاحظ على هذه الأبيات أنّ الخيل والإبل فيها لم تستخدم للقتال إلا في بيت واحد ذكره عنترة ، ولم يكن البياض فيه شاملا بل اقتصر إلى غرّة الحصان ، فقد قال :

جزى اللهُ الأغرَّ جزاءَ صِدْقٍ   إذا ما أُوقِدَتْ نار الحُروب[4]

والأغرّ هو الحصان الذي في جبهته بياض[5]،ولا يبرز هذا البياض في الجبهة إلا مع لون غير الأبــيض فالمقصــود فــي هذا البيت هو الأدهم وليس الأبيض ، وعليه فإنّ الفرس البياض لم تســتخدم للحــرب أو لــم تنتخــب لها في الشعر لأنّ الأبيض في الخيل دليل رقّة ولين[6]. وقد انســحبت هــذه الصفة على ما يبدو على جميع الحيوانات ، فلم توصف بالقوّة وكانت عرضة للصــيد ، أو أقامــت فــي الديار بعد رحيل أهلها ، وهي في الحالتين لا تميل للمواجهة ، على العكس من الحيوانات السوداء .

---

[1] عبيد بن الأبرص: **ديوانه** . ص 45

[2] لبيد بن ربيعة: **ديوانه** . ص 147

[3] زهير بن أبي سلمى: **ديوانه** . ص 67

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 162

[5] أبو عبيدة : **كتاب الخيل** . ص 236 ، وابن سيدة : **المخصص**. السفر السادس . ص 154 ــ 155

[6] النمري : **الملمع** . ص 39

ومن جهة ثانية فإنّ الحيوانات البيضاء ذكرت في باب الرحلة ؛ فالمرأة ترحل على الإبل البيضاء ، والشاعر يقطع الفيافي بناقته البيضاء ، وهو يسابق الريح بحصانه الأبيض ، وفي هذا المعنى نجد قول عبيد بن الأبرص :

والعيس مدبرة تهوي بأركبها   كأنّهنّ نعامٌ نُفَّرٌ مُعَطُ[1]

فقد شبّه سرعة الإبل البيضاء بسرعة النعام .ومنه قول النابغة في لوحة الظعن :

رأيتُ نُعْما وأصحابي على عَجَلٍ   والعيسُ للبَـيْن قد شُدَّت بأكوارِ[2]

فكل من الخيل والإبل البيضاء تدلّ على السرعة في السير .

ولا تقتصـــر دلالتها على ذلك فهي تدلّ على الحسن والجمال ، فقد مرّ بنا قول ابن لسان عندما سئل عن الإبل ، وقد قال في الإبل البيضاء " وعيسها حسناها "[3]، ولذلك فقد كانت العطيّة التي تمنح للشاعر أو السائل من الملوك والممدوحين غالبا بيضاء ، وفي ذلك يقول لبيد :

يحذي ويعطي ماله ليحمـــدا

أدما يشبّهن صوارا أبَدا [4]

هـــذا فـــي الإبل والخيل أمّا بقيّة الحيوانات التي وصفت بالبياض فهي الآرام وأدم الظباء والنعاج ، وقد جاء وصفها من باب تشبيه المرأة بها لبياضها وجمال عيونها ، فهي صفة الجمال السابقة . ومنها حمار الوحش الذي ذكر بياضه لبيان سرعته في العَدْو وفيه يقول زهير : [5]

كأنّ بريقَه بَرَقان سَحْلٍ   جلا عن متنه حُرُضٌ وماء[6]

وهـــنا شبّه الحمار بالثوب الأبيض البرّاق ، وكان قد ذكر في الأبيات المتقدّمة أن لا شيء يعدو كهذا الحمار ، ثمّ أخذ في وصفه وكان البياض أبرز هذه الصفات .

ومن الحيوانات التي وصفت بالبياض أيضا البقرة والثور الوحشيّين ، ونحن نعلم قدسيّتهما مـــن خلال الفصل السابق لا سيّما البقرة ، ولذا فقد جاء وصفهما بالأبيض من باب التقديس لهذا اللون بتأثير عبادة البقرة لدى الأمم السابقة ، ومما جاء في وصفهما قول لبيد :

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 80

[2] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 49

[3] النمري : **الملمع** . ص 73

[4] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 63 ، الصوار : القطيع من البقر الوحشي .

[5] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 16

[6] الحرض: نبات اسمه الأشنان تغسل به الأيدي . السحل : الثوب اليمانيّ الأبيض .

وتضيء في وجه الظلام منيرة   كجمانة البحريِّ سُلّ نظامها[1]

فلم يكتفِ الشاعر بوصفها بالبياض بل أحاطها بهالة من النور ليزيد في قدسيّتها .

ومـن الحـيوانات البيضاء نجد الحيوانات التي تستوطن الأطلال جميعا ما عدا الغربان ، وممن ذكرها عبيد بن الأبرص بقوله :

دارٌ بها عين النعاج رواتعا   تعدو مَسارِبَها مع الآرام[2]

وإذا كان الشاعر صوّر المكان بعيد رحيل المرأة عنه بالحزن ، وألبسه أسلاب الحداد من الـبقايا السـوداء التـي تخلّفـت فيه ، فإنّه هنا يعيد إليه الحياة فيستحضر الحيوانات ، ويلوّنها بالأبيض لون الأمل والتفاؤل ، محاولا بذلك أن يقهر الموت والفناء الذي خيّم على المكان .

ولـم يكن البياض خالصا باستمرار بل لوّن الشاعر بعض الأعضاء أو أجزاء من حيوانه بالأبيض كالتحجيل[3]، و الغرّة[4]، أو خالف البياض بشيء من السواد أحيانا [5] ، وذلك ليزيد في جمالِ لوحته لا سيّما إذا اجتمع الأبيض مع الأسود .

وهكـذا فإنّ الأبيض في الحيوانات يعني سرعة السير للخيل والإبل ، والحمْر ، والحسن للإبـل والظـباء ، والضـعف فـي الطرائد ، والتفاؤل في حيوانات الأطلال ، والقداسة للبقرة الوحشـية والثور الوحشيّ . على العكس من دهمها وسودها التي كانت تمثّل القوة في المعركة والصيد ونحوها ، والنجابة في الإبل ، والتشاؤم عند الرحيل ، وفي الغربان والعقاب .

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 220

[2] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 113

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 111

[4] السابق ، ص 76

[5] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 247 ، والنابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 72

3 : الأبيض في ظواهر الطبيعة :

ذكــر الأبــيض ومشــتقاته في الظواهر الطبيعية كثيراً في الشعر العربي ، مثل الغبار ، والبرق والسحاب ، والماء ونحوها . وإحدى هذه الظواهر الغبار الذي ذكر في نحو تسعين بيتا منها نحو أربعين بيتا في ديوان عنترة والباقي موزّع على بقية الشعراء .

وللغــبار الــذي ذكر في الشعر الجاهليّ دلالات مختلفة نبدأ بالمعنى المباشر له ، فقد كان العــرب يقيمون في أرض صحراويّة رمليّة شبه جافّة وهذا الأمر يترتب عليه إثارة الغبار عند هــبوب الــرياح أو عــند العدو والحركة فوقه ، ولذا فقد راقب الشعراء كغيرهم من الناس هذه الظاهــرة وأطالوا في ذكرها ، ولاحظوا أنّ الغبار يثور أحيانا دون أن يحدث فوقه حركة فظنّوا أنّ هــذه الغــبار لجلبة تحدثها الجان عند موت زعيم منهم ، وهذا الأمر ترك في نفس العربي شعورا بالخوف من هذه الغبار ورهبتها ، بل أصبح يتشاءم به بشكل عام .

أمّــا الشــعراء فقد وظّفوا هذه الظاهرة للتعبير عن عدّة معان خاصة بهم ، فالغبار يذكر للدلالة على سرعة العدو والنشاط ، ومن ذلك قول الحارث بن حلزة في وصف النّعامة :

فترى خلفها من الرَّجْعِ والوقْــ ـــع مَنيــناً كأنّــه إهبــاءُ[1]

واســتخدم أيضــا للدلالة على شدّة المعارك ، حيث يتطاحن الخصمان ، ويطول الاشتباك فتثور الغبار بفعل الحركة ، ومن ذلك قول عنترة :

وطبّق كلّ ناحية غبارٌ وأُشعِل بالمهنّدة الرّقاق[2]

ولهــذا المعنى أصبح الغبار يدل على القوّة والشجاعة ، فلا أحد يقتحم غبار المعركة ، الذي لا يعلو إلاّ لشدّتها ، إلاّ كلّ فارس مغوار ، وفي ذلك يقول عنترة :

حصاني كان دلاّل المنايا فخاض غبارها وشرى وباعا[3]

بــل إنّ تعفير هذا الحصان أو هذا الفارس يدلّ على شجاعته كذلك ، وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم واصفا خيله:

وردنَ دوارعاً وخرجنَ شعثاً كأمثال الرّصــائع قد بلينــا[4]

ويقول لبيد بن ربيعة في الفرسان :

---

[1] الحارث بن حلزة : **ديوانه** . ص 19

[2] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 92

[3] السابق ، ص 83

[4] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 100

يحملن فتيان الوغى من جعفرٍ   شــعثا كأنّهم أســود الغاب[1]

وإذا تتبّعــنا الصــور التـــي يبرز بها الغبار بهذا المعنى نجد أنّ الشعراء يطيب لهم هذا الوصــف ، وهم يفخرون به لأنّه دليل على شجاعتهم وثباتهم في المعارك من جهة ، و ليرهبوا به أعداءهم من جهة ثانية ؛ فالشاعر بهذه الصورة المفزعة يحاول أن يمثّل نفسه بشيطان يرهب الأعـداء بمــنظره قبل أن يرهبهم بسيفه ، فقد كان العرب يختارون لأبنائهم أبشع الأسماء لهذا الغرض ، ونجد عنترة يقول في ذلك :

إنّي لأعجب كيف ينظر صورتي   يوم القتــال مبارز ويعيــش[2]

فهــدف عنترة إذن إخافة الفرسان قبل اللقاء، ولذا فقد اكتحل بالغبار وعفّر رأسه ووجهه به إلى جانب سواده ، فبدا كملك الموت الذي يخطف أرواح البشر .

وهــناك مــن يعفَــر بعد المعركة لا قبلها ، وهذا الأمر يدلّ على الذلّ والهزيمة إذ يردى الفارس عن حصانه فيعلوه الغبار ، وقد ورد هذا المعنى كثيرا في الشعر ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم :

فكم عفّرن من وجهٍ كريم   غداة لقيتهم والنقعُ كابي[3]

ولا يقتصــر الذلّ على القتلى أو جرحى المعارك بل يتعدّاه إلى الأسير وهذا ما نجده عند امرئ القيس في قوله :

وقد نزلت إلى ركبٍ معقّلة   شعثِ الرؤوس كأنّ فوقهم غابة[4]

فهؤلاء الأسرى قد علاهم الغبار لطول أسرهم ، ولم يتمكّن أحدٌ من إطلاق سراحهم سواه .

ويرتبط الغبار أيضا بالتراب ، وعليه فقد سمّيت الأرض عند العرب بالغبراء نسبة للتراب الــذي يكــثر في البيئة الصحراويّة كأرض الجزيرة العربيّة ، مع ما يرافق ذلك من قلّة النبات وانكشاف سطح الأرض . وفي ذلك يقول الحارث بن حلّزة :

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 39

[2] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 77

[3] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 21 ، وانظر عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 100

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 80

أَسَدٌ في اللِّقاءِ وَرْدٌ هَموسٌ   ورَبيع إنْ شَمّرتْ غَبْراء[1]

فهـذا الممدوح شجاع في الحرب كالأسد الكاسر ، كريم عند الجدب ، وفي رواية أخرى :" إن شنّعت غبراء " [2]، وهي أظهر في الدلالة على كره العرب لهذا اللون ، فهو دليل قحط و محل . ومـن هذا المعنى جاء الغبار في وصف الفقراء ، وفي ذلك يقول الأعشى واصفا امرأة أعالها وأطفالها بعد سوء حال :

وأرملة تسعى بشعثٍ كأنّها   وإيّاهم ربداءَ حثّت رِئالَها[3]

وقد شبّهها لكثرة ما علاها وعلاهم من الغبار بالنعامة الربداء ،وهي رماديّة اللون .

ومن ظواهر الطبيعة التي أكثر الشعراء من ذكرها البرق ، فقد ورد عند شعراء المعلّقات في ستّة وعشرين بيتا ، ومن خلال هذه الأبيات تبيّن أنّها جاءت من باب التفاؤل والأمل ، فهذا البرق يبدّد الظلام الحالك الذي يصنعه الليل ، يقول عبيد بن الأبرص :

يا من لبرقٍ أبيت الليل أرقبه   في مكفهرّ وفي سوداء مركومة[4]

وهو يبشّر بالماء المنهمر الذي يروي الأرض العطشى ، يقول الأعشى :

برقا يضيء على أجزاع مَسْقَطِهِ   وبالخبيّة منه عارض هطل[5]

أو هو رسول يحمل التحيّة إلى ديار الحبيبة ، ويذكّر بأيّامها ، يقول عنترة :

ويا برقُ بلّغها الغداة تحيّتي   وحيِّ دياري في الحمى ومضاجعي[6]

ويقول أيضا في ذكر البرق :

طربت وهاجني البرقُ اليماني   وذكّرني المنازل والمغاني[7]

فالذكـرى التـي أثارهـا البرق ذكرى سعيدة ، دعته إلى الطرب والنشوة ، على العكس من الذكرى التي يثيرها الليل .

ومـن مظاهر الطبيعة التي ذكرها الشعراء أيضا السراب ، وقد استخدمه الشعراء للدلالة علـى شدّة الحرّ وما يرافقه من الضيق ، وكيف أنّ الشاعر يتغلّب على هذا السراب ويتمكّن من

---

[1] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 44 ، وانظر له أيضا . ص 53

[2] التبريزي ، الإمام الخطيب أبو زكريّا بن يحيى بن علي (502هـ) : **شرح القصائد العشر** . تحقيق : عبد السلام الحوفي . ط1 . بيروت : دار الكتب العلميّة. 1985 . ص 324

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص 139 ، 143

[4] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 111

[5] الأعشى : **ديوانه** . ص 146

[6] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 79

[7] السابق ، ص 148

الوصول إلى هدفه ، فهو من المعوّقات التي تعترض الإنسان ومع ذلك ينتصر عليه ، ليثبت لنا أنّ أحلامـــه ســـوف تتحقّق ، ولن تضيع هباء كهذا السراب الذي يتمكّن من قهره في كلّ مرّة ، ومما قيل فيه : [1]

وبيداءَ تِيهٍ يَلعب الآلُ فوقها   إذا ما جرى كالرازقيّ المعضّد[2]

ويكمل الشاعر قصيدته بأنّه تمكّن من قطع الصحراء بناقته .

ومن مظاهر الطبيعة أيضا الضوء والنجوم ، وقد جاءت في معرض التشبيه سواء لبياض المـــرأة أو بياض الأشراف ، وقد تذكر لضيائها في الظلام ، فهي خيط النور الذي يزرع الأمل في نفس الشاعر في هذا الظلام الدامس، وفي ذلك يقول عنترة العبسي :

والجوُّ أقتمُ والنجوم مضيئة   والأفق مغبرُّ العنان الأربد[3]

فقــد ذكر هذا البيت في لوحة وصف فيها المعركة ، فجاء استخدام النجوم هنا من باب التفاؤل بنورها وإشراقها . وأمّا ما يتعلّق بوصف الإنسان فهذا يدلّ على قداسة المرأة والممدوح للعلاقة القائمة بين الآلهة الوثنيّة وبعض الكواكب ، كما رأينا في قصّة الزهرة مثلا .

ومن الظواهر الطبيعيّة التي يبرز فيها الأبيض السحاب ، وقد تفاعل الشعراء به لأنّه عادة ما يكون ماطرا ، وفيه يقول عنترة :

جادت عليها كلّ بكر حرّة   فتركت كلّ حديقة كالدرهمِ[4]

ومــنها الفقع ، وهو الكمأة البيضاء ، وقد ذكر كثيرا في باب الهجاء ، لتشبيه المهجوّ فيه لضعة شأنه فهو أردأ الكمأة ، والكمأة تنمو بعيد العواصف الرعديّة ، وما تلبث أن تجفّ ، وفيه يقول النابغة :

حدّثوني بني الشقيقة ما   يمنع فقعا بقرقرٍ أن يزولا[5]

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 47

[2] الرازقي : ثوب أبيض . المعضّد : المخطّط .

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 57 ، وانظر امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 119 ، 141

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 119

[5] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 99 ، بني الشقيقة : قوم النعمان بن المنذر نسبة إلى شقائق النعمان ، القرقر : الأرض الليّنة المطمئنّة .

وذكر المرو[1]، والطريق الأبيض[2]، وكلاهما مأخوذ من البيئة ويعبّر عن صعوبة الطريق التي يسلكها الشاعر . أمّا الماء فقد وصف بالبياض للتعبير عن صفائه[3]. وهناك بيت وحيد ذكر الصقيع وشبّهه بالقطن[4]، وذلك من باب التعبير عن شدّة البرد .

ولوّن الجبل بالأبيض في بعض المواطن ، كما في قول النابغة : [5]

بجمعٍ كلون الأعبلِ الجونِ لونُه   ترى في نواحيه زهيرا وحِذْيَمَا [6]

والأعبل هو الجبل ذو الحجارة البيضاء ، وقد شبّه الجيش به ، والهدف من ذلك هو التعبير عن شـــرف هـــؤلاء الفرســـان ، وعراقة أصولهم ، يدلّنا على ذلك من في طرفي الجيش وهم من الأشراف .

4 : الأبيض في حياة الناس اليوميّة

اســـتخدم الأبيض في العديد من الأدوات التي يستخدمها الناس في حياتهم اليوميّة ، وعلى رأســـها السيف الذي سمّي بالأبيض ، وذكر في خمسة وثلاثين بيتا ، منها اثنان وعشرون عند عنترة .

وقد وصف السيف بالبياض لرقّة نصله ولمعانه عند انعكاس الضوء عليه .ويلحق بالسيف الـــدروع والخوذ التي يرتديها المحارب وذلك للمعانها عند انعكاس الضوء ، وقد وصفت الكتيبة بالشهباء لما على الجنود من الحديد ، وفيها يقول عنترة :

وكتيبة لبّستها بكتيبة   شهباءَ باسلةٍ يُخاف رداها[6]

ومـــن البياض الذي استخدموه في حياتهم وذكره الشعراء الورق الأبيض ، وقد شبّهت به الأطلال ، إذ الورقة البيضاء تظهر الكتابة والطلل يظهر بقايا الرسوم بوضوح ، وفي ذلك يقول الحارث بن حلّزة :

لمن الديار عفون بالحبس   آياتها كمهارق الفرس[7]

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 123

[2] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 58 ، 63

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 73 ، ولبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 139

[4] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 55

[5] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 109 ، وانظر لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 193

[6] الجون : من الأضداد ، وهي تعني الأسود والأبيض ، وهنا جاءت بمعنى الأبيض.

[6] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 151

[7] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 81 ، الحبس : موضع .

5 ـ الأبيض في باب الكنايات :

استخدم الأبيض في الكنايات للدلالة على الطهارة ، والوضوح ، والشرف ، والصدق ، والجمال ، وأحيانا للدلالة على الذلّ أو للتعبير عن فقدان البصر . وقد مرّت بنا دلالات الغبار الذي قد يعلو الإنسان وهو من باب الكناية ، ومن باب الكناية كذلك وصف الشخص بالبياض للدلالة على شرف نسبه ، وقد مرّ بنا ذكر ذلك أيضا .

وممن أكثر من الكنايات باستخدام هذا اللون عنترة ، وقد وصف الأعمال الحميدة ، والأخلاق الفاضلة بالبياض ، وفي ذلك يقول :

تعيّرني العدا بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السوادا[1]

ووصف العرب أيامهم التي يفخرون بها بهذا اللون للدلالة على شرفها والنصر الذي تحقّق فيها ، يقول عمرو بن كلثوم :

وأيّامٌ لنا غرّ طوال عصينا الملك فيها أن ندينا[2]

وقد فسّر التبريزيّ الغرّ هنا بالبيض[3]، ويقول عنترة في ذلك :

وقضت علينا بالمنون فعوّضت بالكره من بيض الليالي سوادها[4]

فالأيّام الهانئة كانت لياليها بيضاء كناية عن السعادة والهناء .

والبياض أيضا كان كناية عن الصدق والحقّ ، وفي ذلك يقول النابغة :

أتاك بقولٍ هلهل النسج كاذبٍ ولم يأتِ بالحقِ الذي هو ناصع[5]

فهذا الواشي كان كاذبا ولم يأتِ بالحقّ الناصع الأبيض بل كان كلامه أسودَ لإخفائه الحقيقة .

ومن هذه المعاني السلبيّة للأبيض بياض العين بأكملها ، وهذا يدلّ على ذهاب البصر ، وفي ذلك يقول الحارث بن حلّزة :

قبلَ ما اليومِ بيَّضَتْ بِعيُونِ النـ ـاسِ فيها تَعَيُّظٌ وإباء[6]

---

(1) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 46

(2) عمر بن كلثوم : **ديوانه** . ص 68

(3) التبريزيّ : **شرح القصائد العشر** . ص 262

(4) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 49

(5) النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 81

(6) الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 29

فبيّضت بعيون الناس كناية عن الإعماء[1]. ومنها السنة الشهباء وهي السنة القاحلة التي لا تتلوّن بالنباتات ، وقد تشاءم بها العرب ، ومما قيل فيها :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت   ونال كرام المال بالحجرة الأكل[2]

فالأعشى يعبّر بهذا البيت عن شدّة السنة التي اضطرّ الإنسان معها أن يعقر راحلته والعزيز من خـيله من أجل القوت . ومثلها الأرض البيضاء وهي الأرض القاحلة التي لا نبات فيها ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس : [3]

فأضحى يسحّ الماء من كلّ فيقة   يحوز الضباب في صفاصفَ بيضِ[4]

فهذا المطر ساق الضباب إلى تلك الأرض البيضاء التي تعدم الحياة النباتيّة فيها ليرويها[5].

وهكذا نرى أنّ اللون الأبيض يدلّ على الطهارة ، والجمال ، والشرف والقداسة ، والصفاء والسـرعة ، وجميعها معانٍ توحي بالخير والتفاؤل ، وقد يدلّ على معانٍ سلبيّة ، وذلك تبعا لما يمثّله في المعتقد الموروث عند الإنسان .

والأبيض والأسود لونان متناقضان ؛ يمثّل أحدهما القوّة والآخر الضعف ، ولذا فإنّ الجمع بينهما يشير إلى الشمول والإحاطة ، ونجد ذلك في قول الحارث بن حلّزة :

ثمّ جاؤوا يسترجعون فلم تر   جع لهم شامة ولا زهراء[6]

فالشـامة هـنا تعني السوداء ، والزهراء تعني البيضاء ، والمقصود جميع الأنعام . ويقول في موضع آخر :

إنّما الإنسان صفقٌ وقذىً   ويواري نفسه بيضٌ وجونْ[7]

فالبيض والجون هنا تعني الحسنات والسيّئات التي يفعلها في حياته .

---

[1] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 29 ـ 31

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 84

[3] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 127

[4] الصفاصف : المستوي من الأرض .

[5] د. عبد المطّلب ، محمّد : **قراءة ثانية في شعر امرئ القيس** . ص 33

[6] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 53

[7] السابق ، ص 91

ثالثا : مواطن اللون الأحمر

يدخـــل الأحمـــر في العديد من الصور ، فهو يرد في وصف الإنسان ، وعند الحديث عن المعـــارك ، وفـــي وصـــف الخيل ، والسماء ، والزينة ... وهو يحمل دلالات مختلفة باختلاف الموطن الذي يرد فيه . وفي ما يلي أبرز مواطنه مع الدلالات التي تحملها .

1 : الأحمر في الإنسان

يرد الأحمر في الإنسان في مواطن عديدة فقد يكون لون البشرة ، أو لون الخدّ ، أو لون الثياب التي يرتديها ، أو لون الدماء التي تجري في عروقه ، أو لون الجواهر التي يتقلّدها .

وأبرز صفة للإنسان هي لون البشرة ، والأحمر في بشرة الإنسان هو اللون الأشقر ، وهو عـــند العـــرب عيب وشؤم[1]. فلم يرد سوى في بضعة أبيات ، منها قول زهير في حديثه عن الحرب :

فتنتج لكم غلمانَ أشأم كلُّهم   كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطم[2]

فهو يتشاءم بهذا اللون الذي يشبه لون عاقر ناقة صالح _عليه السّلام _ ومن هذه الأبيات ما جاء في وصف الفُرس أو اليهود ، ومن ذلك قول عبيد في السّفينة :

جوانبها تغشي المتالف أشرفتْ   عليهنَّ صُهبٌ من يهودَ جُنُوحُ[3]

فهذه الصهبة صفة لليهود من غير العرب ، وهم هنا الملاّحون .

أمّا الأحمر في الخد فهو صفة حسن ووسامة ، وقد وصفت بها المرأة دون الرّجل ، ومن ذلك قول عنترة : [4]

وردفٌ له ثِقَلٌ ، وخصرٌ مهفهفٌ   وخدٌّ به وردٌ وساق خدلَّجُ[5]

فالخد الورد من صفات الحسن التي توصف بها المرأة .

وفـــي مجال الإنسان نجد الثياب الحمراء ، وقد ذكرت للنساء ، بل لفئة خاصة من النساء وهـــي النساء النواعم المدلّلات أو البغايا ، وهذا يدل أنّ الحمرة في الثياب لم تكن لعامة الناس ، بل هي دليل رفاه وغنى . وفيها يقول الأعشى :

---

[1] النمري : **الملمع** . ص 90

[2] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 105

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 40 ، وانظر عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 18

[4] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 28

[5] مهفهف : دقيق . خدلّج : ممتلىء .

والبغايا يركضن أكسية الإضـــ ـــريجِ والشرعبي ذا الأذيال[1]

والشرعبي تعني الحرير الأحمر ، والإضريج كساء أصفر .و يقول امرؤ القيس :

نواعم تجلو عن متونٍ نقيّةٍ عبيراً وريطاً جاسداً أو شقائقاً[2]

والجاسد والشقائق ثيابا حمراء .

ويلحق بالثياب ما يتصل بها من الجواهر ، والذهب الأحمر وفي ذلك يقول النابغة :

ترائبَ يَستضيءُ الحَلْيُ فيها كَجَمْرِ النار بُذِّرَ بالظّـــلام

كأنّ الشّـــذْرَ والياقوتَ منها على جَيْداءَ فاترةِ البُغـــامِ[3]

وممن ذكر الذهب الأعشى بقوله :

إذا جُرّدتْ يوماً حَسِبْت خَميصَةً عليها وجِريالاً يضيء دُلامصا[4]

والدلامص تعني اللمّاع ، والجريال صبغة حمراء ، ويقصد بها هنا الذهب [5] .

وفي مجال الزّينة يذكر الخضاب وهو أيضا خاص بالمرأة ، ولم يذكر للرّجل إلاّ في بيت واحد وهو في مجال الذّم . ومما ذكر في خضاب المرأة _ وهو كثير _ قول عنترة :

فيها لوامع لو شهدت زهاءَها لسلوتِ بعدَ تخضّبٍ وتكحّلِ[6]

وأمّا ما ذكر للرجل فقول الأعشى :

أرى رجلاً منكم أسيفاً كأنّما يضمُّ إلى كشحيه كفّاً مُخضّباً[7]

فهذا الرجل جبان كثير الأسف ، فكأنّه مخضب الكفين من النساء التي لا حول لها في المعركة .

هـــذا عـــن خضاب الكف ، أما خضاب الشعر فقد ذكره امرؤ القيس بطريقة غير مباشرة ويكون بذلك قد أقرّ به للرجل ، حيث يقول :

---

[1] الأعشى : ديوانه . ص 167

[2] امرؤ القيس : ديوانه . ص 138

[3] النابغة الذبياني : ديوانه . ص 111

[4] الأعشى : ديوانه . ص 87

[5] الدينوري : كتاب النبات . ص 169

[6] عنترة العبسي : ديوانه . ص 100

[7] الأعشى : ديوانه . ص 8

كأنّ دماء الهاديات بنحره　　　عصارة حنّاءٍ بشيبٍ مرجّلِ[1]

وقـد جـاء استخدام الخضاب هنا في محاولة لإخفاء الشيب ومن ثمّ مقاومة بوادر الموت الذي يمثله بلون الحياة وهو الدمّ [2] .

ومما يتعلّق بالإنسان كذلك مسكنه ، وقد أكثر الشعراء من ذكر الأحمر في البيوت والقباب التـي يقيمون فيها ، ويبدو من خلال الأبيات أنّ هذا اللون كان يستخدم للسادة والأشراف فقط ، فهـو دلـيل على مكانة هؤلاء السادة وعلو شأنهم ، وهذا يذكرنا بالمعبد الأحمر والتقديس الذي يحظى به هذا اللون في الفكر القديم ، ومما ذكر في القباب قول الأعشى :

أهل القباب الحمْرِ والـ　　　ـنِعم المؤبّـل والقنابـل[3]

وسمى النابغة مضر بالحمراء في قوله :

وهُم مَنَعوها من قُضاعةَ كلِّها　　　ومِنْ مُضَرِ الحمراءِ عِنْدَ التَّغاوُرِ

نسبة إلى القبة التي أعطاها نزار لابنه مضر وكانت من أدم أحمر[4].

ويلحـق بالأحمـر في الإنسان أيضاً حديث الظعن حيث كانت ألوان الهوادج التي تحمل المرأة عند الظعن دائماً حمراء ، وممّا جاء في ذلك قول زهير :

عَلَوْن بأنماطٍ عتاقٍ وكلّةٍ　　　وَرادٍ حواشيها مشاكلةَ الدَّمِ[5]

وقد حار الباحثون في سبب اختيار هذا اللون للظعن ، فرأى بعضهم أنّ رحلة الظعن هي طقوس دينية تؤدّى من أجل الاستسقاء أو من أجل ديمومة الحياة [6] . وإنْ صحّ هذا الرأي فإنّ الأحمر هنا يلحق بلباس الساحر الذي تحدّثنا عنه في الفصل الأول .

وهـناك مـن يـرى أنّ الأحمر جاء ليوحي بمعنى التضحية التي يتحقق بها الأمل الكبير للإنسـان وهو الخلود [7] ، وهذا يُرجع إلى استخدام الأحمر في الوقاية من الشرور والأمراض الذي ذكرناه في الفصل السابق .

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 56 ، 71 ، 137

[2] عبد المطلب ، محمد : **قراءة ثانية في شعر امرئ القيس** . ص 53

[3] الأعشى : **ديوانه** .ص 157 ، وينظر **ديوان** عبيد. ص 108

[4] النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 67

[5] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 101

[6] الحسن،محمود علي: **الظعينة في الشعر الجاهلي** . رسالة جامعية مخطوطة.جامعة اليرموك . 1984 ، ص 96 ـ 116

[7] القرعان ، فايز : **الوشم والوشي في الشعر الجاهلي** . ص 135 ـ 136

ومنهم من يجعله لوناً يثير الفرحة والسرور ، فاستخدامه يأتي من باب التفاؤل والأمل [1]. وهــذا يرتبط بكون الأحمر لون الحياة مثلما هو لون الموت ، وهو الباب الذي سمّى العرب فيه المرأة بالنُفَساء نسبة لما يخرج منها من الدمّ .

وهناك من أعاده إلى لون الشمس عند الشروق[2]، أو عند الغروب[3] حيث يكون الأفق أحمر اللون ، وعلى هذا يكون الظعن رمزا لرحلة الشمس وليس المرأة .

وإذا كنــت ســأربط بيــن الأحمر والشمس في لوحة الظعن فإنّني سأربطه بالشمس عند الغروب وذلك لعدّة أسباب :

أحدها أنّ الشمس عند الغروب أيضا تكون حمراء ، ويضاف إليها حمرة السماء من حولها (الشفق الأحمر) ، وهذا ما نجده في قول زهير :

كأنّ فُتاتَ العِهْنِ في كلّ منزلٍ   نزلن به حبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ[4]

فهــو يقــول إنّ هذه الظعينة تنشر الأحمر في كلّ مكان تنزل فيه ، وهذه الصورة تشبه إلى حدّ بعيد صورة الشمس عند الغروب ، لما تصبغ به الجوّ من الأحمر .

وثانيها أنّ الشمس عند الغروب تتّجه نحو الغرب ، وهذا يماثل الغربة والنوى الذي تقصده الظعينة ، فالغربة مشتقّة من الغرب ، كما تقدّم في الفصل السابق .

وثالــثها أنّ الشــخص كثيرا ما يراقب الغروب ، فينتقل من مكانه إلى مكانٍ أكثر إشرافا ليتســنّى له متابعة الشمس وهي تختفي رويدا رويدا ، أما عند الشروق فالشمس هي التي تقترب من الشخص فلا داعٍ لملاحقتها ، وقد أكثر الشعراء من متابعتهم للظعينة عند رحيلها ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

وحدّث بأن زالت بليل حمولهم   كنخلٍ من الأعراض غير منبّقِ

فأتبعتهم طرفي وقد حال دونهم   غوارب رملٍ ذي ألاءٍ وشبرقِ[5]

وكثيرا ما كانت هذه المتابعة تقود الشاعر إلى الرحلة خلف المرأة .

---

[1] أبو سويلم ، أنور : **دراسات في الشعر الجاهليّ** . ص 123

[2] زكي ، أحمد كمال: **الأساطير** . بيروت : دار العودة بيروت . 1979 . ص 48

[3] د.عبد الرحمن،نصرت : **الصورة الفنّيّة في الشعر الجاهليّ** . عمان :مكتبة الأقصى . 1976 .ص 126 ، 123

[4] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 102

[5] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 133

ورابعها أنّ الشمس عندما تغرب يعمّ الظلام ، وكذا الظعينة فعندما ترحل لا يبقَ خلفها إلا السـواد ممـثّلا في الأثافي ، وبعر الآرام ، وغيرها مما يؤدّي إلى حزن الشاعر ولوعته ، أمّا الشـروق فـيخلّف الـنور المشرق الذي يبتهج به الإنسان . يضاف إلى ذلك تخيّر الليل لرحيل الظعينة كالشمس التي لا تغرب إلا في الليل .

وخامسـها أنّ غياب الشمس يؤدّي إلى الظلام الذي يثير الأشجان ، ويمثّل الغربة والنوى بـل والمـوت أحيانا ، فالشمس هي واهبة الحياة للأرض وفق المعتقدات القديمة . وهذا الأمر يقـترب من الحقيقة إذ أنّ الله تعالى جعل الشمس سبب الحياة ، وذلك بعمليّة التمثيل الضوئي ، فغـيابها إذن يرافق بالحزن والأسى ، على العكس من الشروق الذي يبعث البهجة والسرور في النفوس . والظعينة في ذلك تقترب من الغروب لأنّها تبعث الحزن والأشجان إلى النفوس .

لكلّ ما تقدّم يظهر لنا أنّ اللون الأحمر في لوحة الظعن جاء من باب التقديس لهذه المرأة التي تعتبر رمزا من رموز الشمس ، وهي بدورها رمز من رموز الآلهة التي عبدها العرب .

ومما يرتبط بالإنسان أيضا لون الدم الذي طغى على مواطن الأحمر في الشعر الجاهلي ، فقـد " ورد هذا اللون عند شعراء المعلّقات في مائة وتسعة عشر بيتا " ، منها ثلاثة وستّون في ديوان عنترة ، وأكثر هذه الأبيات تذكر دماء البشر ، ومنها مجموعة قليلة تذكر دم الحيوان في لوحة الصيد .

ومن خلال الأبيات التي ذكر فيها الدم يتّضح أنّ هدف الشعراء من ذكره كان التأكيد على شـجاعتهم ، وبطشـهم بأعدائهم ، فقد صوّر الشعراء المعارك وكثرة إراقة الدماء فيها لإرهاب العدو ، وحمله على التسليم لهم ، وفي ذلك يقول عنترة مخاطبا سباع الفلاة :

اتبعيني تري دماء الأعادي ... سائلاتٍ بين الربى والرمالِ[1]

وهذا النابغة ينذر بإراقة دم الغادر والخائن بقوله :

وتُخْضَبُ لِحيةٌ غَدَرَت وخانت ... بأحمرَ من نَجيع الجوف آني[2]

وقد يذكر في باب التضحية والفداء ، وفي ذلك يقول طرفة :

إنّي وجدّك ما هجوتك والـ ... أنصـاب يُسفح بينهـنّ دم[3]

---

[1] عنترة العبسي : ديوانه . ص 112

[2] النابغة الذبياني : ديوانه . ص 120

[3] طرفة بن العبد : ديوانه . ص 74

أو في باب الكناية عن الثأر ، وفي ذلك يقول الحارث :[1]

وفعلنا بهم كما علم اللـــ ـــهُ وما إنْ للحائنينَ دماء[2]

أي لا يطلـــب دمهم . والشعراء في هذه الأبيات جميعا يبتهجون لرؤية الدماء خلاف ما يتبادر إلى الذهن من الخوف منها ، وكرهها لتلويثها لليدين والثياب والجسد ، وهم لذلك يشبّهونها بأحبّ الأمور لديهم ، كالعقيق[3]، والأرجوان[4]، والخضاب[5]، ونحوها ، بل إنّ عنترة يستطيب طعمها ويفضّله على سائر المشروبات ، وفي ذلك يقول : ٥٨٠٨٤٠

وإنّي قد شربت دم الأعادي بأقحاف الرؤوس وما رويت[6]

ويجعله مشروبا لندمائه وعصابته ، وفي ذلك يقول في وصف عصابته :

بهاليل مثل الأُسْد في كلّ موطنٍ كأنّ دمَ الأعداء في فمهم شهدُ[7]

فعنترة واحد من الأسياد ، وهم بدورهم صورة للآلهة التي تجعل من الدم مشروبها المفضّل .

ومما يلحق بالإنسان كذلك الخمرة ، وهي المشروب الذي تغنّى الشعراء بلونه ، ومجالسه وأثــره فـــي الجســـد لما يسبّبه من النشوة للشارب . وقد وصف الشعراء الخمرة بلونين هما : الأحمـــر والأصفر ، وقد ألحوا على ذكر الأحمر كثيرا ، ولعلّ السبب في ذلك راجع إلى الصلة بين لون الخمرة والدم ؛ فشرب الخمرة يدلّ على السيادة ، ومن هنا تمّ اختيار هذا اللون تشبيها بمشروب الآلهة ، وفي تشبيه الخمرة بالدماء يقول امرؤ القيس :

أنفٌ كلون دم الغزال معتّقٍ من خمر عانة أو كروم شبام[8]

يـــرى بعـــض الباحثيـــن أنّ سبب اختيار الأحمر هو أنّ الخمرة الحمراء هي أفضل الخمور ، وأكثرها توليدا للدم[9]، ولو كان الأمر كذلك لما خصّص الشعراء هذه المساحة لذكر اللون ،إذ أنّ هـــدف الشاعر هو الوصول إلى النشوة دون عناية بالمقدار ، ولذا فقد كان بإمكانه استخدام أيّ لون ثمّ يبالغ فيه ليصل إلى ما يصبو إليه . فالهدف من وصف هذه المجالس هو التغنّي بالنفس ،

---

[1] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 44

[2] الحائنين : الغادرين .

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 71

[4] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 81

[5] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 88

[6] السابق ، ص 25

[7] السابق ، ص 49

[8] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 163 ، وانظر الأعشى : **ديوانه** . ص 150 ، 157

[9] سعدو ، زهيّة: **تطوّر المعاني الخمريّة من العصر الجاهلي حتّى أبي نواس** . رسالة جامعيّة مخطوطة . جامعة الجزائر . ص 1986 ، 235

فالشـــاعر يشرب مع ندامى بيض ، فهو وهم قوم من الآلهة البشريّة التي تستحقّ التمييز ، ولذا اختاروا لأنفسهم هذا اللون الشبيه بالدماء .

2 ـ الأحمر في الحيوانات :

وصـــفت الإبـــل الحمراء بأنّها تمتاز بالصبر والتحمّل[1]، وأمّا الخيل الحمراء فقد وصفت بأنّها من أشدّ الخيل جلودا وحوافر[2]،ومن هنا جاء استخدام هذا اللون للحيوانات ، فقد استخدمت في مواطن القتال والمعارك الطويلة ،أو للسفر الطويل في الدروب الوعرة ، بحيث تتحمّل تكرار الكـــرّ والفرّ ، وطول الطريق الوعرة التي تقدح شررا تحت حوافرها .وفي قوّة الخيل وصبرها يقول عمرو بن كلثوم في خيل الحرب :

إذا جاءت لهم تسعون ألفا عوابسهنّ وردا أو كميتا[3]

وفي صبرها على طول السير وصلابة الطريق يقول طرفة بن العبد : [4]

جمادٌ بها البسباس ترهص معزها بنات اللبون والسلاقمة الحمرا [5]

فالإبل الحمراء وحدها هي التي تستطيع قطع هذه الأرض الوعرة .

وإذا وصفت حيوانات أخرى بهذا اللون فهذا من باب الشدّة ، ومن الحيوانات التي وصفت به الأسد ، وفيه يقول الحارث :

أسَدٌ في اللّقا وَرْدٌ هَموس وربيعٌ إنْ شمّرت غبراء[6]

فهو يمدح حجر بن أمّ قطام بأنّه كهذا الأسد في القوّة ، وقد مرّ بنا المعتقد السائد حول طلاء فم الأسد بالدم مما يزيد في قوّته .

وقد يرد الأحمر في عضو أو جزء من الحيوان دون سائر الجسد ، فقد لوّن طرفة عثنون ناقـــته بالأحمر[7]، ولوّن عنترة أرجل الحمامة به[8]، وذلك لإعطاء هذه الأجزاء معاني خاصّة ؛ فقـــد أراد عنترة تشبيه حمرة أرجل الحمامة بخضاب المرأة ، واستنكر حزن الحمامة بسبب هذا

---

[1] النمري : **الملمع** . ص 73

[2] الألوسي ، محمود شكري : **رسالة في الألوان** . دمشق : مجلّة المجمع العلمي العربي . آذار 192 . ج 3 . ص 79

[3] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 24

[4] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 47

[5] البسباس : الأرض القاحلة . الأرض المعزاء : كثيرة الحصى . بنات اللبون : صغار الإبل . السلاقمة : الكبيرة .

[6] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 44

[7] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 22

[8] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 143

الخضـــاب ، أما طرفة فقد حاول إعطاء ناقته صفة القوّة ، فلون العثنون يذكّرنا بطلاء فم الأسد بالدم ، وبما جاء في صبغ حسّان للحيته عند استعداده للهجاء كما ورد في الفصل الثاني .

3 : الأحمر في السماء

اعتبر الأحمر في السماء لون شؤم وإنذار بسنة جافّة ممحلة ، ويظهر هذا اللون في فصل الشتاء أو في مطلعه ، وفيه يقول النابغة :[1]

صُهْبَ الظِّلالِ أَتَيْنَ التِّيْنَ عن عُرُضٍ   يُزْجِيْنَ غَيْماً قليلاً ماؤه شَبِما [2]

فهـــذا اللـــون عندما كسا السماء دلّ على قلة الماء ومن ثم الجدب . وإذا كان الحال كذلك فإننا نرفض ما ورد في شرح ديوان امرئ القيس في بيته :

مكلّلةً حمراءَ ذاتَ أسرَّةٍ   لها حُبُكٌ كأنها من وصائل[3]

والبيـــت في وصف الجبال وقد ذكر الشارح أنّ الحديث يدور حول السحاب الأحمر ، ويضيف هذه الجبال تشبه البرود الحمراء لحسنها واختلاف نبتها . وعند العودة إلى القصيدة نجد الشاعر هـــنا يتحدّث عن إبله وحمايتها وأمنها فلا يعقل أن يرعاها في أرض قاحلة لتسرح وتمرح فيها وصغارها فضلاً عن مخالفة الجو الانفعالي لما اعتدنا في حمرة السماء وما تبعثه من غمّ وكآبة بيـــنما يصفها امرؤ القيس بالمكلّلة ، وهي صفة توحي بالخير والسعادة ، وعليه فلا بدّ أن يكون الوصف هنا للجبال ونبتها وليس للجبال وحمرة السماء حتى ينسجم البيت مع الموروث الدلالي للألوان في الفكر الجاهليّ .

4 ـ الأحمر في وصف النار :

كان للنار مساحة واسعة في مواطن اللون في الأدب العربي وقد ذكرت في أكثر من ستين بيـــتاً ، أحـــيانا بمعناها المباشر وغالبا بمعنى مجازي ، فقد ذكرت في نحو عشرة أبيات لتصف مشـــاعر الحبّ وألم الفراق وفي نحو أربعين للتّعبير عن شدّة المعركة كما استخدمت في كنايات أخرى ومما جاء في وصف المعركة وتشبيهها بالنار قول عبيد :

---

(1) النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 102 ، ينظر: طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 55 ، والأعشى : **ديوانه** . ص 67

(2) التين : اسم جبل ، يزجين : يسقن ، الشبم : البارد .

(3) امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 147

ولقد شَبَبْنا بالجِفار لدارمٍ ناراً بها طيرُ الأشائم ينعبُ[1]

والنار في هذه الأبيات تدل على شدّة المعارك وشؤمها كما تتضح في البيت السابق ، والسبب في اختـيار النار لهذا التشبيه لا للونها بل لفعلها ، فهي تأتي على اليابس والأخضر ولا ترحم شيئا يصادفها حتى المواد التي لا تحترق فإنها تشوّه بما تخلفه عليها من سُخام وصدأ .

ومـن المجالات التي استخدمت النار فيها : التعبير عن عاطفة الحب ، وألم الوَجْد ، وهذا ما نجده في قول عنترة :

وكيف أطيق الصبر عمّن أُحبّه وقد أُضْرِمتْ نارُ الهوى في أضلُعي[2]

والتشبيه هنا من باب حرارة النيران ودفئها لا من باب اللون .

ومـن الاسـتعارات التي استخدمت النار فيها أيضا الشهرة ، وهذا ما نجده في قول زهير في الهجاء :

وتوقَدْ نارُكم شَرَراً ويُرْفَعْ لكُمْ في كلّ مَجْمَعَةٍ لِـواءُ[3]

وهو يقصد بذلك أنّ ذكر أفعالهم الخسيسة سوف ينتشر بين النّاس . والتشبيه هنا من باب سرعة انتشار النيران عند إضرامها . ومنها أيضا التعبير عن الهموم كما في قول لبيد :

ولا تبيـتـنَّ ذا همّ تكابـدُه كأنما النار في الأحشاء تستعرُ[4]

والتشـبيه هنا من باب الحرّ كما في الحبّ وحرقته . ومنها التشبيه عن قصر العمر والزوال ، وهذا ما نجده في قول لبيد أيضا :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع[5]

وهـو من باب التحوّل الذي يطرأ على ما تصله النيران ، فبعد أن يسطع الشهاب ويظهر للعيان بلونـه المشرق سرعان ما يتحوّل إلى لون الرماد الكئيب .وعمر الفتى مهما طال وازدهر لا بدّ أن ينتهي ، ليعود الفتى إلى التراب . وذكر الشعراء أيضا نار المجوس المقدّسة ، وهذا ما نجده في قول امرئ القيس :

أحار ترى بُرَيْقا هبّ وَهْنا كنار مجوسَ تستعر استعارا[6]

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 31

[2] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 79

[3] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 22

[4] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 281

[5] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 281

[6] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 107

وقد استخدمت هنا لوضوحها ودوامها ، فهي دائما مشتعلة . وقد نسبت النار للمرأة تعبيرا عن مكانتها في الشعر ،ومما جاء في ذلك قول عنترة :

هذه نار عبلة يا نديمي　　　قد جلت ظلمة الظلام البهيم[1]

وهذه النار تشبه إلى حدّ بعيد نار المجوس التي تبقى واضحة للعيان ، كما تشبه توقّد الشمس عند الشروق حين تكشف الظلام ، وهذا يدلّ على قداسة المرأة عند العرب .

وذكـــرت أيضـــا نار الحرب التي كانوا يتحالفون حولها ، ويبرمون العهود للمناصرة في الحرب ، وفيها يقول عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد في خزازى　　　رفدنا فوق رفد الرافدينا[2]

فالأحمـــر إذن لون يثير البهجة في الثياب ، والقباب ، والحلي ، والخضاب ، وهو لـــون يدعـــو إلى الخوف في النار ، مقدّس في بعض السياقات ، مشؤوم في السماء ، دليل قوّة وصبر في الحيوانات ، مكروه في لون البشرة عدا حمرة الخدّ ، فلا بدّ لمعرفة دلالته من معرفة السياق الذي ورد فيه .

رابعا : مواطن اللون الأخضر

الأخضر لون يدلّ على الخصب والحياة في جميع السياقات التي يرد فيها . وعند تتبّع هذا اللـــون فـــي الشعر الجاهليّ نجده ينحصر في عدّة مواطن ، هي : لون النبات والشجر ، ولون الصدأ الذي يعلو الحديد ، ولون الثياب ، وفي بعض الكنايات .

أمّـــا لـــون النبات فلا جدال في معناه ودلالته ، فقد أحبّ الشعراء كغيرهم من العرب هذا اللـــون ، وحـــاولوا إبـــرازه لمحاربة البيئة الصحراويّة التي عاشوا في كنفها ، وقد ذكر الربيع والنبات عند شعراء المعلّقات في أكثر من عشرين بيتا ، وذلك لوصف الطبيعة التي تحيط بهم ، أو لبيان أثر المطر فيها ، أو لاحتماء الحيوانات ببعض الشجر ، أو من باب التشبيه . ومن ذلك قول الأعشى :

ما روضةٌ من رياض الحَزن معشبةٌ　　　خضراءُ جاد عليها مُسْـبِلٌ هَطِلُ

يضاحك الشـــمسَ منها كوكبٌ شَـــرِقٌ　　　مُؤَزَّرٌ بعميم النبـــت مُكتهـــلُ

---

[1] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 132 ، وانظر الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 14

[2] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 94

يوما بأطيب منها نشر رائحة   ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُلُ[1]

فهذه الروضة تجمع مظاهر الجمال الطبيعي الذي ينشده الإنسان ، من النبات ، والخضرة ، والخصوبة والإشراق ، ولذا قارن بينها وبين جمال المرأة .

والربيع عندهم دليل على السعادة والتفاؤل ، فهو يحمل معه النبات ، والخصب ، والخير ، ولذا فإنّ قدومه يمسح الأحزان عن النفوس ، وهذا يظهر في قول عنترة مخاطبا الطائر : [2]

لو كنت مثلي ما لبثت ملوّنا   حسنا ولا مالت بك الأغصان

فالحياة في كنف الأغصان كفيلة بإبعاد الهموم والألم عن النفس .وقد تزداد كثافة اللون حتّى يدنو من الأسود ، ومع ذلك يبقى لونا يثير الفرحة والخير في النفس ، وفي هذا اللون يقول عبيد بن الأبرص :

كأنّ أظعانهم نخلٌ موسّقة   سودٌ ذوائبُها بالحَمل مكْمومة[3]

فهذا اللون ناتج عن الخصب ، وكثرة الثمار على النخيل .

ومن الخصب والخير الذي يوحي به الربيع جاءت الكنايات ، فكثيرا ما يشبّه الممدوح بالربيع للتعبير عن كرمه وجوده ، بحيث يبدو كالربيع الذي يقدّم كلّ شيء للإنسان بسخاء ، وفي هذا المعنى يقول لبيد في مدح قومه :

وهم ربيعٌ للمجاور فيهم   والمرملات إذا تطاول عامها[4]

ومن ذلك أيضا قول النابغة في مدح النعمان :

وأنت ربيعٌ ينعش الناس سيبُه   وسيفٌ أعيرته المنيّة قاطع[5]

والعيش الأخضر هو العيش الهانئ ، وفيه يقول الأعشى :

و لقد أراه بغبطة   في العيش مخضرّا جنابه[6]

ومن مواطن الأخضر ما نجده في ذكر صدأ الحديد ، واقتصر وصفهم على حديد الدروع فوصفوا الكتيبة بالخضراء لما يعلو حديدها من الصدأ ، ومن ذلك قول الأعشى :

---

(1) الأعشى : **ديوانه** . ص 145

(2) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 144 ، وانظر حواره مع الحمامة ، ص 143

(3) عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 110

(4) لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 241

(5) النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 82

(6) الأعشى : **ديوانه** . ص 22

تأوي طوائفها إلى مخضرّة مكروهةٍ يخشى الكماة نزالها[1]

وهـذا الوصـف للكتيبة يدلّ على شجاعتها وسلامتها ؛ فهم لا يملّون من الحرب بل يصبرون عليها، والصدأ يعلو الدروع لطول ارتدائها وتعرّضها للعرق والغبار ، وهذا يدلّ على طول حياة المقاتل الذي يلبسه غارة إثر غارة ، فالأخضر في الدروع دليل قوّة ، وتفاؤل ببقاء الكتيبة .

يظهـر الأخضر أيضا في الماء لما يتكوّن فيه من الطحالب ، وهي حالة تخالف المألوف فـي دلالات الأخضـر وذلك لأنّها تدلّ على فساد الماء ، وعدم صلاحيّته للشرب ، وهذا عكس الصور المشرقة للأخضر التي اعتدنا عليها ، وفيه يقول امرؤ القيس : [2]

فأوردهنّ من آخر الليل مشربا بلائق خضرا ، ماؤهنّ قليص[3]

والقصيدة تدلّ على عدم صلاحية هذا الماء للشرب من جهة ، ومن جهة ثانية فإنّها تدلّ شجاعة هذا الفارس الذي تمكّن من الوصول إلى ذلك المكان على الرغم من بعده عن الناس .

ومن مواطنه كذلك وصف الثياب وبعض المجوهرات ، وهي أمور تدلّ على الغنى والجاه فالثياب التي توصف بالخضرة تكون مخصّصة لفئة ثريّة أو للملوك ، وليس لعامّة الناس ، وفيها يقول النابغة الذبياني : [4]

يَصونون أجسادا قديما نعيمُها بخالِصَةِ الأردان خُضْرِ المَناكب[5]

وهي ثياب كانت مخصّصة للملوك كما يفيد شارح الديوان ، ولعلّ اجتماع الأبيض مع الأخضر فـيها يدلّ على قداسة هذين اللونين اللذين يمثّلان الحياة والخلود معا ، ولذا تمّ اختيارهما للملك ليذكّرنا بتمّوز وصوره ، وما يمثّله من الخضرة والخلود .

---

(1) الأعشى : ديوانه . ص 154

(2) امرؤ القيس : ديوانه . ص 124

(3) بلائق : مياه المستنقعات . قليص : قليل .

(4) النابغة الذبياني : ديوانه . ص 12

(5) خالصة : بيضاء . مناكب : جمع منكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف .

خامسا : مواطن اللون الأصفر

يمــثّل الأصفر درجات مختلفة ؛ فمنه الأصفر الباهت الذي يدلّ على الجفاف والمرض ، ومنه الأصفر القاتم الذي يدلّ على الماء الآسن ، ومنه الأصفر الفاقع الذي يسرّ الناظرين . ومن مواطن هذا اللون :

1 ــ الأصفر في الإنسان :

أوّل مـــا يلاحظ على هذا اللون هو لون الشمس الذي ينعكس على البشرة ، فتبدو بيضاء مشـــرقة بالــنور والصفاء ، وهذا اللون قد ذكرناه عند الحديث عن الأبيض في بشرة الإنسان ، وفيه يقول طرفة :

ووجه كأنّ الشمس حلّت رداءها   عليه نقيّ اللون لم يتخدّد[1]

وهذا اللون يعطي المرأة أو الممدوح صفة مقدّسة تقرّبه من الآلهة . وهذا التشبيه كثير في الشعر العربي ، إذ يربو على العشرين بيتا عند شعراء المعلّقات .

وممـــا يذكـــر للإنسان في هذا الباب صفرة الثياب ، والعطور ، والذهب ، وهي من باب الزيـــنة التـــي تتحلّى بها المرأة ، وقد تنسب للرجل ، وهي دليل على الثراء والمكانة السامية ، ومما جاء فيه قول النابغة :

تُحيّيهمُ بِيْضُ الولائد بينَهم   وأكسيةُ الإضْريجِ فوق المَشاجِبِ[2]

فالإضريج هو كساء أصفر يلبسه الملك ، أو الرجل الثريّ ، أو البغايا ، والمنعّمات من النساء . ويقول في موضعٍ آخر :[3]

والنَّظْمُ في سلكٍ يُزَيّنُ نَحْرَها   ذهبٌ توقّد كالشهاب المُوقَدِ
صَفْراء كالسَيراء أُكْمِلَ خَلْقُها   كالغُصنِ في غُلَوائه المُتأوّدِ[4]

فهو هنا يذكر الذهب والطيب مما يظهرها بهذا اللون المحبّب .

وذكـــر فـــي اصـــفرار الأسنان ، وهي صفرة مكروهة عند العرب ، وقد وردت في باب الهجاء في بيت وحيد عند شعراء المعلّقات[5].

---

(1) طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 20

(2) النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 12

(3) السابق ، ص 39

(4) السيراء : ثوب من الحرير . غلوائه : طوله وارتفاعه . المتأوّد : المتثنّي من النعمة واللين .

(5) الأعشى : **ديوانه** . ص 42

أمّا الصفرة الباهتة في الإنسان فهي تدلّ على المرض ، وسوء الحال ، أو الذلّ ، وأحيانا الموت . وفي باب المرض والإعياء يقول عبيد بن الأبرص :

قد أترك القرنَ مصفراً أناملُهُ   كأنّ أثوابه مُجّت بفرصادِ[1]

وهذا التشبيه ورد عند كلٍّ من زهير [2] ، ولبيد [3] :

2 ـ الأصفر في الطبيعة :

من الظواهر الطبيعية التي وصفت بالاصفرار الشمس سواءً عندما تذكر لذاتها أو من باب التشبيه . أما التشبيه فجاء للدّلالة على قدسيتها أو قدسية المشبه بها ، وأما الحديث عنه فاقتصر علـى ذكـر حرارتها وتعرّضها في كبد السماء ، عدا البيت الذي ذكره الأعشى وذكر فيه قناع الشمس وهذا يؤكّد رسوخ عبادة الشمس في عقل الجاهليّ ، وفيه يقول :

فتىً لو ينادي الشمس ألقت قناعَها   أو القمر الساري لألقى المقالِدا[4]

ومـن هذه الظواهر الماء وقد وصف بالصّفار للدّلالة على فساده وعدم صلاحيته للشّرب كالمـاء الأخضر ، ويرجع اختلاف لون الماء من أصفر وأخضر إلى لون الطحالب التي تتكون في الماء وقد ذكر في ثلاثة أبيات منها قول الأعشى :

وأصفرَ كالحنّاء طامٍ جماحُهُ   إذا ذاقهُ مستعذب الماء يبصق[5]

3 ـ الأصفر في الحيوانات :

قلّ هذا اللون بشكل كبير في الشعر مما يدل على عدم أصالة هذا اللون عند العرب ، وقد ذكر للخيل في بيتين أحدهما قول امرئ القيس :

كأنّ على المتنين منه إذا انتحى   مداك عروس أو صلاية حنظل[6]

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 56

[2] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 97 ، 132

[3] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 250 ، 145

[4] الأعشى : **ديوانه** . ص 44

[5] السابق ، ص 120 ، وانظر طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 35 ، ولبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 269

[6] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 56 ، وانظر النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 94

فمـــداك العروس هو الحجر الذي تسحق فيه الطيب فيكون لامعاً ومصفراً لكثرة استخدامه ، وقد ورد هـــذا البيت برواية صراية حنظل ، وهي الحنظلة الصفراء [1] ، وعليه فهذا الحصان متناه أصفران . كما استخدم في بيت واحد في وصف الإبل[2].

أمّا الأبيات التي استخدم فيها فهي من باب مشاركة هذه الحيوانات في الحرب ، ولكن عدم اتّباع الشعراء لهذا الوصف يدلّ على عدم أصالة هذه الخيل والإبل .

4 ــ الأصفر في الحياة اليوميّة :

اســتخدم الأصــفر فــي بعض الأواني مثل الكؤوس التي استخدمت لشرب الخمرة ، أو الــزجاجة التــي وضعت فيها الخمرة في بعض الأبيات ، وهذا الاستخدام جاء من باب إظهار الثراء والغنى . وفي ذلك يقول عنترة :

بزجاجةٍ صفراءَ ذات أسرّة   قرنت بأزهر في الشمال مفدّمِ[3]

وهــو هــنا يــتحدّث عن الخمرة ، والزجاجة التي تحويها . ويذكر طرفة قدح الميسر فيصفه بالصفرة وفي ذلك يقول : [4]

وأصفرَ مضبوح نظرتُ حِوارَه   على النار واستودعته كف مجمد[5]

سادسا : مواطن اللون الأزرق

الأزرق هــو أقلّ الألوان تداولا في الشعر العربي ؛ فبينما تجاوزت الأبيات التي اشتملت على الألوان عند شعراء المعلّقات الألف بيت ، كان نصيب الأزرق منها ثلاثة عشر بيتا فقط . وهي موزّعة على النحو التالي :

ــ بيتان في وصف العجم من الفرس واليهود ، وذلك في معرض الحديث عن ساقي الخمرة . وتظهر عدم رغبة الشعراء في هذا اللون لعدم وصف أنفسهم أو سادتهم به ، وقصره على العجم الذين كانوا غالبا على علاقة عداء معهم ، ومما قيل في ذلك قول الأعشى :

---

[1] النمري : **الملمع** . ص 100

[2] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 70

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 122

[4] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 29

[5] المضبوح : القريب من النار . المجمد : الذي لا حظّ له في لعب القمار .

تتخلّها من بكار القطاف   أزيرقُ آمن إكسادها[1]

ــ ثلاثــة أبيات في وصف الحيوانات ، واحدّ في كلب الصيد[2]، واثنان في البازي والصقر ، وهي حيوانات تستخدم في الصيد فلا بدّ أن تكون عدوانيّة . ومما قيل فيها :

كأنّ الغلام نحا للصُّوا   ر أزرق ذا مخلبٍ قد دَجَنْ[3]

ــ بيتان في وصف الغول ، فقد وصف عنترة عينيها بالزرقة[4]، ووصف امرؤ القيس أنيابها[5]، وكلا الصفتين جاءت من باب وصف قوّتها وعدائها .

ــ ذكرت ثلاثة أبيات زرقة الماء النابعة من صفائه ، وصفاء الماء يدلّ على صلاحيته للشرب فهي صفة تخالف موقف العرب من هذا اللون . ومما جاء فيه : [6]

فبيَّتَ زُرقا مِن سَرارٍ بسُحرةٍ   ومن دَحْلٍ لا يَخشى بهنّ الحبائلا[7]

فهو هنا يتحدّث عن حمار الوحش وقد بات في موضعٍ آمنٍ ، بالقرب من هذه الوديان العذبة .

ــ أربعــة أبيات في السلاح ولمعانه ، وهذا الوصف يدلّ على مضاء السيوف وحدّتها ، كما يدلّ على قوّتها ، لا سيّما وقد قرنها امرؤ القيس بأنياب الغول ، وفي ذلك يقول :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي   ومسنونة زرقٌ كأنياب أغوالِ[8]

وفيه تظهر الزرقة في السلاح والغول .

فــالأزرق كما لاحظنا لون مكروه عند العرب ، حاولوا التخلّص منه ، ونسبوه لأعدائهم ، ولم يستخدموه إلا في مجال القوّة والعداء .

---

[1] الأعشى : ديوانه . ص 58

[2] امرؤ القيس : ديوانه . ص 116

[3] الأعشى : ديوانه . ص 209 ، وانظر نفسه . ص 199

[4] عنترة العبسي : ديوانه . ص 114

[5] امرؤ القيس : ديوانه . ص 142

[6] لبيد بن ربيعة : ديوانه . ص 137

[7] بيّت : بلغ ليلا . سرار ودحل : موضعان . الحبائل : المصائد .

[8] امرؤ القيس : ديوانه . ص 142

الفصل الثالث

اللون وأثره في الصورة الشعريّة الجاهليّة

قد تكون الصورة الشعريّة من أكثر المصطلحات غموضا في الشعر العربيّ ، وذلك بسبب الخلط بين الأدب العربيّ الموروث ، والنقد الأدبي الحديث الذي يدين في الغالب إلى الفكر والأدب الغربيّين ؛ فإذا التزمنا بالنقد العربيّ القديم ، وتعريف الصورة الفنيّة في ضوئه فإنّنا سوف نفقد لذّة الوحدة في القصيدة ، ونحصل على وحدات تركيبيّة مشوّهة لانتزاعها من الإطار العام للقصيدة ، وإذا طبّقنا المصطلح الحديث على أدبنا القديم فإنّنا سنجد الكثير من الثغرات ، والإخفاق في مجال التصوير الفنّيّ .

ولذا فإنّني سوف أتجاهل التعاريف العديدة للصورة ، والمحاولات الطيّبة في مجال التوفيق بين الأدب العربيّ والفكر الغربيّ في هذا المجال(1) ،وسوف أطلق هذا المصطلح خلال الفصل على الصور الجزئيّة ، كما عرّفها النقد الأدبيّ القديم ، أمّا الصورة بمفهومها المعاصر فسوف أطلق عليها اسم اللوحة الفنيّة تحاشيا للخلط والاضطراب في أزمة المصطلح .

وسوف أعرض اللوحة كاملة مع شرح الصور المتضمّنة فيها لبيان أثر اللون في إخراج اللوحة كاملة ، ومدى عناية الشعراء بلوحاتهم الفنيّة ، واحتفالهم باللون باعتباره أحد العناصر الرئيسة فيها . يلي ذلك ملاحظات عامّة على التصوير الفنّيّ في الشعر الجاهليّ ،واتجاهات الشعراء المختلفة في رصد الألوان وعرضها ، وذكر أبرز الوسائل التي مكّنتهم من ذلك .

---

(1) ينظر د. الرباعيّ، عبد القادر : **الصورة الفنّيّة في النقد الشعريّ** . ط11 . الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر . 1984 . ص 42 ـ 53

ـ د. خليل ،أحمد محمود : **في النقد الجماليّ رؤية في الشعر الجاهليّ** . ط1. دمشق : دار الفكر ، و بيروت : دار الفكر المعاصر . 1996 . ص 264 ـ 269 .

ـ د. عبد الرحمن ، نصرت: **الصورة الفنّيّة** . ص179 ـ 186

ـ د.ناصف ، مصطفى : **الصورة الأدبيّة** . ط2 . بيروت : دار الأندلس. 1981 . الفصلين الأوّل والثانيّ

إذا بدأنـــا باســـتقراء الشعر الجاهليّ سعيا وراء اللوحات الفنيّة سوف نجد أنّ الشعراء قد اعتـــنوا برسم لوحاتٍ كاملة للعديد من المواضيع ، مثل المرأة ، والممدوح ، والناقة ، والفرس، وحمار الوحش ، والأطلال ، والسحاب والصيد ، والحرب ، والظعن ، وغيرها ، وهي لوحاتٌ نابضة بالحياة في أكثرها ، مشحونة بالعواطف الجيّاشة، وهي تجمع إلى جوار العواطف الحركة والصّوت ، واللون ، مع التركيز على عنصري الحركة واللون .

فإذا حاولنا أن نرسم صورة للمرأة بالريشة والألوان كما وصفت في الشعر الجاهليّ ، على سبيل المثال ، فإنّنا نجد الشاعر يعبّر عن أدقّ التفاصيل ، ويلوّن جميع الأعضاء ، بحيث يمكننا أن نجسّـــد هـــذه الصورة دون عناء . بل إنّ الشاعر لا يكتفي بعرض لوحة ثلاثيّة الأبعاد وإنّما يعـــرض عليـــنا لوحة كاملة ، نستطيع الدوران حولها لمعرفة جميع تفاصيلها ،كما في النحت . وبذلك يكون الشعراء قد جمعوا بين النحت والرّسم معا ، فأخذوا من النحت التجسيد ومن الرسم التلوين .

وكانـــت الألـــوان جزءا من هذه اللوحات التي رسمت بعناية فائقة ، وقد دأب الشعراء على تكرار هذه الصفات وتلك الألوان حتّى بدت النساء في الشعر الجاهليّ بصورة واحدة . ومما جاء في وصف المرأة اللوحة التي رسمها امرؤ القيس في معلّقته ، وفيها يقول[1]:

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرام خِبـــاؤهـــــا   تَمتّعت من لَهْوٍ بهـــا غيرَ مُعَجَّـــلِ

....

مُهَفْهَفَـــةٌ بيضــــاء غيرُ مُفاضــــةٍ   ترائبها مصـــقولة كالســـجنجـــلِ[2]

كَبِكر المُقـــاناةِ البيـــاضَ بِصُــفْرَةٍ   غذاهــــا نَميْرُ المـــاء غيرُ المُحلّلِ[3]

تصدُّ وتُبـــدي عن أسيلٍ وتَتّقـــي   بناظِرَةٍ من وَحْـــشِ وَجْـــرَةَ مُطْفِلِ

وجيدٍ كجِيدِ الرِّئْم ليـــس بِفـــاحشٍ   إذا هـــي نَصتّـــهُ ولا بِمُعَـــطَّـــلِ[4]

وفَرْعٍ يَزينُ المَتْن أســـودَ فاحـــمٍ   أثيثٍ كَقِنْوِ النخـــلة المُتَعَـــثْكِـــلِ[5]

....

---

[1] امرؤ القيس : ديوانه . ص 38 _ 46

[2] الترائب : أعلى الصدر موضع القلادة . السجنجل : المرآة .

[3] بكر المقاناة : أوائل بيض النعام . غير المحلّل : لا يقصده النّاس للشرب .

[4] نصتّه : رفعته ، معطّل : خالٍ من الزينة .

[5] أثيث : كثيف . المتعثكل : المتشابك .

تُضـــيء الظـــلام بالعشـــاء كأنّها   منـــارة مُمْســـى راهـــبٍ مُتَبَتّـــلِ

فهـــي كالبيضـــة في صفاء لونها ، والعناية بها ، وطهارتها ، وهذه الصفة فيها إشارة إلى لون المرأة الذي يوصف بالبياض وسوف نقف عند هذا الوصف في التفسير الرمزي للألوان في الفصـــل الرابع ، ويعود البيت الثاني حيث يصرّح أنّها بيضاء ، وترائبها ناصعة لامعة كالمرآة ليؤكّد صفة البياض فيها ، ولكنّه ليس البياض الممقوت الذي كرهه العرب ــ كما مرّ في الفصل الأول ــ وإنّما هو بياض شابته صفرة كلون بيض النعام ، أو بياض الدرّة داخل الصدفة .

أمّـــا عيـــنها فهـــي تشبه عين البقرة الوحشيّة أو الظبية ذات الابن الصغير تجمع الجمال والسحر معا ؛ فإلى جانب سعتهما وسوادهما هناك مشاعر الذعر والترقّب مما يضفي على سواد عينـــيها بـــريقا جذّابا . وشعرها أسود حالك يشبه الفحم لسواده، ثمّ يضيف الشاعر صفة الكثافة فيشـــبّهه بأغصـــان الـــنخلة المتشابكة مما يزيد في سواد لونه . ويتابع الشاعر الوصف إلى أن يشـــبّهها بالمصباح ، وهو تشبيه يدلّ على صفاء لونها من جهة وعلى قداستها من جهة أخرى ؛ فالشاعر عندما شبّهها بهذا المصباح ، وهو تشبيه جميل محبّب في الشعر الجاهليّ ، زاد فيه أنّ هذا المصباح يضيء في منارة راهبٍ متعبّد ، فهو إذن نورٌ مقدّسٌ وليس كغيره من النيران[1].

أمّـــا عيـــن المرأة التي شبّهها امرؤ القيس بعين الوحش فتوصف بالحور ، وهو من أبرز ســـمات الجمال عند العرب ، وفيها يجتمع الأبيض الناصع مع الأسود الحالك ، وفي ذكر الحور يقول عبيد بن الأبرص :

وأوانسٍ مثل الدمى   حُوْر العيون قد استُبينا[2]

فهي ليست صفة فريدة لامرأة واحدة وإنّما صفة عامّة للنساء كما يظهر في البيت .

ولا يقتصر الشاعر على تلوين بشرة المرأة وشعرها وعينيها بل نجده يصف بياض أسنانها وســـواد لثتها ، ولمى شفتيها ، وحمرة خدّيها ، وخضاب كفّيها ، وألوان ثيابها وحليها وطيبها الذي يتركها صفراء كالعرارة .ومما جاء في ذكر هذه الصفات في لوحة المرأة قول الأعشى :

وإذا غزالٌ أَحْوَرُ الـــ   ـــعَيْنَيْنِ يُعْجبني لِعابُهْ

حَسَـــنٌ مُقَلَّـــدُ حَلْيِـــه   والنَّحْر طيِّـــبَةٌ مَلابـــه

غرّاء تَبْهَـــجُ زَوْلَـــهُ   والكفّ زيّنها خضابه[3]

---

[1] ينظر في هذا المجال أيضا النابغة الذبياني : ديوانه . ص50

[2] عبيد بن الأبرص : ديوانه . ص 120

[3] الأعشى : ديوانه . ص 20

فهو هنا يصف عيني المرأة بالحور ، ويذكر خضاب كفّيها ، وحليها التي غالبا ما تكون متعدّدة الألوان ، كلّ ذلك ليرسم لنا لوحة جميلة جذّابة لهذه المرأة .

ويقول في قصيدة أخرى:[1]

بَيضاءُ ضَحْوَتُها وصفـــ ـــراء العَشِـــيَّةِ كالعَرارةْ

ومَهـــاً تَرِفُ غُروبَــه يَشْــفي المُتيّم ذا الحَرارةْ[2]

كذُرى مُنَــوِّرِ أُقحــوا نِ قد تَســامَقَ في قَرارةْ[3]

وغدائــر ســودٍ على كَفَــلٍ تزيّــنُه الوثــارة[4]

وأرَتْكَ كفًا في الخضــا ب وساعدا مثلَ الجِبارة[5]

والشاعر في هذه الأبيات يجمع أكثر من لون في لوحته ، فهي بيضاء البشرة ، وتظهر باللون الأصفر في ساعات العشاء لما يمسّ جسدها من الطيب ، وأسنانها بيضاء كزهرة الأقحوان ، وغدائر شعرها سوداء ، وقد خضبت كفّيها باللون الأحمر البهيج .

ومن جمال التشبيه في هذا المجال ما ورد عند النابغة في وصف حلية المرأة وقد تراءت له على ترائب المرأة من تحت ستر أسود رقيق وفي ذلك يقول :[6]

صَــفَحْتُ بنظرةٍ فرأيت منها تُحَيْتَ الخِدْرِ واضِعَةَ القِرام[7]

تَرائبُ يَسْــتضيءُ الحَلْيُ فيها كجمر النار بُذِّرَ فــي الظّلام

كأنّ الشّــذْرَ والياقــوتَ منها على جَيْــداء فاترةِ البُغَــام[8]

فقــد شبّه الجواهر التي بدت من تحت الستر بالجمر الذي بذر في الظلام ، وهذا يدلّ على دقّة الشاعر في انتزاع صوره من البيئة المحيطة ، وحسن تشبيهه .

ومما وصــفه الشعراء أيضا ثياب المرأة ، وقد خصّوا الثوب الأحمر بالذكر ، سواء في رحلة الظعن أو في الغزل وفي ذلك يقول امرؤ القيس :[9]

وقد أذعر الوحش الرّتاع بغرّةٍ وقد أجتلي بِيض الخُدور الروائقا

---

[1] الأعشى : ديوانه . ص 75 ــ 76

[2] المها : البلّور ، ويقصد به أسنانها . ترف : تبرق . الغروب : الأسنان .

[3] تسامق : استوى .

[4] الوثارة : الليونة ، والسّمانة .

[5] الجبارة : السّوار العريض .

[6] النابغة الذبياني ، ديوانه ، ص 111

[7] صفحت بنظرة : رميت بنظرة . القرام : الستر .

[8] الشذر : اللؤلؤ الصغير . البغام : صوت الظبية . الجيداء : الظبية الحسنة الجيد .

[9] امرؤ القيس : ديوانه . ص 138

نواعمُ تجلو عن مُتونٍ نَقيّة   عبيرا ورَيْطا جاسدا أو شقائقا[1]

ففي هذه اللوحة تبدو النساء حسناوات نواعم ، يظهر بياض أجسادهنّ من تحت الثياب الحمراء ، ليضعنا أمام تقابل هذين اللونين ، وليؤكّد صفة البياض التي تظهر شيئا فشيئا أثناء خلع الثياب .

ولعـلّ الشـاعر هنا يقصد الشمس التي سبق الربط بينها وبين المرأة في لوحة الظعن ، فالشّمس عند إشراقها تظهر حمراء ثمّ تأخذ بالتّحوّل إلى اللون الأبيض رويدا رويدا ، فهل المرأة التي تخلع ثيابها الحمراء فتكشف عن بياضها الذي تشوبه الصفرة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ هي الشمس عند الشروق ؟

وقـد شبّهت المرأة لبياضها بالبيضة ، والشمس ، واللجين ، والمصباح ، والبدر ، ...كما شـبّه شعرها بالليل ، والفحم ، ... أمّا الأسنان فقد شبّهت بالبرد ، واللؤلؤ ، والأقحوان ،وغير ذلك من التشبيهات التي استحضرها الشعراء لتلوين اللوحات التي وصفوا فيها المرأة.

وقد وصف بعض الشعراء المرأة بالسواد ، ولكن ذلك كان في معرض الذمّ ، فالسوداء أمة تقـوم بالمهين من الأعمال ، ويعاب الرجل إذا نسب إليها ــ كما في قصّة عنترة الشهيرة ولذا فقد نفى الشعراء أن تكون المرأة التي يهيمون فيها سوداء ، وفي ذلك يقول الأعشى :[2]

ليست بسَوداءَ ولا عِنفِصٍ   داعِرةٍ تدنو من الدّاعر[3]

فنحن إذن أمام ثلاثة أنواع من النساء ؛ فهناك المرأة المعشوقة ، وفيها جاءت جلّ الصور في الشعر العربي مما ذكر سابقا ، وهي صورة لامرأة مثال أخذت عن وصف إحدى الربّات في الأساطير القديمة ، وهذا ما سنقف عليه في الفصل الرابع . ومنها المرأة السوداء التي ترمز إلى الشقاء والعبوديّة ،[4] وقد يكون السبب في ذلك عائد إلى وصف إحدى الآلهة السلبيّة كسيّدة

---

[1] المتون النقيّة : الأسنان . الريط : الثياب التي تشبه الملحفة . الجاسد : الأحمر وكذا الشقائق .

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 92

[3] عنفص : قليلة الحياء . الداعرة : الفاسقة .

[4] د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنيّة** . ص 165

المـــوت أو العـــزّى التــــي وصفت بالسواد في قصّة قطع سَمُراتها أو غيرهما . ومنها المرأة الـــزوجة وفــــي ذكرها لا نكاد نعثر على رسم لها لميل الشعراء إلى ذكر صفاتها المعنويّة دون تجسيد أو وصف حسّيّ .[1]

وإذا انتقلـــنا إلى لوحة الرجل في الشعر الجاهليّ فإنّنا نجده يوصف بالبياض ، سواء كان ممدوحـــا ، أو نديما ، أو الشاعر نفسه ، أو الخصم الذي يصرع في المعركة . وهي سمة سيادة وشرف في جميع اللوحات ، ومما جاء في ذلك قول طرفة بن العبد في ندمائه :

ندامايَ بيض كالنجوم وقينة   تروح علينا بين برد ومجسد[2]

فقـــد جعـــل ندماءه بيض الوجوه ، وهم يشبّهون بالنجوم ، فهو بياض القداسة ــ كما ذكرنا في بياض المرأة ، ومما جاء فيه كذلك قول عنترة في كسرى أنو شروان :

وقد خلعت عليه الشـــمس تاجاً   فلا يغشـــى معالمه الظـــلام
جواهره النجوم وفيــــه بـــدر   أقلّ صفات صورته التمـــام
بنو نعشٍ لمجلســـه ســـريرٌ   عليها والســـماوات الخيـــام[3]

وهـــو هـــنا يشـــبّه كســـرى بالبدر ، والجواهر التي ترصّع تاجه بالنجوم ، وعرشه عبارة عن مجموعـــة " بنات نعش " فكسرى في هذه الأبيات صورة من صور القمر الذي عبده العرب في الجاهلـــيّة ، والبياض المشع هو أحد ألوانه التي أحبّها العرب . ويبرز لنا في هذه الأبيات تكامل الصـــور فـــي إطـــار اللوحة الواحدة ؛ فجميع التشبيهات منتزعة من سياق واحد ، وهو صورة السماء ليلا .

وفي ذكر بياض الخصم الذي يصرع في المعركة نجد اللوحة التي رسمها عنترة لإجهازه على عدوّه ، في ذكر إحدى المعارك ، وفيها يقول :

وبدرٌ قد تركناه طريحا   كأنّ عليه حلّة أرجوان
شـــككت فؤاده لمّا تولّى   بصدر مثقّفٍ ماضي السنان
فخرّ على صعيد الأرض ملقىً   عفير الخدّ مخضوب البنان[4]

فهذا الخصم أبيض كالبدر ، فهو إذن من الأشراف والسادة ، ومع ذلك فإنّه لم يصمد أمام سلاح عنـــترة ، فهوى طريحا نزيفا ، فبدا وكأنّه يرتدي ثوبا أحمر ، وقد خضّب راحتيه لما يعلوه من الدّماء ، أمّا خدّه فقد تمرّغ بالرغام لسقوطه على الأرض ، وهزيمته أمام البطل .

---

[1] د.الجاسم ، أحمد موسى : **عبيد بن الأبرص،دراسة فنّيّة** . ط1 . بيروت:دار الكنوز الأدبية.1997 ، ص 178 ــ 179

[2] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 24

[3] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص135 ، وينظر في هذا المعنى الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 84

[4] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 149

وهـنا يـبرز لنا تقابل الألوان من جديد ؛ فبياض الفارس الطريح يجتمع مع حمرة الدماء التي تعلوه . ويبدو الشاعر فنّانا متروّيا في رسم لوحته ، وتخيّر ألوانها ؛ فبياض الوجه كبياض الـبدر ، وحمـرة الثياب كالأرجوان ، وحمرة اليدين كالخضاب ، وهذه الصور جميعا تتحد في لوحة واحدة في مصرع هذا الفارس .

ومن صور الرجال في الشعر الجاهليّ ما نجده في قول لبيد بن ربيعة :[1]

فإن تسألينا فيم نحن فإنّنا عصافير من هذا الأنام المُسَحَّرِ[2]

تبابعة سبعون من قبل تبّعٍ تولّوا جميعا أزهرا بعد أزهر

فالشـاعر هـنا يعبّر عن تسليمه بالواقع من خلال هذه الصورة ، فهو وقومه من صغار الناس لعجـزهم عـن مواجهة الموت وردّه ، ثمّ شبّه تتابع الدول بالنجوم التي تهوي نجما إثر آخر ، فكلّما ظهر سيّد لا يلبث أن يتولّى هو وحكمه ويأتي سيّد آخر ، وحكم جديد .

وهـنا يـبرز تكامل الصور ؛ فإذا كانوا يشبّهون الرجل بالبدر فإنّ الصورة التي اختارها الشـاعر في هذه الأبيات منتزعة من السّياق العام لها ، فتوالي هؤلاء السادة كتوالي النجوم أو الشهب من السماء .

ومـن الصور التي رسمت للرجل ما نجده في قول عنترة في لوحة الحرب ،وفيها يصف نفسه قائلا:

برزت بها دهرا على كلّ حادث ولا كحل إلاّ من غبار الكتائب[3]

وقد رسم لنا الشاعر هنا صورة طريفة للشجاعة والإقدام وذلك بتشبيه تراكم الغبار على الفارس بـالكحل الـذي يزين العين ، فألبس بؤس الإعياء والتعب هذا الثوب البهيج ، وهذا الغبار الذي يخافه الناس ما هو بنظره إلاّ إحدى وسائل الزينة التي يقبل الفارس عليها مرِحا .

ومن الصور الفنّيّة التي تدخل الألوان في تركيبها في لوحة الرجل صورة الشيب فقد ذكره الشـعراء ونفروا منه ولكننا نجد بعض الشعراء يرسمون له صورة تخالف ذلك ، ومنهم عنترة الذي شبّه الشيب بالصبح الذي يأتي معه الفرج ، وتسرية الهموم ، وفي ذلك يقول :

---

[1] لبيد بن ربيعة : ديوانه . ص103

[2] عصافير : صغار . المسحّر : معلّل بالطعام والشراب .

[3] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 16

ذنبي لعبلة ذنب غير مغتفر   لمّا تبلّج صبح الشيب في شعري[1]

فعــبلة تلومه على هذا الشيب وتصدّ عنه بسببه ، بينما هو يصوّره بنور الصبح البهيج ، وربّما كان هذا من باب التفاؤل لإبعاد شبح الموت عنه ، أو لبيان قدرته على وصل الحبيبة ، والدفاع عــنها علــى الرغم من كبر سنّه ، ومن ذلك أيضا قول عبيد بن الأبرص مشبّها بياض الشيب باللجين :

فإن يكُ فاتني أسفا شبابي   وأضحى الرأسُ منّي كاللُّجين[2]

ولون اللجين يثير البهجة في النفوس ولكن الشاعر شبّه الشيب الكريه به ، ولعلّ السبب في ذلك عــائد إلى موضوع الأبيات التالية له ، وفيها يبدو الشاعر متمسّكا بالحياة ؛ فهو يصرّح أنّه ما زال قادرا على الولوج إلى خدور العذارى ، والشعور بالمتعة دون أن يعيقه تقدّم السنّ عن شيء مــن ذلك . فاختيار هذا التشبيه يأتي من باب نفي النفور من هذا اللون ، وإثبات عكس المتوقّع منه .

أمّا وصف الرجل بالسواد فذلك يأتي من باب الذمّ ، كما أسلفنا في حديثنا عن سواد المرأة ولكــن الشــعراء السود كعنترة انبروا للدفاع عن هذا اللون ، فرسموا له لوحاتٍ بهيجة لإقناع الناس بصدق نظرتهم ، وصرفهم عن التندّر بسواد هذه الفئة، وفي ذلك يقول عنترة:

لئن أكُ أسودا فالمسك لوني   وما لســواد جلدي من دواءِ

ولكن تبعد الفحشاء عنّي   كبعد الأرض عن جوّ السماء[3]

فهــو يشبّه لونه بلون المسك الذي يرغب به الناس ، ثمّ ينفي أن تكون أعماله فاسدة ، فسواده لا يقــرّبه من الرذيلة كما أنّ سواد المسك لا يمنع من استخدامه ، ولا يذهب حسن رائحته . وفي موضع آخر يؤكّد نقاء سريرته على الرغم من كونه أسودا ، فيقول :

وإن يعيبوا سوادا قد كُسِيتُ به   فالدرّ يستره ثوب من الصّدف[4]

وفيه يشبّه أخلاقه الفاضلة ، وسواد بشرته بالدرّة الثمينة التي تكون مستورة داخل الصدفة ، فهذا الوعــاء لا ينتقص من شأن الدرّة ، ولا يقلّل من جودتها ، ومن ثمّ إنّ سواد الشاعر لا يقلّل من شأنه ولا ينفي كرم أصله . فهذه الصورة تقوم على تقابل اللونين الأبيض والأسود ، ودلالة كلٍ منهما .

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 68

[2] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 183

[3] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 8

[4] السابق ، ص 88

ومما يذكر في لوحة الممدوح والفارس ونحوهما ذكر الملابس ، وقد اعتنى الشعراء بوصف الثياب لتكتمل معالم اللوحة التي يعرضونها ، وكانت الثياب غالبا توصف بالبياض ، كما مرّ في الفصل الثاني ، ومن ذلك ما جاء عند النابغة بقوله :[1]

تُحيّيهم بِيْضُ الولائدِ بينهم وأكسيةُ الإضريج فوق المَشاجب[2]

يصونون أجسادا قديما نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب[3]

فهؤلاء الممدوحون لهم جوارٍ بيضٌ حسناوات ، وثيابهنّ من الأحمر والأصفر ، وهي ألوان تخصّ الغواني ، أو الأثرياء وثيابهم ذات أردان خالصة البياض ، ومناكب خضراء ، وهي ثياب خاصّة بالملوك .

يظهر لنا من خلال هذه اللوحة عناية الشاعر بألوانه ، فهو يصف الثياب وهي على المشجب ، كما يذكر تفاصيل الألوان في الثوب الواحد مما يدلّ على أهميّة هذه الألوان . وهو من باب آخر يهدف إلى دلالات هذه الألوان ؛ فقد جعل الأحمر للجواري لأنّه لون العاطفة والشهوة الجنسيّة ، بينما يجتمع الأبيض مع الأخضر للممدوحين ، فالأبيض لون الحياة والأمل والأخضر لون الخصب والخلود ، فهما يتكاملان في منح السلامة والتفاؤل للشخص ، كما يمنح الأحمر في هذا السياق البهجة ، وإشباع الغرائز التي بواسطتها يصل الشخص إلى نوع من الخلود عبر الأجيال التي تنحدر من صلبه .

وإذا انتقلنا إلى لوحات الحيوان في الشعر الجاهليّ فإنّنا نجد الشعراء يلوّنون الحيوانات بألوان عديدة ، كالأبيض والأشقر ، والأسود ، والأدهم ، والكميت ، والأحوى ، والأصهب ، كما يلوّنون غرر الخيل ، وأرجلها ، وكلّ جزء من الحيوان يوصف بلونه الخاص ، أو يسمّى الحيوان تبعا له ، مثل التحجيل ، والتوشيم[4] ، والوسمة ، والأغر والأعصم ، والأصقع[5] ، وغيرها .

ومما جاء في ذكر ألوان الخيل قول عبيد بن الأبرص في وصف ناقته مقبلةً ومدبرة :

أما إذا استقبلتها فكأنّها ذبلت من الهنديّ غير يبوس

---

[1] النابغة الذبيانيّ : ديوانه . ص 12

[2] الولائد : الإماء البيض . الإضريج : الخزّ الأحمر ، أو كساء أصفر .

[3] الخالصة : الشديدة البياض .

[4] التوشيم : سواد في قوائم الفرس البيضاء . والتحجيل : بياض في قوائم الفرس السوداء .

[5] الأصقع : العقاب الذي في رأسه بياض .

أما إذا استدبرتها فكأنّها   قارورةٌ صفراء ذاتُ كَبِيس[1]

فهــذه الــناقة تشــبه في إقبالها القناة المثقّفة ولكنّها ليست جافّة ، وهذا يدلّ على ضمور مقدّمها وســرعة حركــتها ، بينما تبدو وهي مدبرة كالقارورة التي تستخدم لحفظ الطيب من الزعفران ونحــوه ، وهــذا يدلّ على امتلاء فخذيها ووركيها ، مع بروز لونها الأصفر ، وهو أصفر فاقع يسرّ الناظرين كلون الطيب .

أما النابغة فيلوّن إبله باللون الأبيض ، ويجعل أرحلها حمراء ليجمع بذلك بين لونين يكشف كل منهما جمال الآخر ، ويبرزه ، وفي ذلك يقول :[2]

تمشي بهم أُدْمٌ كأنّ رِحالَها   عَلَقٌ هُريقَ على مُتونِ صُوار[3]

فــالإبل بيضــاء ورحالها حمراء ، ولذا فهو يشبّهها بقطيع من البقر الوحشيّ الأبيض وقد أريق عليه الدم . وأجد في هذه الصورة حضور التضحية والفداء وما يرافقه من ذبح البقر ونحوها من الأنعام ، بل جعل قطيع البقر أبيض وهذا ما أشرنا إليه في الفصل الأول من التضحية بالأبيض لقداسة هذا اللون .

ويصف امرؤ القيس شحم مطيّته بعد ذبحها ، ويشبّهه لبياضه الإبريسيم الأبيض فيقول :

فظلّ العذارى يرتمين بلحمها   وشحمٍ كهُدّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ[4]

فقــد تنبّه الشاعر إلى هذا البياض الناصع من الشحم فأعجب به ، وراح يرسم له صورة جميلة بعيدة عن رائحة الدهن ، واشتهاء الطعام ، ولا يخفى أنّ الغرض من هذا الوصف هو بيان سمنة هذه المطيّة ، ونعيم صاحبها حتى اكتنزت باللحم والشحم الأبيض . وهو يصف في موضع آخر فرسه فيقول :[5]

إذا تَبَصّرَها الرّاءُونَ مُقْبِلَةً   لاحَتْ لَهُمْ غُرَّةٌ منها وتَجْبِيْبُ[6]

والماءُ مُنْهَمِرٌ والشَّدُّ مُنحدِرٌ   والقُصْبُ مُضْطَمِرٌ واللَّون غِرْبِيْبُ[7]

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 70

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 60

[3] علق : دم ، هريق : أريق . متون : جمع متن وهو الظهر . صوار : قطيع من البقر الوحشيّ .

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 33

[5] السابق ، ص 76 ، وانظر في هذا المعنى ، زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 71 ، والنابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 62

[6] التجبيب : بلوغ التحجيل ركبتي الفرس .

[7] الماء : عرق الفرس . الشدّ منحدر : لا تحتاج إلى حثّ لسرعتها الطبيعيّة . القصب : المعي والظهر . مضطمر : ضامر . غربيب : حالك السواد .

كأنّها حين فاض الماء واحتَفَلَتْ   صَقْعاءُ لاحَ لها في المَرْقَبِ الذِّيبُ[1]

فهي حالكة السواد ، لها غرّة بيضاء ، وقوائمها كذلك بيضاء ، وهذه الصفات تلوح للشخص من بعـيد بسبب تقابلها ، إذ يجمع الشاعر بين الأسود والأبيض في لوحة واحدة ،وهي ، كما أسلفنا في الفصل الثاني ،صفة جمال وقوّة معا ، وقد شبّه فرسه لسرعتها ولونها وبياض غرّتها بأنثى العقاب الصقعاء ،أي التي في رأسها بياض .

وهـناك من وصف الكلاب وصفا دقيقا حتى برز لون عينيها ، كما في لوحة الصيد عند امـرئ القيس ، وفيها يشبّه عيون الكلاب الحمراء بنوّار العضرس ، وهو نبت له نوّار أحمر ، فيقول :[2]

مُغَرَّثَـةً زُرقاً كأنّ عيونـها   من الذَّمْرِ والإيحاء نوّار عَضرَسِ[3]

فهي زرقاء وعيونها حمراء ، وهما صفتان يتشاءم العرب بهما ، ولعلّ السبب في الجمع بينهما هو الدليل على شدّة هذه الكلاب ، وقوّتها لجمعها صفات اللؤم والبطش معا .

أمّا عنترة فيرسم لنا صورة للغول مع أنّه حيوان خرافيّ لم يره أحد ، ولا يوجد له وصفٌ محدّد فيصفه بالسواد ، والأظافر الحادّة ، والعيون الزرقاء ، وفي ذلك يقول :

والغول بين يديّ يخفى تارةً   ويعود يظهر مثل ضوء المشعل

بنواظر زرقٍ ووجهٍ أسودٍ   وأظافرٍ يشبهن حدّ المنجلِ[4]

فهـو حيوان خفيّ يظهر ويختفي كما يشاء ، ولا يستطيع أحدٌ أن يتابعه ، كضوء المشعل الذي يسطع ، ثمّ يخبو ، وقد يطفأ ثمّ يعود للسطوع ، وهو يظهر للشاعر بعيون زرقاء ووجه أسود ، وهما صفتان مكروهتان كذلك ، وقد جمع الشاعر بينهما ليزيد من بشاعة الصورة ، ويدلّ على خطر هذا الغول ومن ثمّ شجاعة الشاعر في تلك المغامرة .

ويصـوّر لنا عبيد بن الأبرص النعام والظباء بلونها الأبيض الذي يشبه لون اللجين ، وقد تغيّر لون قوائمها نتيجة لتعاطيها النبات ، فيقول :

بدّلت منهم الديار نعاما   خاضباتٍ يزجين خيط الرئال

---

[1] احتفلت : بالغت في جريها .

[2] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 116

[3] مغرّثة : مجوّعة . الذمر : الإغراء والتسليط . الإيحاء : الإشارة إلى الشيء .

[4] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 114

وظباء كأنّهنّ أباريـــ ـــق لجينٍ تحنو على الأطفال[1]

وهـــو بهذه الصورة يؤكّد عموم النبات في الديار التي رحلت عنها المرأة ، بدليل الخضاب الذي يظهر على قوائم النعام والظباء . أمّا لبيد بن ربيعة فيصوّر لنا الثور وبياضه فيقول : [2]

فاجتاز منقطع الكثيب كأنّه نِصَعٌ جلته الشمس بعد صِوانِ[3]

فهو ثور أبيض يشبه الثوب الأبيض الذي لم يُلبس بعد ، وقد ظهر في الشمس فبدا لامعا مشرقا لا عيـــب فيه ، ولم يتغيّر لونه ، فجمع البياض ، مع البعد عن التعرّض للشمس فترة طويلة مما يغيّر لونه ، مع انعكاس أشعّة الشمس عليه ، كلّ ذلك للتعبير عن شدّة البياض . وأضاف النابغة إلى بياض ثوره وشوما سوداء في قوائمه ، فقال :

سراته ما خلا لَبَاته لَهَقٌ وفي القوائم مثل الوشم بالقار[4]

فهـــو ثور أبيض الظهر ، وقوائمه سوداء ، وقد شبّه السواد الذي في قوائمه بالوشم الذي ترسمه المرأة على ساعديها وذلك ليعطيه صفة القداسة ، والقوّة السحريّة المستمدّة من الوشم .

ويقـــف زهير عند الخيل فيصوّرها حتّى يبرز لنا لون عرقها الذي يقطر منها أسود لشدّة نشاطها ، فيقول :[5]

وتنضح ذِفراها بجَون كأنّه عَصيم كُحَيْلٍ في المراجل مُعْقَدِ[6]

وهـــو إذ يصوّر العرق الذي يتصبّب على خيله يحاول أن يرسم لنا صورة ملوّنة فلم يجد سوى صـــورة القطران الذي يطلي جدران القدور بعد غليه فيها ، فكأنّ العرق التصق بهذه الخيل كما يلتصق القطران بالمراجل .

ومن اللوحات الأخرى التي يبرز فيها اللون جليا لوحة الطبيعة ، فهم يحاولون إضفاء سمة الجمال والزخرفة للبيئة المحيطة بهم ، فيكثرون من ذكر النبات [7] .

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 95

[2] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 272

[3] نصع : ثوب أبيض خالص البياض . جلته : كشفته وأبرزته . الصوان : ما يصان فيه الشيء .

[4] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص52

[5] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 28 ، وانظر ص 96

[6] تنضح : تسحّ أي تعرق . ذفراها : العظم الشاخص خلف الأذن . عصيم : الأثر من كلّ شيء . كحيل : القطران الرقيق .

[7] ينظر عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 27 ، والأعشى : **ديوانه** . ص 186

وقــد أكــثر الشعراء من ذكر البرق ، لا سيّما في الليل ، وهذا يرجح أن يكون البرق في الشعر الجاهليّ هو بصيص الأمل الذي ينير لهم السبيل في هذه الحياة . ومما جاء في ذكره قول امرئ القيس :[1]

أصاح ترى برقا أريك وميضه　　كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكَلّل[2]

يضيء سناه أو مصابيح راهبٍ　　أمال السّليط بالذُّبال المفتّل[3]

والشـــاعر هنا يحاول أن يبتكر صورة لوصف البرق فيشبّهه بحركة اليدين للدلالة على سرعة وميضـــه ، ثمّ يشبّهه بمصابيح الراهب ليمنحه صفة القداسة ، واستمراريّة التوقّد ، لأنّ مصابيح الراهب لا تطفأ ، كما يشبّهه في قصيدة أخرى بالنار للغاية نفسها [4].

أمّـــا البرق عند عنترة فهو غالبا ما يكون بريق السيوف تحت غبار المعركة ، وهو بريق في ظلام كذلك مما يدلّ على تفاؤل الشاعر به ، ومن ذلك قوله :

هجرت البيوت المُشرفات وشاقني　　بريق المواضي تحت ظلّ قتام[5]

فهـــو يطـــرب لهذا البريق الذي يلوح في جوّ مظلم أغبر ، ومن منّا لا يشعر بنشوة الفرح بعد انفراج الشدّة ؟ وهل هناك ابتسامة أجمل من تلك التي تشقّ طريقها عبر الدموع ؟

ومن البريق الذي وقف الشعراء أمامه طويلا بريق السراب ، وفيه يقول الأعشى :[6]

وبيداءَ تِيْهٍ يلعب الآل فوقها　　إذا ما جرى كالرازقيّ المُعَضّدِ[7]

والشـــاعر يؤكّـــد ســـعة هذه الصحراء وترامي مساحتها إلى جانب شدّة الحرّ فيها ، مما جعل الســـراب يظهر ويختفي في أماكن عديدة ، فأينما وجّه الشاعر بصره وجد هذا البريق ، وكلّما ذهب إليه هرب بين يديه ، فكأنّ رمال الصحراء كسيت بهذا الثوب الأبيض البرّاق المتموّج .

أمـــا الســـحاب فقد لوّن بالأبيض والأسود، ورسمت صور لكلّ لون منهما ، بينما رسمت صورة منفّرة للسحاب الأحمر .

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 59 _ 60 ، وانظر عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 46

[2] الحبي : السحاب المتراكم . المكلّل : الذي يبدو كالإكليل .

[3] السليط : الدهن أو الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهي الفتيل .

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 107

[5] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 136 ، وانظر ص 57

[6] الأعشى : **ديوانه** . ص 47

[7] الرازقيّ : ثوب أبيض . المعضّد : المخطّط عند العضد .

ومن صوره ما جاء في لوحة المطر عند لبيد بن ربيعة: [1]

أَصاحِ ترى بَريقا هبّ وهنا كمصباح الشَّعيلة في الذُّبال

أَرِقتُ له وأنجد بعد هَدْءٍ وأصحابي على شُعَبِ الرِّحال

يضيء ربابه في المزن حُبْشا قياما بالحراب و بالإلال [2]

كأنّ مصفّحــاتٍ في ذُراه وأنواحـا عليهـنّ المآلي [3]

فَأفرَغ في الرُّباب يقود بُلْقا مُجَوَّفَةً تَذِبُّ عن السِّــخال

والشـاعر فـي هـذه الأبـيات وما يليها يرسم لوحة للبرق والمطر ، وأثرهما على الأرض ، والحيوان ، والناس ، وما يهمّنا هنا هو : كيف وظّف الشاعر الألوان في لوحته ؟

يبدأ الشاعر بذكر البرق الذي بدأ باللمعان كالعادة في قطع من الليل فبدا كضوء المصباح في لمعانه وتبديده للظلام ، وقد أرق الشاعر لمراقبته هذا البرق ، وإذا سلّمنا أنّ البرق هو فسحة الأمـل التي تبدّد هموم الشاعر ، فقد سهر لبيد هنا لهذا الخاطر الذي ملك عليه كيانه . ثمّ راح يصـوّر لـنا المشهد كاملا : فعندما يلمع البرق تظهر السحب السوداء (الهموم) التي تشبه في سوادها وضخامتها الأحباش الذي يظهرون بأسلحتهم .

وفـي هذه الصورة يظهر العامل النفسيّ ، فلو أراد الشاعر إيجاد حالة من التشابه الحسّيّ فحسب لذكر الأحباش دون إضافة ، ولكنّه أضاف استعدادهم للحرب ليزيد في المشهد المرعب ، وهـذا يدلّ على الحالة النفسيّة الأرقة المهمومة التي عاشها الشاعر تلك الليلة . ثمّ ينتقل من هذا المشهد المخيف للأحباش ورماحهم إلى مشهد آخر ، وهو مشهد كئيب يثير الفزع والأشجان معا ألا وهـو مـنظر النساء النائحات بثيابهنّ السوداء ، ومشهد الإبل وقد عزلت عن أبنائها فأخذت بالحنين الموجع .

وبعـد أن نزل المطر ، وأفرغت الغيوم حمولتها خفّ تركيز اللون الأسود ، وبدت الغيوم وكأنّ جوفها أبيض فشبّهها بقطيع من الخيل البلق التي تجمع بين البياض والسواد .

ومـن اللوحات التي تداولها الشعراء كثيرا وصف الليل ، وهي لوحة سوداء قاتمة ، وقد بـالغ الشـعراء في تكثيف السواد فيها ليعبّر عن همومهم وأحزانهم التي لم تكن تقف عند حدٍ ،

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 164 _ 166

[2] الرباب : السحاب المتدليّ . الإلال : الحراب مفردها ألة .

[3] مصفّحات : الإبل التي عزلت عن أبنائها ، أو النساء اللاتي تصفّق . المآلي : الخرق التي تكون مع المرأة وتندب بها .

وكلّما زاد ألم الشاعر زاد سواد الليل الذي يصفه لنا ، وأكثر من الصور التي يرسمها له ، ومما جاء في وصفه قول امرئ القيس :[1]

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه   وأردف أعجازا وناء بكَلْكَل[2]
ألا أيّها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأنّ نجومه   بأمراس كتّان إلى صُمّ جَنْدَل[3]

والشـاعر هـنا يصف الليل الذي يشكو من طوله وثقله على نفسه ، فيشبّهه بموج البحر الذي يضـرب رمـال الشاطئ فيغطّيها ، ويشملها بالمياه ، ثمّ يصوّر شمول الليل بالثوب الذي يحيط بالجسد ، وهو ثوب مسدل لا يترك جزءا من الجسد إلا ويشمله ، وهنا يشعر بثقل الليل فيطالبه بالانجلاء ... وعندما رفض الليل الانصياع له شبّه نجومه بالشيء الذي يربط بحبل ولا يستطيع الإفلات منه ، وجعل الحبل من الكتّان ليزيد في قوّته ، وزاد على ذلك أنّه مربوط بصخرة صلبة كلّ ذلك لشعوره بطول الليل وثقله على نفسه .

أما الأعشى فقد صوّر ليله بالبيت كما في قوله :[4]

وليلٍ يقول القوم في ظُلُماتِه   سَواءٌ بَصيراتُ العيون وعُوْرُها
كأنّ لنا منه بُيوتا حَصينة   مُسُوحٌ أعاليها وساجٌ كُسُورها[5]

فالليل عنده كالبيت الذي أعلاه من الشعر ، وجوانبه من القماش الأسود ، وهي بيوت حصينة لا يستطيع أحد أن يسلبهم إيّاها ، ولذا فالبيت باقٍ بسواده ولن يزول .

ومن اللوحات التي عرضها الشعراء وتبرز فيها الألوان بكثرة لوحة الظعن ، وفيها يبرز اللـون الأحمـر أكثر من سائر الألوان الأخرى ، وكانت هذه الحمرة تشبّه بالدم المراق[6]، أو بالصوف المندوف[7].وقد سبق الحديث عن هذه اللوحة في الفصل الثاني ، كما سيمرّ ذكرها في الفصل الرابع أيضا .

---

[1] امرؤ القيس : ديوانه . ص 48 ـ 49

[2] ناء : بعد . الكلكل : الصدر .

[3] أمراس : جمع مرس وهو الحبل . صمّ : صلب . الجندل : الصخرة وجمعها جنادل .

[4] الأعشى : ديوانه . ص 68

[5] المسوح : مفردها مسح وهو الثوب من الشعر . الساج : الطيلسان الأسود أو الأخضر وهو هنا الأسود . الكسور : الجوانب .

[6] ينظر زهير بن أبي سلمى : ديوانه . ص 101

[7] السابق ، ص 102

ومـــن اللوحات التي لعبت الألوان دورا رئيسا فيها لوحة الخمرة ، ومجالس الشرب ؛ فقد حرص الشعراء على ذكر لون الخمرة ، وكان الأحمر هو اللون المحبّب فيها للتشابه القائم بينه وبين لون الدم _ كما أوضحنا في الفصل الثاني _ ومن هذه الصور قول الأعشى :

وأبيضَ مختلطٍ بالكـــرا م لا يَتَغَطّى لإنفـــاذِهـــا
أتاني يُؤامِرُني في الشَّمُـــو ل ليلا فقلـــتُ له غادهـــا
فقُمْنا ولمّا يَصِحْ ديكُـــنا إلى جَوْنَـــةٍ عند حَدّادهـــا
تنخّلها من بكار القِطاف أُزَيْرِق آمن إكســـادِهـــا
فقلنـــا له : هذه هاتـــها بأدماءَ في حبل مقتادهـــا
....
فقـــامَ فَصَـــبَّ لنا قَهْـــوَةً تُسَكِّنُنـــا بعد إرْعادهـــا
كُمَيْتا تَكَشَّفُ عن حُمْـــرَةٍ إذا صَرَّحَت بعد إزبادهـــا
كحضوْصَلَة الرأل في دَنّهـــا إذا صُوِّبت بعد إقعادهـــا
فجال علينـــا بإبريقـــه مُخَضَّبُ كَفٍّ بِفِرْصادها[1]

ومـــن خـــلال اللوحـــة السابقة يتّضح لنا دور الألوان في وصف هذا المجلس الذي يبدو كـــالطقس الدينيّ في العبادات الوثنيّة ؛ فالنديم الذي يحثّه لشرب الخمرة وارتياد مجلسها أبيض اللـــون من الكرام ، وهذا يدلّ على مكانته بين الناس ، وعلو شأنه مما يجعله يقترب من الآلهة التي تتخذ الخمرة مشروبا مفضلا لها ، والوقت الذي ينتخب للشرب هو آخر الليل ، قبيل صياح ديـــك الصباح ، وهو الوقت الذي تشنّ فيه الغارات ، كما يختاره الشعراء أيضا لإقامة العلاقات الغرامـــيّة فـــي الشـــعر الجاهلـــيّ ، كلّ ذلك ليتمّ في حضرة نجمة الصباح إلهة الحبّ والحرب والجمـــال ، يضاف إلى ذلك تفاؤل الناس بالمولود الذي يستهلّ مع أذان الفجر ، وهذا يعيدنا إلى الصـــلة بين الخمرة والدماء برابط اللون الأحمر ، وهذا ما تمّ عرضه في الفصل الثاني ، ومن هـــنا كـــان اللون الذي اختاره الأعشى للخمرة هو الأحمر . ويرسم الشاعر صورة لهذه الخمرة التـــي ثارت وأزبدت ثمّ انكشف لونها الأحمر المائل إلى الأسود لكثافتها ، ويضيف الشاعر أنّ لـــون الخمـــرة قد انعكس على كفّ الساقي فبدا كالخضاب الذي يزيّن الكفّ ، وهي من الصور الطريفة في الشعر الجاهليّ .

ويضـــيف الشـــاعر في قصيدة أخرى أنه عندما يشرب هذه الخمرة فإنّه يسلبها هذا اللون النفيس ، إذ يشربها حمراء ويبولها بيضاء بقوله :

---

[1] الأعشى : ديوانه . ص 58 _ 59 ، وانظر ص 186

وسَبيئةٍ مما تُعَتِّق بابل   كدم الذبيح سَلَبْتُها جِريالها[1]

فالهدف من شرب الخمرة إذن هو الحصول على لونها الأحمر ، لون الدم والحياة ، وهو السبب الذي تشرب الآلهة الخمرة من أجله . ولذا فهم يعرضون مقابل الحصول عليها المال دون تردّد فيعرضون الناقة البيضاء والعبد الذي يسوقها ، والدنانير الذهبيّة ، وغير ذلك في سبيل الحصول على هذه الخمرة الحمراء اللون كالدماء .

أمّــا وعاء الخمرة فهو عبارة عن جونة سوداء تتدفّق منها الخمرة الحمراء كتدفّق الدماء المصــاحبة للمولــود ، وأمّــا الساقي فهو أزرق اللون ، على الرغم من كره العرب لهذا اللون وتشاؤمهم به ، ولكنّه في هذه اللوحة يعبّر عن اليهود ، والأزرق من الألوان المقدّسة عندهم لأنّه لون الإله (يهوه) في ديانتهم .

ومن اللوحات التي تعتمد على الألوان لوحة الحرب وكلّ ما يتعلّق بها ، فعندما شبّه زهير الحــرب بالناقة العوان المشؤومة _ لصلتها بناقة صالح التي كانت سببا في هلاك القوم ، وناقة البســوس التــي أثــارت الحرب المريرة بين قبائل العرب _ جعل هذه الناقة تدرّ لبنا تغذّي به المفسدين ، ولكنّه لبن أحمر شبيه بلون الدم الذي يسفك في هذه الحرب وجعل نتاجها غلمان شؤم كأحمر عاد عاقر الناقة ، ولم يذكر الشاعر في هذا السياق اسمه واقتصر على صفته لأنّها صفة تدخل في إطار صورة الحرب التي يطغى عليها اللونان الأحمر ولون الغبار القاتم[2] .

والحرب تشبّه بالنار ، وذلك للونها الأحمر مع شدّتها وإتيانها على كلّ ما يصادفها ، وكذا الحــرب لا تــرحم أحــدا ، وتهلك الجميع . وإذا شبّهت الحرب بالسيل كان سيلا مليئا بالرماح والسيوف ، والدماء القانية[3] بدلا من الماء العذب الصافي .

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 150

[2] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 105 _ 106

[3] السابق ، ص 107

كما يكثر في لوحة الحرب ذكر بريق السيوف تحت قتام الغبار[1]، والسبب في ذلك راجع إلـــى محاولـــة الشعراء عزاء النفس في هذا الجوّ الكئيب ، فيعمدون إلى وميض اللون الأبيض كبارقة أمل تأبى أن تفارقهم .

وممن أكثر من ذكر الحرب ولونها الأحمر عنترة ، ولكن صوره تختلف عن صور زهير لاختلاف في موقفهما ، فهو يشبّه حمرة الحرب بلون الحنّاء وغيره من الألوان المحبّبة كما في قوله :

فإذا ما الأرض صارتْ	وردةً مثـلَ الدِّهـانِ
والدِّما تَجـري عليهـا	لونُـها أحمـرُ قـاني
ورأيت الخيـل تهوي	في نواحي الصَّحْصَحاني
فاسـقياني لا بكـأس	من دم كالأُرجـواني[2]

فهو هنا يشبّه حمرتها بحمرة الوردة ، ولون الأديم ، وحمرة الأرجوان وهي أمور محبّبة عند العرب ، ولا يرهب من هذه الصورة بل يشعر بالبهجة والنشوة ، ويطلب شرب المزيد من الدماء بلا كأس لينهل منها ما يشاء حتّى يروي ظمأه . وقد شبّه الدم الذي يعلو الفرسان والقتلى والخيول في مواضع أخرى بالخضاب .[3] وهو أمر محبّب يشيع البهجة ، وليس الهلع والخوف كلوحة زهير السّابقة .

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 140

[2] السابق ، ص 140

[3] السابق ، ص 111 ، 149 ، 47

لـــو أردنـــا استقصاء الصور التي تدخل الألوان في تركيبها لطال بنا المقال كثيرا ، ولذا سأكتفي بما عرض من لوحات وصور ، ولننظر الآن في ميول الشعراء واتجاهاتهم في استخدام الألوان .

وأول ما يطالعنا في ذلك هو ميل الشعراء إلى استخدام أكثر من لون في لوحة واحدة ، فقد لاحظـــنا اجتماع أكثر من لون في لوحة الطبيعة ، واجتماع الأبيض والأسود في لوحة المرأة ، فالعين حوراء ، وبياض البشرة يجتمع مع سواد الشّعر ، وبياض الأسنان يصاحبه سواد اللثة ، كلّ ذلك إلى جانب حمرة الثياب ، وصفرة الطيب ، وألوان الجواهر ، وحمرة الخضاب ، وغير ذلـــك من الألوان التي ترد في لوحة المرأة . وإذا انتقلنا إلى الحيوان فإنّ غرّة الفرس من أسمى آيات الجمال في الخيل ، لما فيها من اجتماع الأبيض مع لون مخالف له ، وتكون الغرّة أوضح كلّما بعدت المسافة بين لون الغرّة الأبيض ولون الخيل . وهذا ينطبق على التحجيل ، والتوشيم ، والبلق ، ولون الحمار الوحشيّ ولهذا السبب كانت الرحال حمراء على الإبل البيضاء في لوحة النابغة التي سبق عرضها في هذا الفصل .

وهذا الجمع بين الألوان يحيل القصيدة إلى لوحة نابضة بالحياة ، فهي لوحة تحكي الطبيعة بمـــا تجمعـــه من الألوان المختلفة وما تمثّله من الخير أو الشّر ، أو الحياة والموت . والشعراء عندما يجمعون بين الألوان فإنّهم ينقلون لنا صورة حيّة عن هذه الطبيعة . يضاف إلى ذلك قدرة الألـــوان علـــى تجسيد انفعالات الشاعر المختلفة من قلق واضطراب وخوف من المجهول ، أو البهجة والأمل وغيرها مما يعتمل في نفس الشاعر من الأحاسيس ، وكلّما تعدّدت الألوان أعطتنا صورة أدق عن الشاعر والخلفيّة التي كتبت فيها القصيدة .

ولـــذا فقد كان الشعراء لا يقتصرون على الجمع بين الألوان بل يقابلون بينها ولاسيّما في لوحـــة الحرب حيث يوضع اللون الأبيض ، رمز السلام والوداعة والطهر ، مقابل الأسود تارة حيـــن تبرق السيوف في ظلمة الغبار ، ومقابل الأحمر تارة أخرى ، وهو لون الموت والبطش. ومما جاء في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

بأنّا نورد الرايات بِيضا   ونُصدِرُهنّ حمرا قد روينا[1]

---

[1] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 152

والـــتقابل واضح بين اللونين ، فهم يخوضون المعارك براياتهم البيضاء دليل السيادة والشرف ، ولكـــنّها في الحرب تصبغ بالأحمر لكثرة بطشهم بأعدائهم والإيقاع بهم . وفي هذا المعنى يقول عنترة في حصانه :

خاض العجاج مُحجّلا حتّى إذا   شهد الوقيعة عاد غيرَ محجّلِ[1]

فقد اختفى بياض قوائمه تحت الدماء ، وكلّ ذلك ليحلّ الموت والقتل مكان الحياة والسلامة .

علـــى أنّ الشـــعراء لم يتساووا في هذا المجال ، بل هناك تفاوت كبير بينهم في استخدام الألـــوان ؛ ففـــي الوقت الذي يعنى عنترة فيه بألوانه ، ويحرص على حشد أكبر زمرة منها في قصائده العديدة ، فيجمع بين بياض اللآلئ والوجه والأسنان والسيوف ، وبين ظلمة الشعر وسواد الخـــيل واللـــيل وسمرة الرماح ، وبينهما العين الحوراء لما فيها من بياض وسواد ، إلى جانب حمـــرة الفم التي تشبه حمرة الخمرة ، وحمرة النار المتوقّدة والشرر المتطاير في الفضاء ، كما يظهـــر فـــي رائيّته " برد نسيم الحجاز في السَّحر "[2] مثلا ، ويدانيه في هذا الاستخدام كل من الأعشـــى وامرئ القيس ، بينما نجد الحارث بن حلّزة يقتصد في ألوانه ، فلا يكاد يبرز الألوان في لوحاته إلا نادرا . ويماثله في هذا الاقتصاد عمرو بن كلثوم وزهير بن أبي سلمى ، وسوف نقف على هذا الأمر في الفصل الرابع عند الحديث عن البعد النفسي للألوان .

ومن الملاحظ أيضا ميل الشعراء إلى تكثيف اللون ، وجعل أحد الألوان هو اللون الرئيس فـــي اللوحة ، وذلك بحشد مجموعة من الدلائل عليه ، والعديد من الأوصاف له ، ومن ذلك ما نجده في قول عبيد بن الأبرص :[3]

أرِقتُ لضوء برق في نَشاصٍ   تَـــلألأ في مُمَـــلأة غصـــاص[4]

لَواقـــحَ دُلّـــحٍ بالـــماء سُحْـــمٍ   تَثُـــجُّ المـــاء من خَلَلِ الخَصاص[5]

سَحـــابٍ ذاتِ أَسْحَمَ مُكفهِـــرّ   تُوَحِّي الأرض قَطْرا ذا افْتِحاص[6]

تألّفَ فاســـتوى طَبَقـــا دِكاكا   مُحِـــيـــلا دون مَثْعَبِـــهِ نَـــواص[7]

---

[1] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 111

[2] السابق ، ص 72 ــ 73

[3] عبيد بن الأبرص : ديوانه . ص 72

[4] نشاص : سحاب . غصاص : امتلأت بالماء .

[5] دلّح : مثقلة . تثجّ : تصبّ . الخصاص : الغيوم .

[6] ذو افتحاص : يقلب التراب ليفحصه ، كناية عن شدّته .

[7] محيل : أتى عليه حول . مثعب : مجرى الماء . النواص : الأعالي .

كليــلٍ مُظْلِم الحَجَــرات داجٍ   بَهيــم أو كبحــر ذي بَــواص[1]

والشاعر هنا يعبّر عن ظلمة الأفق ، فبدأ بذكر تلبّد الغيوم ، مما يحجب ضوء الشمس فيعم الظلام ، ثمّ أضاف أنّ هذه الغيوم سوداء ، فتكون بذلك أكثر كثافة من البيضاء ، وحجبها للضوء أكــثر ، فــالظلام أشمل . وهي فوق ذلك مثقلة بالماء مما يجعل الظلام أشدّ ، ثمّ جعلها طبقات متراكمة ليزيد في إظلامها . ولم يكتف الشاعر بذلك بل راح ينتزع لها صورا من البيئة لتعمّق هــذه الظلمـــة في النفوس وتؤكّدها ، فهي كظلمة الليل ولم يكتفِ بذكر الليل بل أضاف أنّه ليل مظلم ، واستخدم أربع كلمات لتؤكّد هذا الظلام ، وهي : ليل ، ومظلم الحجرات ، وداجٍ ، وبهيم ولا يخفـــى الفـــرق بين إظلام الأفق وإظلام الحجرات . ويأتي بعد ذلك بصورة أخرى بتشبيه الظلام بالبحر ، والبحر مظلم ومع ذلك فقد جعله ذا عمق كبير ليزيد في إظلامه .

ومـــن هـــنا نلاحـــظ أنّ الشاعر يبذل قصارى جهده لترسيخ الألوان ، ويحشد العديد من الصور ليؤكّد هذه الصفة ، وهي في القصيدة السابقة اللون الأسود والظلام .

وممـــا يلاحـــظ أيضـــا أن التشبيهات التي استخدمها الشعراء هي ألوان منتزعة من البيئة المحـيطة ؛ فهـــم يشـــبّهون الأبيض باللبن ، واللجين ، وضوء الشمس ، والبدر ، ونحو ذلك ، ويشـــبّهون الأصـــفر بـــالورس ، والعرار ، أمّا الأسود فهو لون الليل ، والغراب ، والعقاب ، والمســـك ، وحبّ الفلفل ، ونحو ذلك ، بينما يشبّه الأحمر بالدم ، والعندم ، والخضاب ، وحبّ الفنا ، والصوف المصبوغ ، والأرجوان ، وغيرها ، وقد مرّ بنا العديد من هذه التشبيهات خلال عرض الصور واللوحات السابقة .

ونجد أحيانا بعض التشبيهات الحضريّة ، كالتشبيه بالورق ، وسطور الكتاب ، ومن ذلك قول الحارث بن حلّزة في لوحة الأطلال :

لمن الديار عفون بالحبس   آيـــاتها كمهـــارق الفرس[2]

فهـــو يشبّه الأطلال لعفّوها واختفاء معالمها بالصحف البيض المعدّة للكتابة ، إذ لا شيء يظهر فيها ، ومنه قول طرفة بن العبد في الأطلال أيضا :

أَشَجاكَ الرَّبْع أم قِدَمُه   أم رمادٌ دارس حُمَمُه
كسطور الرقّ رقّشه   بالضُّحى مُرَقِّشٌ يَشِمُه[3]

---

[1] داجٍ : مظلم . بواص : بُعد .
[2] الحارث بن حلّزة : ديوانه . ص 81
[3] طرفة بن العبد : ديوانه . ص 71

فهو يصوّر بقايا الرماد والحمم في هذا الطلل بالسطور المكتوبة والمزيّنة حديثا ، لقرب عهده بالناس ، فجعل سواد الحمم كسواد الحبر ، والأرض المقفرة كالصحيفة البيضاء .

ولاختيار الشعراء صورهم من البيئة المحيطة ذهب بعض النقاد إلى أنّ التصوير في الشعر الجاهليّ كان حسّيّا ، يعتمد على الحواس والتجسيد أكثر من اعتماده على وصف المشاعر والأحاسيس ، ولذا جاءت صورهم بدائيّة بسيطة ، خالية من الروح وعمق الفكرة[1]. وقد علّل بعض النقّاد ذلك بأنّ الصور الحسّيّة أقرب إلى ذهن المتلقّي ، ومن ثمّ فهي أبلغ في إيصال الفكرة ، وتعميقها[2].علما أنّ امرأ القيس شبّه نباله بأنياب الغول[3]، وهي حيوان خرافيّ لم يره أحد ، ومع ذلك فقد نجح في إيصال فكرته للناس ، وكذا الأمر عند عنترة [4].

وعزا آخرون ميل الشعراء هذا إلى طبيعة الفنّ ، التي تقتضي مثل هذه التشبيهات ، لجعل الأمور المعنويّة أمورا حسّيّة ، أو العكس ، فكان على الشاعر إذن أن يكسر الحواجز بين المادّة والعقل ، بين العالم الداخليّ والعالم الخارجيّ[5].

على أنّ الشعراء لم يكونوا واقعيّين مجسّدين لمشاعرهم من خلال هذا الواقع ، بل اعتنوا بالجوانب النفسيّة كذلك ، وهذا ما نجده في أشعار عديدة ، منها قول طرفة بن العبد في وصف عيني البقرة :[6]

طحوران عُوّارَ القَذى فتراهما كمكحولتيْ مذعورة أمّ فَرْقَدِ[7]

فالصورة هنا لا تقتصر على سواد العين بل تتجاوزه إلى ما في العين من المشاعر ، فهما كعيني البقرة المذعورة المطفلة مما يزيد في خوفها وحزنها ، وهي صفة معنويّة لا يمكن تجسيدها بالألوان وحدها . ومنها ما ورد في وصف النعامة في قول الحارث مشبّها ناقته بها :[8]

---

(1) ينظر ، د. الرباعي ، عبد القادر : **الصورة الفنيّة في النقد الشعريّ** . ط 11 . الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر 1984 . ص 86 ـ 90 . و د. الجاسم ، أحمد موسى : **عبيد بن الأبرص الأسديّ ، دراسة فنية** . ص 159

(2) د.الشعراويّ ، ناهد أحمد السيّد : **عناصر الإبداع الفنّيّ في شعر عنترة** . مصر : دار المعرفة الجامعيّة . 1996 . ص 267

(3) امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 142

(4) عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص114

(5) د. ناصف ، مصطفى : **الصورة الأدبيّة** . ط2 . بيروت: دار الأندلس . 1981 . ص 27

(6) طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص23

(7) طحوران : تبعدان . عوّار القذى : مرض يصيب العين . الفرقد : ابن البقرة الوحشيّة .

(8) الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 14

بزفوف كأنّها هِقْـلَة أمُــ ـــمُ رِئــالٍ دَوِّيَّــةٌ سَقْفــاء[1]
آنست نبــأة وأفزعها القُــ ـــناص عصرا وقد دنا الإمساء

فلم يقتصر الشاعر على الصفات الجسديّة للنعامة بل أضاف لها صفات معنويّة فجعلها أمّ صغار تحــرص على سلامتهم ، وقد لاحقها القنّاص في وقت المساء ، مما زاد في سرعتها إلى جانب ارتفاعهـــا ، وتأقلمهـــا للعيش في الأرض المترامية الأطراف . فالصفات المعنويّة هنا لا يمكن تجسيدها كغيرها من الصفات الحسّيّة المذكورة في هذه الأبيات مثل الارتفاع .

وفي الصور النفسيّة نجد الشعراء عندما يختارون تشبيها ما فإنّهم يتأثّرون بالجو الانفعالي فيأخذون ما يتّفق مع مشاعرهم وأحاسيسهم ، فهم يلوّنون الواقع بلون أعصابهم ، وإن كان عمق التلوين هذا يختلف من شاعر إلى آخر.[2]

وهذا الأمر يعيدنا إلى دلالات الألوان في الموروث القديم ، وقد مرّ بنا اختلاف عنترة عن زهــير فـــي موقف كلّ منهما من لون الدماء في المعركة ، واختلاف الصور التي اختارها كلّ شاعر لها ، ونلاحظ أيضا اختلاف عنترة نفسه في تصويره للسواد وفق اللحظة الشعوريّة التي يحياها ؛ فبينما يشبّه لونه الأسود بالمسك ، والصدفة التي تخفي الدرّ ، يشبّه سواد الناقة التي تقلّ المـــرأة الـــراحلة فـــي لوحة الظعن بالغراب المشؤوم . وقد وقفنا على قوله في ذلك في الفصل الثاني عند الحديث عن الأسود في وصف الحيوان .

وبينما يُشبَّه سواد النخلة الريّا المثقلة بالثمار بذوائب الشعرالمرسل ،كما في قول عبيد بن الأبرص :

كأنّ أظعانَهم نَخْلٌ مُوسَقة سود ذوائبها بالحمل مكمومه[3]

نجد هذا السواد بعد حريق النخيل يشبّه بثياب النائحات في المآتم ، كما في قول الأعشى :

كأنّ نخيل الشطّ غِبَّ حَرِيقِهِ مآتمُ سُودٌ سَلَّبَت عند مأتم[4]

وعـــندما يوصف الشخص ببعد الناس عنه ، وتحاشيهم صحبته ، يُختار البعير الأسود لا للونه ، إذ السواد في الإبل صفة نجابة ولكن لأنّه مطليّ بالقار لداء معدٍ فيه، فالطلاء بالقار هو السبب

---

[1] زفوف : ناقة سريعة . هقلة : نعامة . الدوّيّة : نسبة إلى الدوّ وهي الأرض البعيدة الأطراف . سقفاء : مرتفعة .

[2] اليوسف ، يوسف : **مقالات في الشعر الجاهليّ** . دمشق : مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي .1975 ، ص 321ـ 325

ـ وينظر د. الجاسم ، أحمد موسى : **عبيد بن الأبرص ، دراسة فنيّة** .لوحة الناقة، ولوحة الطلل، ولوحة البرق والسحاب ، ص 161 ـ 170 ، مع أنّه خالف هذا الرأي ولم يأخذ به .

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 110

[4] الأعشى : **ديوانه** . ص 184

فـــي هجر هذا الشخص وليس السواد الدالّ على النجابة ، وهو المعنى الذي رمى إليه طرفة بن العبد في قوله :

إلى أن تحامتني العشيرة كلّها وأفردت إفراد البعير المُعَبَّدِ[1]

فالصور التي اختارها الشعراء إذن تعبّر عن انفعالاتهم ، ومشاعرهم ، وأهوائهم ، سواء أكانت من البيئة المحيطة أم صورا نفسيّة .

ومن السمات التي تظهر في التصوير الفنّيّ في الشعر الجاهليّ طغيان بعض الألوان على غيرها عند كلّ شاعر ، إذ يُكْثِر عنترة من ذكر اللون الأسود الشبيه بلون بشرته ؛ فمهره أدهم ، وسلاحه من السمر الذوابل ، والغبار يعلو لوحاته غالبا ، ولا يجد أنيسا يبثّه أحزانه إلا الغراب ، والــنوق التي تقلّ الظعن سود ... كما يكثر من ذكر الدم ولونه ، لدرجة تفوق شعراء المعلّقات جميعا . على حين نجد الأعشى يكثر من وصف بياض المرأة ، وحمرة الخمرة ، وهذا ما سنقف عليه عند حديثنا عن البعد النفسيّ للألوان في الشعر الجاهليّ .

ويلاحظ أيضا تكرار بعض الصور كما في لوحة المرأة ، والممدوح ، والبقرة الوحشيّة ، وغـــيرها مـــن الصور حتى تبدو جميع اللوحات كأنّها لوحة واحدة مكرّرة ، وهذا يؤكّد رمزيّة الكثـــير مـــن الصور الفنيّة ، إذ أنّ تكرار الصور يؤكّد رسوخها في وجدان الشاعر ، ولاوعيه الجمعيّ[2]، فالشاعر لا يصف تجربة حقيقيّة مرّت به ، بل يتحدّث عن علاقة إنسانيّة ، وتجربة عاشها الأسلاف ، وتناقلتها الأجيال اللاحقة على شكل أخبار أو أساطير .

ومما يلاحظ أيضا تكامل الصور وإن كانت مكوّنة من عدّة عناصر ، خلافا لما ذهب إليه بعــض النقّاد الذين يرون أنّ الصور كانت _ على الرغم من كثرتها في الشعر الجاهليّ _ غير متكاملة ، فهي لا تكوّن في ذهن القارئ تأثيرا مجسّما موحّدا[3].

وعند استعراض الصور في الشعر الجاهليّ يتّضح لنا تكامل هذه الصور ، فهناك مجموعة من الصور لكلّ لون من الألوان ، تتوزّع في لوحات عديدة ، وإذا لجأ الشاعر إلى صور جزئيّة لتوضيح المعنى فإنّه يبقى ضمن الإطار العام للوحة التي يعرضها .

---

[1] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 25 ، وانظر النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 18

[2] د. الرباعي ، عبد القادر : **الصورة الفنيّة في النقد الشعريّ** . ص 158 _ 159

[3] د. ناصف ، مصطفى : **الصورة الفنيّة** . ص 237

وهـنا يبرز دور الألوان في توحيد هذه الصور وجمعها في إطار واحد ، ولتوضيح ذلك سأقف علـى لاميّة امرئ القيس " ألا عم صباحا أيّها الطلل البالي "[1]وفيها يعرض الشاعر لنا لوحتين رئيستين وهما لوحة المرأة ، ولوحة الصيد . ويعرض لنا لوحة المرأة من خلال حديثه عن أربع مغامرات قام بها الشاعر وتعرّف من خلالها على عدد من النساء بعد أن لاقى الأهوال في الوصول إليهن ، وقد بدت جميع النساء بصورة واحدة ؛ فهي بيضاء اللون ، مشرقة الوجه ، ناصـعة بـياض الأسنان ، سوداء الشعر، حوراء العينين ، ممشوقة القوام ، دقيقة التفاصيل ، ناعمـة البشـرة ، تـرتدي أجمل الثياب وأنفس الحلي . ويظهر في هذه اللوحة عناية الشاعر بـالألوان ، وحرصه على تنوّعها فهو يجمع بين البياض والسواد والحمرة بدرجات عديدة للون الواحد .

يلـي ذلـك لوحة الصيد التي يمهّد لها بوصف الخيل ، ويأتي هذا الوصف في صورتين الأولـى للحصـان الـذي يـبرز بقوائمه العظيمة الصلبة ، وعظام وركيه البارزة لضخامته ، والعروق متشنّجة في فخذيه ، إذا أدبر بدا كولد النعام في سرعته ونشاطه واستدارته .وجميعها صفات تدلّ على شدّة الحصان وتحمّله في المعارك والسفر .والثانية للفرس وهي ضامرة لطول الجـري والسـفر ، لونهـا أحمر مشرب بالسواد ، وهي صفة القوّة والتحمّل في الخيل ، تبدو لضمورها ونحولها مع شدّتها وصلابتها كالهراوة التي تستخدم للغزل والحياكة .

وهـو يركـب فرسـه للصيد ولكنه لا يصطاد كبقيّة الناس ، بل يختار الأرض المخصبة المحميّة من دخول الناس لتكون بذلك أكثر خضرة ، وحيوانها أسمن ، والداخل إليها أبسل وأجرأ من غيره من الفرسان .

والسـؤال الذي يطرح هنا هو لماذا جعل الشاعر الحصان للقتال ، والفرس للصيد ؟ هل هما صورة لشيء واحد بحيث يمكن اعتبارهما لوحة واحدة ؟ ويمكن القول هنا إنّ اختيار الفرس للصـيد أنسـب من اختيار الحصان لما لذلك من صلة بالإلهة (ديانا) أو (عناة) أو (ليليث) سـيّدة الغـاب ، وإلهـة الصـيد التي سبق ذكرها في الفصل الأوّل ، فالأنثى أقدر على الصيد والإيقـاع بالفريسة . يضاف إلى ذلك أنّ الحصان مناسب للحرب بسبب قوّته وجموحه ، بينما الفـرس أصبر وأقدر على التريّث لتحيّن الفرص . وقد يكون ذلك من باب التنويع للدلالة على ثراء الشاعر ، وسموّه لامتلاكه عددا من الخيل الأصيلة ، ونحوها من الأنعام .

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 139 ـ 145

نلاحظ أنّ الشاعر وهو يصوّر هنا يعتمد على الألوان ، فالفرس كميت ، وهي تجمع بذلك بين السواد والحمرة ، والحصان أسود بدليل التشبيه بولد النعام الذي يغلب على ألوانه السواد ، وذلــك للدلالة على قوّتهما وصلابتهما وتحمّلهما السفر والقتال والصيد ، أمّا السحاب فهو أسود للدلالــة علــى ثقله ، وتشبّعه بالماء ، ولنا أن نرسم صورة للأرض الخصيبة بعد موسم أمطار وفير ، فيبدو لونها الأخضر الزاهي الذي يبعث في النفس البهجة والسرور .

ثمّ ينتقل الشاعر إلى وصف الطريدة وهي من الأبقار البيضاء اللون التي يظهر في قوائمها وشوم سوداء كالوشي الذي يحلّي الثوب الأبيض الناعم ، وقد شبّه انقضاض فرسه الكميت على الــبقر الأبيض بانقضاض العقاب على سرب من الأرانب التي يغلب على لونها البياض . وهنا يعيدنا الشاعر إلى التقابل بين اللونين الأبيض والأسود ، ولم يكتف الشاعر بذلك بل حاول رصد ألــوان أخرى من خلال الصور الجزئيّة التي عرضها ؛ فصوّر سلاحه ووصفه بالزرقة للدلالة على حدّته ، ووصف قلوب الطير حول وكر العقاب فشبّه طريّها بالعنّاب لاكتنازه ولونه الأحمر وشبّه الجاف منها بالتمر الرديء لضموره وسواده ، إلى جانب ما في لوحة المرأة من الألوان .

ونلاحظ أنّ اللوحتين جاءتا لتكمل إحداهما الأخرى على الرغم من اختلافهما ، ولو نظرنا إلــى الألــوان الرئيسة في كلّ منهما لأدركنا ما بينهما من ترابط واتّصال ؛ فالشاعر في كليهما طالب والمطلوب أبيض شريف ذو مكانة سامية ، وهو محفوف بالمخاطر لشدّة الحراسة ، وعدم المقــدرة علــى الوصول إليه . أمّا الوسيلة التي يستعين الشاعر بها على طلبه هذا فهي حصانه الأسود أو فرسه المائلة إلى السواد .

ولهــذا فإنّنــي أتبــنّى رأي الدكتور عبده بدويّ الذي يرى أنّ " الصورة عمل مركّب يبدأ بالتشــبيه وينتهي بالقصّة الرمزيّة عند الشعراء الجاهليّين "[1]، وقريب منه ما ورد عند النعيميّ الــذي قال إنّ جميع الحواس تجتمع عند الجاهليّين في الصورة الواحدة ، فنحن نجد فيها الحركة والصــوت ، واللــون ، والشمّ ، والذوق ، وإن كانت الحركة يليها اللون هما أبرز هذه الحواس عندهم[2]. لأنّ الشاعر هنا جعل من العناصر المختلفة للصور أجزاء في لوحة واحدة ، ثمّ جعل هذه اللوحة مع اللوحة الثانية سببا في النتيجة التي وصل إليها ، فالقصيدة على ما فيها من تعدّد وتصوير وحدة واحدة متكاملة .

---

(1) د. بدوي،عبده : **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربيّ** .الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب . 1973 ، ص 302

(2) د. النعيميّ ، أحمد إسماعيل : **الأسطورة في الشعر العربيّ قبل الإسلام** . ص 300 _ 307

والســؤال الذي يطرح هنا هو ما دامت هذه القصائد تحتوي على لوحات موحّدة من عدّة عناصر ، فكيف يربط الشاعر بين هذه الأشتات ويجمعها في لوحة واحدة ؟ وما هي الطرق التي يعتمدها في رسم هذه الصور العديدة ؟

ويمكن القول إنّ للشعراء طرائق عديدة في ذلك ، فهم يعتمدون على السرد القصصيّ في ربــط أجزاء الصور ، حتّى نشعر ونحن نقرأ في تلك القصائد أنّنا أمام راوٍ يسرد لنا حكاية أو حادثة مرّت به ، كما في القصيدة السابقة لامرئ القيس .

أو يعتمدون على التشبيه والاستطراد في سردهم ؛ فكلّ مغامرة يرويها لنا الشاعر تذكّره بمغامــرة شبيهة ، وهو يأخذ بوصف أبطال القصّة الجديدة ، وما يجدّ فيها من أحداث ومواقف تساعده على إيضاح أفكاره بصورة أجلى.

وكان للألوان دور بارز في توحيد هذه الصور ، وإيجاد الروابط فيما بينها ، كما أوضحنا فــي تحلــيل القصــيدة الســابقة ، فكانت الألوان فيها عنصرا هامّا في الوصف ، والتماثل بين المغامرتين .

ولما كانت الألوان جزءا من العناصر العديدة للصورة الفنيّة فقد كان هناك تأثّر وتأثير لها في هذه العناصر ، ولعل العلاقة بين اللون والصوت تبدو خافتة لأنّ اللون يدرك بحاسّة البصر بينما يدرك الصوت بحاسة السمع ، وهما حاسّتان مختلفتان لا تغني إحداهما عن الأخرى ، ولا يمكــن أن تحــلّ مكانها . أمّا الحركة فهي تتضافر مع كليهما بشكل تلقائيّ لأنّها تدرك بالسمع والبصــر معــا ، وعليه فقد كان للحركة أثر واضح في عنصر اللون ، بل هناك من الألوان ما يعــتمد علــى الحركة بدرجة كبيرة كلمعان البرق والسراب ، وضوء النجوم الهاوية ، وحمرة الشرر المتطاير . ومن ذلك مثلا ما نجده في قول امرئ القيس :

أصاحِ ترى برقا أريك وميضَه كلمع اليديــن في حَبِــيٍّ مُكَلَّلِ[1]

وفيه يشبّه لمعان البرق بحركة اليدين المتقلّبة للدعاء ، جامعا في ذلك بين البياض والحركة في صورة فريدة ما كانت لتقوم لولا عنصر الحركة في اليدين .ومن ذلك أيضا قول النابغة :

تمشي بهم أُدْمٌ كأنّ رِحالَها عَلَقٌ هُريقَ على مُتون صُوارِ[2]

وفــيه يجمع بين اللون الأحمر والحركة حتى ظهر الأحمر كالدم المراق . وفي لمعان السراب يقول الأعشى :

---

(1) امرؤ القيس : ديوانه . ص 59

(2) النابغة الذبيانيّ : ديوانه . ص 60

وبَيْداءَ تِيْهٍ يَلعبُ الآلُ فوقَها إذا ما جرى كالرّازقيّ المُعَضَّدِ[1]

وهنا يظهر لمعان السراب المتموّج الذي لا يكاد يستقر البصر عليه حتّى ينتقل من مكانه . وهذه الحركة تبدو أكثر أثرا في الصورة في قول عنترة :

والغول بين يديّ يخفى تارة ويعود يظهر مثل ضوء المشعل[2]

فقد أسهمت الحركة المتمثّلة بالتناوب بين الخفاء والتجلّي لألوان الغول في بثّ جوّ من الرعب والترقّب المليء بالوجل والريبة .

أما الوسائل التي يستعين الشاعر بها على التصوير فهي التشبيه بأنواعه المختلفة ، والاستعارة ، والكناية ونحوها من أنوع البيان ، وهي الأساس الذي تعتمد عليه الصور الفنيّة في المفهوم النقديّ القديم ، وقد جاءت الألوان لتخدم هذه الأغراض في الكثير من الصور، ومن أمثلة ذلك ما نجده في قول امرئ القيس :

كأنّ قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي[3]

فقد شبّه الشاعر القلوب الجافّة بالتمر الرديء ، والقلوب الطريّة بالعنّاب ، وهما من التشبيه المفرد ، وفيهما يظهر أثر اللون في الصورة الفنيّة . ومنه قول طرفة : [4]

عالَيـن رَقْما فاخرا لونُـه من عَبْقَرِيٍّ كَنَجيـعِ الذّبيـح[5]

فقد شبّه حمرة الهوادج التي أقلّت الظعن بدم الذبيح ، وهو من التشبيه المفرد كذلك ، ومما جاء في التشبيه التمثيلي ما مرّ بنا من قول النابغة الذبيانيّ:

تَرائبَ يستضيء الحلْي فيها كجمر النار بُذّر في الظلام[6]

وهو يشبّه صورة الحلي الحمراء على صدر المرأة الأسمر بصورة جمر النار المنثور في الظلام . ومن الأمثلة على التشبيه الضمنيّ قول عنترة العبسيّ :

---

(1) الأعشى : **ديوانه** . ص 47

(2) عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 114

(3) امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 145

(4) طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص16

(5) عالين : ارتفعن . الرقم : نوع من القماش المخطّط . العبقريّ : الجيّد الصنع . النجيع : الدم المتخثّر .

(6) النابغة الذبياني : **ديوانه** . ص 111

وإن يعيبوا سوادا قد كُسيت به   فالدّرّ يســتره ثوب من الصدف[1]

وفيه يشبّه حال الشاعر الأسود البشرة على الرغم من كرم أصله وشرف أخلاقه بحال الدّرّ الذي تغطّيه صدفة سوداء لا قيمة لها على الرغم من قيمته وحسنه .

ومــن الطــرق التي اتبعها الشعراء للتصوير الكناية ، وقد أكثر الشعراء في كناياتهم من ذكــر الألــوان لارتباط هذه الألوان بدلالات خاصّة في ذهن الناس ، ومن الكنايات التي تدخل الألوان فيها قول عمرو بن كلثوم :

بأنّا نوردُ الرّاياتِ بِيْضا   ونُصدرُهن حُمْرا قد رُوينا[2]

وجملــة نورد الرايات بيضا فيها كناية عن الشرف والسلام ، بينما نجد في حمرة الرايات كناية عن الفتك بالأعداء وشدّة القتال . ومنها أيضا قول الأعشى :

بيضــاء ضَحْوتها وصفـــ   ـــراء العَشِــيّة كالعَــرارة[3]

فجملة صفراء العشيّة كناية عن المسّ بالطيب ، وجميعها كنايات عن صفات . ومنها قول عنترة العبسيّ :

وما راعني يوم الطِّعان زُهوقُه   إلَيَّ بِمَن بالزّعْفَران تَضرَّجوا[4]

فقوله " من بالزعفران تضرّجوا " كناية عن العجم لحمرة في شعرهم ، وهي كناية عن موصوف وقــد فتــن النقّاد قديما بهذه الكنايات التي تدخل الألوان فيها فميّزوها عن غيرها من الكنايات ، وأطلقوا عليها التدبيج لما فيها من حسن وزخرفة .

ومــن عناصر البيان التي أسهمت فيها الألوان بكثرة نجد الاستعارة بنوعيها ، تصريحيّة ومكنيّة ، ومن الاستعارات التي اعتمدت على الألوان نجد قول امرئ القيس : " وبيضةِ خدرٍ لا يــرام خــباؤها "[5] فقد شبّه المرأة بالبيضة المكنونة ، ثمّ حذف المشبّه وصرّح بالمشبّه به على سبيل الاستعارة التصريحيّة ، ومثله قول عنترة :

وبدرٍ قد تركناه طريحا   كأنّ عليه حلّة أرجوان[6]

فقــد شبّه الفارس الصريع بالبدر على سبيل الاستعارة التصريحيّة . ومن الاستعارة المكنيّة نجد قول عنترة :

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 88

[2] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 68

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص 75

[4] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 30

[5] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 38

[6] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 149

ذنبي لعبلة ذنب غير مغتــفر　　لمّا تبلّج صبح الشيب في شعري[1]

وفيه يشبّه الشيب بنور النهار الذي يظهر بعد ليلة سوداء .

وهكــذا نــرى أنّ للألــوان أثرا بالغا في التصوير الفنّي في الشعر الجاهليّ ، فهي إحدى العناصــر الرئيسة في الصور الفنيّة التي تعتمد على البصر أكثر من غيره من الحواس ، وكان لها دور في تقريب الصور البعيدة كما في صورة الغول وأنيابه الزرقاء ، ولها الفضل في توحيد الصور وتكاملها في رسم لوحة واحدة ، وهو الأمر الذي نفاه بعض الباحثين كما أوضحنا خلال هذا الفصل .

---

(1) عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 68

الفصل الرابع

أبعاد اللون ودلالاته في الشعر الجاهليّ

يتناول هذا الفصل تحليل أبعاد الألوان في القصيدة الجاهليّة ، وتوضيح دلالاتها في السياق الذي وردت فيه ، وذلك من خلال تحديد الأبعاد أوّلا ، ثمّ توضيح الدلالات الخاصّة بها .

ولمّـــا كان المعتقد الدينيّ والأسطورة هما المعين الذي يرد إليه الشعر الجاهليّ ، ويصدر عـــنه _ باعتبارهما المؤثّر الأوّل في عقليّة الشاعر الجاهليّ ولاوعيه الجمعيّ _ لذا فإنّني سوف أعالج البعد الدينيّ والأسطوريّ أوّلا ، متتبّعة الرموز اللونيّة التي تعود في جذورها إلى الدين أو الأسطورة ، مع توضيح دلالتها وصلتها بهذا المعتقد .

يلـــي ذلـــك الحديـــث عن البعد النفسيّ ، ولا يقصد بذلك اتباع المنهج النفسي الحديث في دراســـة الأدب ، وإنّمـــا بيان موقف الشعراء من الألوان لمعرفة مدى تعاملهم معها ، وتأثّرهم بـــالموروث اللونيّ الجاهليّ في هذا المجال ، والأثر الذي تتركه نفسيّة الشاعر على صوره أو الألـــوان التي يدخلها في لوحاته ، ومن ثمّ محاولة التحليل النفسيّ للشعراء من خلال استعراض مجموعـــة الألوان التي يستخدمها كلّ منهم ، لمعرفة الصفة العامّة لكلّ من شعراء المعلّقات تبعا لذلك .

وأخـــيرا يأتـــي البعد الاجتماعيّ لبيان الدلالات الاجتماعيّة للألوان في هذا العصر ، وأثر ذلك في اختيار بعض الألوان أو تفضيلها على غيرها في بعض المواطن ،وكذلك لمعرفة بعض القيم الاجتماعيّة السائدة فيه .

أوّلا : البعد الدينيّ والأسطوريّ

يــدلّ استقراء الشعر الجاهليّ على وجود العديد من الرموز الدينيّة والمعتقدات الأسطوريّة علـــى شكل رواسب مبثوثة هنا وهناك في الشعر الجاهليّ ، وإن لم نحصل على قصيدة تحوي أسطورة كاملة ، أو ملحمة على نحو ما وجد في الأدب الإغريقيّ أو الفارسيّ . ولعلّ السبب في ذلـك عـائد إلـى بعد الفترة الزمنيّة بين الشعر الذي وصلنا من العصر الجاهليّ والزمن الذي شـاعت فـيه تلـك الأساطير بحيث أصبحت هذه الأساطير مسلّمات أو أمورا تلقائيّة تدخل في تلافـيف الكلام ، فتفهم من الجميع دون أن يكون الإنسان بحاجة إلى سردها كاملة ، أو التدليل علـى صحّتها ، وهذا شبيه بما نجده في الأمثال ؛ إذ تحدث قصّة المثل فيتمّ تداولها ، ثمّ تحفظ منها عبارة المثل دون القصّة التي قيلت فيها ، وقد يصبح اسم الشخص الذي يرد في القصّة ، أو كلمة واحدة منها رمزا للتعبير عنها كاملة، فيستخدمه الناس دون معرفة القصّة التي انبثق عنها. وهذا ما حدث مع الأساطير التي شاعت واعتقد بها الناس ثمّ تلاشت وبقي منها القليل الذي " لم نكن لننجح في تحليله والوقوف على منابعه لولا الاستعانة بالأساطير الشرقيّة في بلاد الرافدين ، وبـلاد الشـام ، واليونان ، والهند "[1] ، وما نجده من معتقدات وممارسات شبيهة لدى الشعوب البدائيّة ، التي ما زالت تعتقد بهذه الأساطير .

والألـوان كغيرها من العناصر تكشف لنا جوانب مختلفة من هذه الأساطير ، كما أنّ هذه الأسـاطير تساعد على تفسير تكرار بعض الألوان دون غيرها في الموطن المخصّص . ومما يطالعـنا فـي هـذا المجـال اختيار اللون الأبيض للمرأة والرجل والحمرة في الثياب والقباب والهـوادج ، والاخضرار في النّعيم والإطراء ، والأصفر في زينة النّساء ، وذكر النار والبرق والتشبيه بالشمس والبدر ، وشرب الخمرة الحمراء كلون الدم .

فلمـاذا كانـت المرأة الراحلة والمعشوقة في الشعر الجاهلي دائماً بيضاء ؟ لست أوّل من يطـرح السـؤال ولا آخـر مـن يجيب عليه ، وقد وقفنا في الفصل الثاني على هذه القضية ، ولاحظـنا حـيرة الباحثيـن فيها لدرجة أن يرى الباحث عبد الله الطيّب أنّ المرأة في القصيدة العربـية لـم تكـن عربـية ، وإنما كانت من بغايا العجم . وهناك من اعتبرها رمزا تاريخيا اجتماعيا.[2]

---

[1] د.عشري ، زايد علي : **استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر** . ط1 الشركة العامة للنشر والتوزيع. ص 223 ــ 227

[2] الدرابسة،عاطف أحمد علي: **شعر عبيد بن الأبرص** .رسالة جامعية مخطوطة.جامعة اليرموك.1988 .ص76_83

وقـد أرجـع العديد من الباحثين الذين يعتمدون هذا المنهج في دراستهم بياض المرأة إلى بـياض الزهـرة ، وبياض الشمس ، وبياض الدمى وجميعها مما عبد العرب في السابق ، وقد حيكت حولها الأساطير كما في قصّة الزهرة الشهيرة.[1]

أمّا الدمى فهي عبارة عن تماثيل جيرية كان العرب يقدّمون لها الضحايا ، ويريقون عليها الدّمـاء ومـن هنا جاء اسمها دمى . وإذا كان الأمر كذلك فإنّ تشبيه المرأة بهذه الدمى المقدّسة دليل قداسة للمرأة التي ذكرت في الشعر[2]. ومما جاء في تشبيه المرأة بالدمى قول الأعشى :

وقد أراها وَسْطَ أترابها ... في الحيّ ذي البهجة والسامر

كدميةٍ صُـوِّرَ مِحْرابُـها ... بِمُذْهَـبٍ في مَرْمَرٍ مائـرِ[3]

فهـذه المـرأة تـبدو بيضاء متألّقة وسط جمع من النساء والحسناوات في حيّ بهيج يؤمّه السـمار ، ولـذا فقـد شبهها بالدمية التي يحيط بها المتعبّدون . وهذا يدل على قداسة المرأة ، فبياضـها يـدل على شرف نسبها لما تقدّم من كرم هذا اللّون وتخصيصه بالعبادة والأضاحي ، والنّساء تحيط بها وتعمل على خدمتها كفتيات المعابد اللائي يهبن أنفسهن لهذه المعابد وخدمتها ، ثـم الناس يحيطون بها كالحجيج الذين يؤمّون المكان المقدّس وهم في بهجة وسرور . وأخيراً فهـي تبدو كهذه الدمية التي نصبت بمحراب شيد من الذهب والمرمر المتموج لنفاستها ومكانتها الدينـية . وهذا عنترة يرسم صورة شبيهة للمرأة حيث يصورها بالدمية ويصف عفتها وتمنّعها على طالبيها فيقول:[4]

لمن الشـموس عزيزةَ الأحـداج ... يَطْلُعْن بيـن الوشـي والديبـاج[5]

من كل فائقـة الجمـال كدميـةٍ ... من لؤلؤ قد صُـوّرت في عـاجِ

....

أبصـرتُ ثم هويت ثمّ كتمت ما ... ألقى ولم يعلـم بذاك منـاجـي

فوصلتُ ثمّ قدرتُ ثمّ عففتُ من ... شـرفٍ تناهى بي إلى الإنضاج

---

[1] ينظر د. الديك ، إحسان : *صدى عشتار في الشعر* . ص 160 _ 163 ، 152 ــ 154 . ود. عبد الرحمن ، نصرت **الصورة الفنيّة في الشعر الجاهلي** . ص107 _ 121 .

[2] د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي** . ص 107

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص92

[4] عنترة : **ديوانه** . ص 31 ــ 32

[5] الأحداج : جمع حدج وهو مركب للنّساء ، وعزيزة الأحداج : كريمة ممنّعه

فهو هنا يصف النساء بكرم الأصل ، والمنعة ، والجمال ، حتى بدت الواحدة منهن كهذه الدمية التـي شيّدت من اللؤلؤ والعاج ، وهن يحطن بالمرأة التي حظيت باهتمامه ، ذات الشعر الأسود الـذي يختلط بسواد الليل . وقد رحل هذا الموكب مصحوباً بحراسة شديدة إلاّ أنّ الشاعر تمكن مـن الوصول إلى تلك المرأة ، فحظي برؤيتها ، وتمتّع بسحرها وجمالها ، فعشقها . إلا أنّه كتم ما يلقاه من الحبّ والهوى ، وامتنع عن قضاء وطره منها ، لأنّ شرفه أبى عليه ذلك ، فعاد دون أن يلحق بها الأذى ، أو يفضحها في قومها وبين أترابها .

ونحـن نلاحظ في هذه الصورة بعض الرموز الأسطوريّة ؛ فالمرأة بيضاء اللون ، فائقة الجمـال ، هـيفاء القدّ حتّى بدت كالدمية التي شيدت بعناية ورويّة ، وهي تسافر بكامل زينتها وحلـيها ، ممـا يذكّرنا برحيل عشتار أو نزولها إلى العالم الأسفل[1]، والنساء الحسناوات يقمن علـى خدمتها والترفيه عنها ، والرجال يحفّون بالموكب للحراسة والحماية، والشاعر ينجح في الوصول إليها ولكنها لا تدافع عن نفسها ، ولا تبادر إلى وصاله أو الترحيب به ، بل إن الشاعر يهمل الحديث عن تجاوب هذه المرأة معه ، حتى استوت في تجربته بالصنم الأصم الأبكم ، فإذا بـه يعفّ عنها ، ويثبت استقامته ونزاهته ، كلّ ذلك يثبت قداسة هذه المرأة وقربها من الأوثان التي عبدها العرب قبل مجيء الإسلام .

ولا يقتصر تشبيه المرأة لبياضها بالدمية بل نجد الشعراء يشبّهونها بالشمس وهي من أبرز معبودات العرب قبل الإسلام ، ومما جاء في ذلك قول النابغة :

بَيضاءُ كالشَّمسِ وافَتْ يومَ أَسْعَدِها   لم تُؤْذِ أهْلا ولم تُفْحِش على جارِ[2]

والشـاعر هنا يصف المرأة بالبياض والإشراق ، فهي لإشراقها هذا تبدو كالشمس عند شروقها في الصيف حيث لا ضباب ولا سحاب يحجب ضوءها .

وتشـبيه المرأة بالشمس يدلّ على قداستها لأنّ الشمس تحظى عندهم بهذه القداسة ، ومن الأدلّة على عبادة الشمس ، وتأنيثها قول الأعشى :

فتىً لو ينادي الشمس ألقت قِناعها   أو القمر الساري لألقى المقَالدا[3]

والأعشـى فـي هذا البيت يذكر الشمس ، ويتحدّث عنها كالمرأة، ويصفها بذات القناع ، وهي صفة مأثورة للربّات والمعبودات ، " تُحْجَب عن البشر ولا تُكشف إلاّ لمن تكون له مكانة

---

[1] السواح ، فراس : **لغز عشتار** . ص 67 ــ 69

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 49 ــ 50

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص 44

خاصّة ".[1]وإذا كانت الشمس من آلهة العرب " فكيف يجرؤ الشاعر على تشبيه المرأة بها لولا قداسة المرأة التي ذكرت في الشعر وتميّزها عن غيرها من النساء ؟ "[2]

ومما يذكر في هذا المجال تشبيه المرأة بالغزال والظبي ، والغزالة من أسماء الشمس عند العــرب ، وهي إحدى رموزها في الأرض ، فتشبيه المرأة بالغزال من باب التشبيه بالشمس.[3] ومـمــا جاء في ذلك تشبيه امرئ القيس للنساء بغزلان الرمل[4]، ولم يكتفِ الشاعر فيها بتشبيه النســاء بالغــزلان بــل جعلها غزلان خاصّة تحفظ في محاريب الأقيال والملوك مما يزيد في قداستها ومكانتها السامية .

وقريـــب مــن ذلـــك تشبيه المرأة بالمصباح والضوء والنور والنجم والقمر ، فالقمر من معــبودات العرب كالشمس أمّا الضوء والمصباح والنور والإشراق فهي صفات تابعة للشمس لنورها وتوهّجها ، فهي صفات مقدّسة يأتي بها الشاعر للدلالة على المكانة الخاصة التي تحظى بها هذه المرأة . ومما جاء في ذلك قول النابغة :[5]

أقول والنَّجــمُ قد مالت أواخــره   إلى المَغيبِ : تَثَبَّــتْ نَظْرَةً حارِ
أَلَمْحَةٌ من سنا برقٍ رأى بصري   أم وجه نُعْمٍ بدا لي أم ســنا نارِ؟
بل وجه نُعمٍ بدا والليل معتكــرٌ   فلاح من بين أثوابٍ وأســتارِ[6]

وهي أبيات من القصيدة السابقة التي شبّه وجه " نُعم " فيها بالشمس ، وهاهو يحتار في الشمس التي تظهر في الليل ، أتراه رأى ضوء البرق ، أم ضوء مشعل نار ؟ والنور الذي يريده الشاعر هنا هو نور الإشراق والقداسة التي تحظى بهما نعم هذه .لأنّ وجها يلوح في الظلام بهذا البريق فيبدّد ظلام الليل لا يمكن أن يكون آدميّا ، بل يجب أن يكون شيئا متميّزا ليتقبّل الناس هذه الفكرة ويستحسنوها دون أدنى اعتراض على النحو الذي قبلت به هذه القصيدة .

و" نُعم " في هذه الأبيات قد تكون رمزا من رموز الزهرة ، فالنور الذي ينبعث منه شبيه بنور الشمس الذي لا يعلو عليه نور في هذا الكون ، ولونه المائل إلى الأحمر شبيه بلون النار ، والزهــرة _ كمـــا جـــاء فـــي الأسطورة _ امرأة فائقة الحسن والجمال أغوت الملكين هاروت

---

[1] د. أبو سويلم ، أنور : **دراسات في الشعر الجاهليّ** . ص 110

[2] د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنّيّة في الشعر الجاهلي** . ص 109

[3] السابق ، ص 110 _ 115 ، 121

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 124

[5] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 50

[6] معتكر : مظلم . لاح : ظهرَ .

ومـــاروت فأصـــبحت رمزا للجنس والعشق ، ومن ثمّ إلهة الحبّ والجمال[1] ومما يلاحظ على صـــور المـــرأة في الشعر الجاهليّ أنّها جميعا تشبه الوصف الذي يرد في قصّة الزهرة ، ولعلّ أبرز هذه الصفات هو البياض المشرق المنير ، فالزهرة ، عند ابن منظور ، مؤنّث الأزهر وهو الحسن الأبيض من الرجال المشرق الوجه .[2]

ومـــن الإشارات اللونيّة الدالة على قداسة المرأة التي ذكرها الشعراء في باب الغزل ذكر النار ، ونسبتها إلى المرأة ومن ذلك ما نجده في قول عنترة :[3]

هذه نـــار عبلـــةٍ يـــا نديمـــي   قد جلت ظلمـــة الظّلام البهيـــم
تتلظّـــى ومثلـــها في فـــؤادي   نار شـــوقٍ تزداد بالتّضـــريـــم
أضـــرَمَتْها بيضاءُ تَهتَزّ كالغُصـــ   ـــن إذا ما انثنـــى بِمَرِّ النّســـيم
....
سرق البدر حسنها واســـتعارت   سِحْرُ أجفانـــها ظبـــاء الصّريم[4]

فعـــبلة تشـــعل النار ليهتدي بها الطرّاق ليلا كما يفعل الكاهن في المحراب ، وهو يؤكّد أنّ هذه الـــنار هي نار خاصّة بها أشعلت من أجلها ليقرن بينها وبين الآلهة التي تنصب في المحاريب ، وتشعَل النيران لإرضائها . ثمّ يذكر لنا صفات عبلة ويؤكّد على البياض ليثبت لنا أنّها كريمة من أشـــراف العرب .وبعد جملة من الصفات التي تدلّ على جمالها ورشاقتها يشبّهها بالبدر تارة ، وبالظباء تارة أخرى ، ولكنّها ليست كهذا البدر أو تلك الظباء التي نراها كلّ حين بل هي أسمى وأرفع مكانة منهما ؛ فما حسن البدر إلاّ قليل سرقه من بعض حسنها ، وما جمال عيون الظباء وسحرها إلاّ ما استعارته من فضل سحر عيونها .ويقول في موضع آخر:

وكشـــفتْ بُرقُعَها فأشرق وجهها   حتّى أعادالليل صُبْحا مُسْـــفرا
عربيّـــة يَهتَـــزّ لِيْنُ قـــوامِهـــا   فيخالـــه العُشّـــاق رُمْحا أسمرا
محجوبـــةٌ بصَـــوارمٍ و ذوابـــل   سُمْرٌ ودون خِبائها أُسْد الشّرى[5]

وهو يتحدّث هنا عن طيف عبلة الذي ألمّ به ، ويظهر هنا أنّ الشاعر لم يرَ عبلة حقيقة بل تخيّلها بهذه الصورة من الإشراق والنور ، وإذا كان الحلم يحقّق للإنسان ما يعجز عنه في الواقع فعنترة

---

[1] د. نبوي ، عبد العزيز : **المرأة في شعر الأعشى** ، دراسة تحليلية . مصر : دار الصدر . 1987 .ص 98

[2] ابن منظور : **لسان العرب** . (زهر)

[3] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 132 ــ 133

[4] الصريم : القطعة من الرمل .

[5] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 74

هـــنا يـــنجح في كشف برقع عبلة الذي عجز عنه حقيقة ، فبدا له بياضها المنير على الرغم من سمرة العرب الشهيرة .

وهـــذه الصـــورة تؤكّد كغيرها قدسيّة المرأة المعشوقة في الشعر الجاهليّ لارتدائها البرقع الذي يحجب الآلهة عن البشر أوّلا ، ولوصفها بالنور والإشراق ، فهي كالشمس التي تبدّد الظلام عند ظهورها ، وهي محاطة بالحرّاس الذين يمنعون من أراد الوصول إليها .

ويقول في موضعٍ آخر مصرّحا بالعلاقة بين المرأة وكلٍ من الشمس والبدر:

أشارت إليها الشمس عند غروبها　　تقول إذا اســودّ الدجى فاطلعي بعدي
وقال لها البدر المنـــير ألا أسفري　　فإنّك مثلي في الكمـــال وفي الســـعد[1]

فهي مكافئة للشمس في نورها وقادرة على الحلول مكانها ، مع إقرار الشمس بذلك ، وكذا القمر الذي يطلب منها السفور ومجاورته للتشابه القائم بينهما . ثمّ يوحّد بين المرأة والشمس في قصيدة أخرى فيقول:

كم ليلة عانقــت فيـــها غـــادةً　　يحيـــا بها عند المنـــام ضَجيعُـــها
شمسٌ إذا طلعتْ سَجَدَتْ جلالة　　لجمالها وجلا الظلامَ طلوعُـــها[2]

والشاعر في هذين البيتين يشير إلى القدسيّة والعبادة ، فهذه المرأة تمنح عاشقها الحياة إذا ما بات إلى جوارها وهو السبب الذي تقام الشعائر الجنسيّة في المعابد من أجله ، كما مرّ سابقا ، ثمّ يطلق عليها اسم الشمس ليس من باب المشابهة فحسب بل لأنّ هذه المرأة رمز من رموز الشمس المعبودة ، وهي النتيجة التي خلصنا إليها في هذا الفصل .

أمّا طرفة فيكتفي بتشبيه وجه المرأة بالمصباح ، و في ذلك يقول :

ومن عامر بِيْض كأنّ وجوهها　　مصابيحُ لاحَتْ في دُجىً مُتَحالِك[3]

---

[1] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 58

[2] السابق ، ص 82

[3] طرفة بن العبد : ديوانه . ص 60

فهـــنّ بـــيض يشبه بياض وجوههن ضوء المصباح الذي يشعل في ليل شديد السواد مما يجعل ضوءه أسطع ، ونوره أبين من نور المصباح الذي يشعل في النهار أو الليلة المقمرة ، وهذا يدلّ علـــى شدّة بياض النساء ، وإشراق وجوههن . ويذكر الحارث نار هند الساطعة التي لا تُطفأ ، ولا تخفى على متنوّر فيقول :[1]

وبعينـــيك أوقدت هندٌ الـــنا ... رَ أخيرا تُلـــوي بها العليـــاءُ[2]

فتَنَـــوّرْتُ نارَهـــا من بعيـــدٍ ... بخَزازى هيهات منك الصِّلاءُ

أوقَدَتْها بين العَقيقِ فَشَخْصَيْـــ ... ـــنِ بعُودٍ كما يَلوح الضِّياءُ[3]

فقد أوقدت هند نارها في ذلك المكان المرتفع ، فتابع الشاعر نورها ببصره وإن كانت بعيدة جدّا لا يشعر بحرارتها ، وقد أضاءت هذه النار الأرض المحيطة بها لشدّة سطوعها ودوامها ، وهذا يدلّ على قداسة النار ومن ثمّ قداسة هند التي أشعلت النار وحافظت عليها .

وممـــا يؤكّـــد الصلة بين المرأة المذكورة في الشعر الجاهليّ والأوثان التي عبدها العرب لاســـيّما الشـــمس ما يرد في لوحة الظعن التي يجعل الشعراء منها سببا لوصف المرأة ، وذكر مفاتـــنها وأيّام وصلها . ومما يلاحظ على هذه اللوحة أنّ المرأة غالبا ما ترحل في هودج أحمر اللـــون كالدم المراق ، وتكون بكامل زينتها مما يخالف العرف القبليّ السائد في ذلك العصر إذ يقتضي الرحيل وجوب الحاجة إلى الماء والكلأ ، وتكبّد عناء السفر ، وعليه فلا مجال لمثل هذه الزيـــنة ثمّ إنّ الأحمر في الثياب كان قليلا ، ولا يصل إلاّ لأيدي الأثرياء والسادة ، فلماذا تظهر المرأة الراحلة دائما بكامل زينتها ؟ وأنّى لهم هذه الأقمشة الحمراء التي تظهر الهوادج والرحال دائما بها ؟

لقـــد وقـــف الدارســـون كثـــيرا علـــى هذه الظاهرة ، وأوجدوا لها العديد من التفسيرات والـــتأويلات المنطقيّة ، فهناك من عدّ الحمرة في هذه اللوحة دليل سعادة وسرور ، لأنّ الأحمر في الثياب لون يثير البهجة والسرور في النفس ، ويبعث فيها المرح والتفاؤل[4] ، وهناك مرأى في ذلك رمزا أسطوريّا ، ففسّر الحمرة بلون الشمس عند الشروق لما لشروق الشمس من البهجة والفـــرح في النفس لاعتباره بداية يوم جديد ، وحياة جديدة بعد سبات ليل طويل مليء بالأحزان والهمـــوم[5] ، وهناك من رأى فيه صورة للشمس عند الغروب ، لأنّ الشمس هي رمز الخصب

---

[1] الحارث بن حلّزة : ديوانه . ص 14

[2] بعينيك : على مرأى منك . تلوي : ترفع للإشارة .

[3] العقيق وشخصين وخزازى : أسماء مواضع .

[4] د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي** . ص 163 ــ 165

[5] زكي ، أحمد كمال : **الأساطير** . ص 84

عــند الإنسان ، ورحيلها يؤدّي إلى خراب الديار على نحو ما نجد في لوحة الأطلال التي تبقى شاهدة على المأساة التي تحلّ بالديار عند رحيل المرأة عنها[1] ، وقد كثرت الآراء في ذلك على أنّني أرجّح الربط بين المرأة الراحلة والشمس عند الغروب إذ تظهر الشمس حينئذٍ حمراء كلون الــدم ، وتنتشــر الحمــرة في الأفق المحيط بها ، وغيابها يخلّف الظلام والكآبة وينذر بالموت والخراب ، وهي الأمور التي تظهر في المكان بعد رحيل المرأة عنه .

والمطّلع على الشعر الجاهليّ لا يخفى عليه تكرار الصور التي يتناول فيها الشعراء الظعن والمرأة الظاعنة ، ولذا فإنّني سأكتفي بأمثلة توضّح الصورة دون الرجوع إلى حديث الظعن عند كلّ شاعر على حدة ، فمما جاء في حمرة الهودج قول طرفة بن العبد :

عالَيْن رَقْما فــاخرا لونُــه   من عَبْقَريّ كنجــيعِ الذَّبيح[2]

وهــو فــي هذا البيت يطلب زيارة المرأة التي تسافر أبدا في هذا الموكب من الإبل التي يعلوها القماش الأحمر الفاخر المتقن الصنع ، الذي يشبه في لونه الدم المراق من الشاة الذبيحة ونحوها من الأضاحي . ومنه قول زهير بن أبي سلمى في الظعن :[3]

علون بأنماط عِتــاقٍ وكلّــةٍ   وِرادٍ حواشيــها مشاكِلَةِ الدمِ[4]

وهي صورة مكرّرة لما جاء عند طرفة في البيت السابق .

والشــاعر فــي معرض حديثه عن هذه الرحلة يربط بينها وبين الرحيل السنويّ لعشتار ، حين تهبط إلى مملكة الموتى فتقام المآتم ، ويعمّ الخراب إلى أن تعود إلى الحياة من جديد ، وهو حيــن يستحضــر هذه القصّة دون وعي منه يجعل المرأة الراحلة تغادر بكامل زينتها دائما كما فعلت عشتار في رحلتها .ومما جاء في ذلك قول الأعشى :[5]

خاشعاتٍ يُظهِرْن أكْسِيةَ الخــ   ــزِّ ويُبْطِنَّ دونَها بِشُفــوفِ

وحَثَــثْن الجمال يسْهَكْن بالبا   غِزِ والأُرجوانِ خملَ القطيفِ[6]

فالنســاء فــي هذه اللوحة خرجن للرحيل وقد لبسن الملابس الفاخرة ، ومن تحتها الثياب الرقــيقة الــناعمة التــي تدلّ على التنعّم والدعة ، ولم تعتد المرأة العربيّة على هذا اللباس في

---

[1] د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنّيّة في الشعر الجاهلي** . ص 126 _ 127 ، 131 _ 132

[2] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 16

[3] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 101

[4] الأنماط : نوع من القماش . الوراد : بلون الورد الأحمر . المشاكلة : المماثلة .

[5] الأعشى : **ديوانه** . ص 113

[6] يسهكن : يسحقن . حثثن : أسرعن . الخزّ والباغز والأرجوان : من أنواع الحرير . خمل القطيف : ناعم ومخمليّ الملمس .

الرحيل إلاّ إذا كان رحيلا خاصّا ، كرحلة العروس التي تزفّ إلى بعلها ، أو رحلة الكريمة إلى الحـــياة الأخرى عندما تفارق الحياة فتنقل إلى قبرها . ولكن الشعراء يؤكّدون هذا الأمر ، ويقرّ لهم بذلك المجتمع الذي استحسن الشعر دون أن يعترض على هذه المفارقة ، وذلك لما يستقرّ في وجـــدان هـــذا المجـــتمع ، ومنه الشاعر ، حول رحيل عشتار التي تزيّنت ثمّ رحلت إلى مملكة الموتـــى رحـــيل العروس إلى بيتها ، وهذا يرجّح قداسة المرأة ومكانتها السامية عند الشعراء ، والبُعد عن الواقع .

ومما يذكر في مجال المرأة كذلك تشبيهها بالبيضة كقول الأعشى :[1]

كَدُمْيَـــةٍ صُـــوِّرَ مِحْـــرابُـــها بمُذْهَـــب في مَرْمَرٍ مـــائرِ
أو بَيْضة في الدِّعْـــصِ مَكْنونَةً أو دُرَّة شِيفَتْ لدى تاجرِ[2]

فهو يشبّه المرأة بالدمية التي سبق توضيح صورتها ، أو بالبيضة التي تصان في كثيب الرمل ، أو الدرّة التي يعرضها التاجر ويبرز جمالها ، وجميعها صور يراد بها التقدير ونقاء اللون .

وفي هذا المعنى يقول النابغة :[3]

نواعمٌ مِثْلُ بَيْضاتٍ بمَحْنِيةٍ يَحْفِزْنَ منه ظَلِيما في نَقاً هارِ[4]

فهو يشبّه النساء ببيض النعام في الملاحة والإشراق . أمّا امرؤ القيس فيقول :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يرام خِباؤُها تمتّعْتُ من لَهْوٍ بها غَيْرَ مُعجَلِ[5]

فهـــو لـــم يشبّه المرأة بالبيضة بل أطلق عليها هذا الاسم للتشابه والتلازم بين المرأة والبيضة ، وهذا يؤكّد أصالة هذا الوصف وخصوصيّته في الشعر الجاهليّ .

والشـــاعر عـــندما يريد تشبيه المرأة بشيء فإنّه يختار ما كان مقدّسا كالشمس ، والبدر ، والـــنجوم ، والظبي ، والمها ، أو ما كان نفيسا كالدرّ ، والياقوت ، والعاج ، والمرمر ، أو ما كـــان جمـــيلا عطرا محبّبا للنفس كالورد ، والأقحوان ، والأغصان ، فلماذا يختار البيضة دون غيرها من عناصر الطبيعة التي توصف بالبياض والإشراق ؟

---

[1] الأعشى : ديوانه . ص 92

[2] الدعص : كثيب الرمل . شيفت : جليت .

[3] النابغة الذبيانيّ : ديوانه . ص 50

[4] المحنية : منعطف الوادي . الظليم : ذكر النعام . النقا : كثيب الرمل . الهاري : المنهار .

[5] امرؤ القيس : ديوانه . ص 38

لا شكّ أنّ هذا الأمر لفت أنظار الدارسين مما جعلهم يضعون له تفسيرا وتأويلا ، فقد قيل إنّ النســاء تشــبّه بالبــيض من ثلاثة أوجه : أحدها بالصحّة والسلامة عن الطمث والثاني في الصيانة والستر لأنّ الطائر يصون بيضه ويخفيه . والثالث في صفاء اللون ونقائه ، لأنّ البيض يكــون صـــافي اللون نقيّه إذا كان تحت الطائر .أمّا تخصيص بيض النعام فذلك لما يشوبه من الصفرة اليسيرة[1]، وهو اللون المحبّب في النساء .

والســؤال الذي يطرح هنا هو : لماذا يصرّ الشاعر الجاهليّ على تشبيه المرأة بالبيضة ؟ علــى الــرغم مــن وجود أمور عديدة يمكن اختيارها للدلالة على المعاني السابقة ، مما أورده الزوزنـــيّ فـــي تفسير بيت امرئ القيس ، وللإجابة على ذلك يمكن القول : إنّ للبيضة حضورا متمــيّزا فـــي عقلـــية الإنسان ، وذلك لاقترانها باللون الأبيض النفيس الطاهر النقي من جهة ، ولارتباطها بعملية الإخصاب ، وتجدُد الأجيال من جهة ثانية ؛ فالبيضة تشبه الرحم الذي يحوي الجنيــن ويغذيـــه قبل أن يوهَب للحياة ، فهي الوعاء الذي يعيش فيه الطائر فترة طويلة قبل أن يخرج إلى الحياة . ومن هنا فقد ارتبط اللون الأبيض بالخصوبة ، وكان من السهل على الإنسان تقــبّل فكــرة الــولادة من الوعاء أو الرحم الأبيض ، وأصبحت إلهة الخصوبة بيضاء اللون ، واتّخــذت الــبقرة البيضاء دون غيرها شعارا لها ، ومن هنا اعتادت النساء ارتداء البياض في الأعراس استحضارا لخصوبة هذه الإلهة ، كما أسلفنا .

ومــن هنا كانت المرأة في الشعر الجاهليّ بيضاء تفاؤلا بهذا اللون من أجل الإخصاب ، ورغــبة فـــي استمراريّة الحياة والخلود عبر تتابع النسل . فتشبيه المرأة بالبيضة يأتي من باب الــربط بيــن المرأة وإلهة الخصوبة ، التي لا يتمّ الإخصاب إلاّ بعد التزاوج بين يديها ، أو في رضىً منها .

وعلـــيه فإنّ المرأة في الشعر الجاهليّ تحظى بالتقديس والاحترام كأحد المعبودات الوثنيّة التـــي اعتاد العرب على الولاء لها ، وإن لم يُصَرّح بذلك . فهي الشمس التي تشرق كلّ يوم ، وتــودّع عــند المغيــب ، وهي الزهرة التي تظهر في المساء حمراء متورّدة كوجنة العذراء العاشــقة ، وفي آخر الليل حمراء متوهّجة كالسيف الذي يقطر دما ، وهي الغزالة التي تتقمّص شخصـــيّة الشمس وتحلّ مكانها على الأرض لترعى الأطفال والمرضى ، وهي صاحبة النار المقدّســة ، التـــي تحمل حرارة الشمس ، وتحكي لون توقّدها ، فتأبى الخمود في المعابد لتبقى منــيرة الســبل أمـــام قاصديها وهي البيضة التي تجعل من رحمها مستودعا للأجيال القادمة .

---

[1] الزوزنيّ ، **شرح المعلّقات السبع** . ص 24 ـــ 25

وجمـــيعها رموز مقدّسة لدى الشاعر الجاهليّ ، والإنسان الجاهليّ بشكل عام . ولهذا فقد أحيط وصفها بهذه القدسيّة ، وتناقل الشعراء الأوصاف الثابتة جيلا بعد جيل ، وذلك في مجال المرأة الراحلة أو المعشوقة ، أمّا المرأة الزوجة أو الابنة أو الجارية أو الأم فقد خرج وصفها عن هذه التقاليد ، وجاء قريبا من الواقع إن لم يكن تسجيلا له .

ومـــا يقال في بياض المرأة نجده في وصف الرجل كذلك ، فهو دائماً أبيض اللون أزهر ســـواء في المديح ، أو الفخر أو ذكر الندامى ، أو في وصف الأعداء . وعند تتبع الصور التي تصـــف الرجل ، نجد الشعراء يحيطونه بهالة قدسيّة ، وجملة من الأوصاف التي تدلّ على علوّ مكانـــته : فهـــم يشبهونه بالشمس ، وبضوء البدر ، والبدر ، وبالنجم _ وهي من الأوثان التي عبدها العرب في الجاهلية ، أو ينعت بصفة تدل على قرنه بالآلهة ، كتشبيهه بالربيع ، وممطر العطايا ، أو جعله من أصحاب القباب الحمر .

ومن أكثر الصور دلالة على هذا المعنى قول زهير بن أبي سلمى [1]:

وأبيضَ فَيّـــاضٍ يَداهُ غَمامــةٌ ... على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ فواضِلُهْ [2]

بكَرْتُ عليــه غدوَةً فرأيتُــهُ ... قُعُوداً لَدَيْه بالصَّريم عَواذِلُهْ [3]

يُفَدِّيْنــه طَوْراً وطَوْراً يَلُمْنَــهُ ... وأعْيَــا فما يَدْرِينَ أينَ مَخاتِلُهْ [4]

فأقْصَـــرن منه عن كريم مُرَزَّإٍ ... عَزومٍ على الأمر الذي هو فاعلهْ

أخي ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الخَمْرُ مالَــهُ ... ولكنــه قد يُهْلِكُ المـــال نائلــهْ

تراهُ إذا مـــا جِئْتَــه مُتَهَلِّــلاً ... كأنّك تُعْطيــه الذي أنت سائلــهْ

والشـــاعر في هذه الأبيات يقرن بين الممدوح والعطاء الذي لا يكف عنه ، فهو يتلف ماله علـــى الطالبين ، ويُلام على ذلك دون أن يثنيه اللوم عن عطاياه . وفي هذه الصورة نجد الكثير مـــن الـــرموز الدينيّة الأسطورية ، فالممدوح في هذه الأبيات يشبه إلى حدّ بعيد الإله "بعل" إله الأمطـــار فـــي الأساطير القديمة ، والبعل يمطر الناس بسخاء فتعم السعادة ، وتنتشر الحياة في الأرض ، بيـــنما يســـبب انحباس المطر الجفاف والهلاك ، فالمطر هو السبب في الخير والنماء وكذا العطايا التي يمنحها هذا الرجل .

---

[1] زهير بن أبي سلمى : ديوانه . ص 74 ـــ 75

[2] المعتفون : الطالبون ما عنده . ما تغبّ : ما تتوقف . فواضله : عطاياه .

[3] الصريم : تأتي بمعنى الصبح وتأتي بمعنى الليل ، وهي هنا بمعنى الصبح بدليل غدوه .

[4] يفدينه : يقلن له فديناك بأنفسنا وأبنائنا وأمهاتنا . أعيا : أتعبهم الفشل . مخاتله : خداعه .

والـبعل حيـن ينزل المطر لا يمنعه أحد أو يغيّر من اتجاه المطر فهو الذي يقرّر ذلك ، ويجود به دون مقابل . وكذا الممدوح فهو يقدّم عطاياه لمن يطلبها بسخاء ولا يمنعه من ذلك لوم اللائمين .

ونجد في هذه الأبيات صورة مشرقة للرّجل الذي يبقى متهللاً مستبشراً بعطائه المتواصل ، لأنـه اعتاد على ذلك ولا يعرف العبوس والتكدير لأنه حين يعطي يمنح ما لديه من الخير عن طيـب نفس دون إكراه أو تظاهر ، وهي صورة تؤكّد سمو هذا الرجل وصلته بالآلهة التي لا تعـرف إلاّ الإشـراق والـنور . وهو ماضي الرأي إذا قال فعل وهذا يدلّ على قوّته وملكه . يضـاف إلـى ذلك ما يحاط به من الرعية أو مجموعة النساء التي تقوم على رعايته وهي التي تعذله على عطاياه المفرطة ، وهذا يذكرنا بفتيات المعابد اللاتي يقمن على خدمتها ويهبن أنفسهن لها، لا سيما الطريقة التي تعامل بها الممدوح ، وعبارة التفدية التي اعتادت على ذكرها .

فالرجل في هذه الأبيات يحاط بالإجلال والتقديس ، ويوصف بالباذل المال وممطر العطايا ليمـثّل صورة من صور الإله بعل في الأرض . ومن هذا المعنى سمي الرجل بالربيع أيضاً ، وفيه يقول النابغة :

وأنت رَبيعٌ يُنْعِشُ الناسَ سَيْبُهُ　　　وسَيْفٌ أُعِيرَتْه المنيَّةُ قاطِـعُ [1]

والشـاعر في هذا البيت يصور الممدوح بالربيع الذي يهب الناس الحياة والخصب ، أو بالسيف الفصـل وهمـا صفتان تدلان على قداسة الممدوح فعطايا الإله لا حد لها وعقابه شديد . وصفة الربـيع هـذه تعيدنا إلى إلهين هما "بعل" و "تموز" فقد أسلفنا آنفاً أنّ البعل هو إله الأمطار التي بـنزولها تعـود الحياة إلى الأرض وتنعم حياة البشر ، وهذا ما نجده في بيت النابغة لأن نزول الأمطـار سـبب في ظهور الربيع . ومن جهة ثانية فالربيع الذي ينعش الناس يعيدنا إلى قصة تموز ، الذي باختفائه يعمّ الجفاف ويوشك الناس على الهلاك ، ثمّ يعودون للحياة آمنين من جديد مـع عودة تموز الممثّلة بظهور الربيع . فكأنّ الممدوح هنا هو تموز الذي يعيد بصحبته البهجة والحـياة إلـى الأرض فينعش الناس . ومن هنا كان موت الممدوح يعني هلاك الناس وخراب الأرض كما يرى النابغة في قوله :[2]

---

(1) النابغة الذبيانيّ : ديوانه . ص82

(2) السابق ، ص 110

فإن يَهلِكْ أبو قابوسَ يَهلِكْ   رَبيــعُ النَّاسِ والشَّهْرُ الحرامُ
ونُمْسِكْ بَعدَهُ بذِنابِ عَيْــشٍ   أَجَبَّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنامُ (1)

فالشاعر يشبه الممدوح بالربيع الذي ينعش الناس وبالشهر الحرام الذي يأمن الناس فيه ، وهلاك الرجل يعني ذهاب الأمن ، وجفاف الربيع ، وهذا الأمر يؤثّر على الناس فيحيون حياة الضنك ، والفاقــة ، والســوء ، لا أمــن ، لا كلأ ، لا شبع ، لا بهجة ، وهي الأمور التي تحدث باختفاء تموز.

. ومن الرموز المقدّسة الأخرى للرجل في الشعر الجاهليّ التشبيه بالشمس والبدر والنجم ، ومما جاء في ذلك قول عنترة العبسيّ في المديح :

من القومِ الكرام وهُمْ شُموسٌ   ولكن لا تُوارى بالدُّجونِ(2)

فجعــل الممــدوح واحدا من القوم الكرام النسب ، البيض الوجوه حتّى بدا الواحد منهم كالشمس المنيرة ، ولكنهم شموس لا تغيب ولا يحجب ضوءها شيء فتبقى مشرقة أبدا بالخير والعطاء .
وفي التشبيه بالبدر يقول امرؤ القيس في الرثاء :

وابن عمّ قد فُجِعْتُ بــه   مثل ضوء البدر في غُرَرِه(3)

فقــد شــبّه ابن عمّه بضوء البدر في أوّل الشهر للدلالة على بياضه وإشراقه من جهة ، وعلى صغر سنّه من جهة أخرى لأنّ غرر البدر تكون في بداية الشهر ، ويبدأ القمر فيها دورة شــهريّة تنتهــي في الثامن والعشرين من الشهر حين يختفي القمر كلّيّا ليبدأ بالظهور في بداية الشــهر التالي بدورة جديدة . والشاعر في هذا البيت يجعل من ابن عمّه قمرا ولكنّه اختفى قبل الأوان .

أمّــا الأعشى فيشبّه نديمه بالنجم فيقول:(4)"وأبيض كالنجم آخيته " وذلك لبياضه ، ومكانته العالــية . ونجــده يرســم لوحة مليئة بالجلال والرفعة والسمو في مديح هوذة بن علي الحنفيّ فيقول:(5)

يا هَوْذَ إنّــك من قوم ذوي حســبٍ   لا يفشــلون إذا ما آنســوا فزعــا

---

(1) ذناب العيش : أطرافه ، أجبّ الظهر : لا سنام له .
(2) عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 150
(3) امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 103
(4) الأعشى : **ديوانه** . ص 160
(5) السابق ، ص 108 ــ 109

هم الخضارم إن غابوا وإن شهدوا	ولا يُـرَوْن إلى جاراتـهم خُنعـا
قـوم بيـوتهم أمـن لجـارهـمُ	يوما إذا ضمّت المَحْضورة الفزعـا
وهـم إذا الحرب أبدت عن نواجذها	مثـلُ الليـوث وسُـمّ عاتق نقعـا
غيـث الأرامـل والأيتـام كلّهـم	لم تطلع الشـمس إلاّ ضرّ أو نفعـا
من يلق هوذة يسجـد غير مُتَّئـبِ	إذا تعصّب فوق التاج أو وضعـا[1]
لـه أكاليـلُ باليـاقـوت زيّنـها	صُوّاغُها لا ترى عيبـا ولا طبعـا
وكلُّ زَوْجٍ من الديبـاج يَلْبَسُـه	أبـو قُدامـةَ مَحْبُـوّاً بـذاك معـا
لم يُنقِص الشّـيب منه ما يقال لـه	وقد تجاوز عنه الجهل فانقشـعـا
أغـرّ أبلج يسـتسـقى الغمام بـه	لو صارع الناس عن أحلامهم صرعا
....	....
مَنْ يَـرَ هوذة أو يَحْلُل بسـاحتـه	يكـن لهوذة فيمـا نـابـه تبعـا
تلقـى لـه سـادة الأقوام تابعـة	كلّ سـيرضى بأن يُرعى له تبعـا
يا هوذُ يا خير من يمشـي على قدم	بحر المواهـب للورّاد والشرعـا
....	....
وما مجاورُ "هيتٍ" إن عرضتَ لـه	قد كان يسمو إلى الجُرْفَين واطّلعا[2]
يجيـش طُوفانُه إذ عَـبّ مُحتفـلا	يكاد يعلو ربى الجرفـين مطّلعـا
طابت له الريح فامتـدّت غواربُـه	ترى حوالبه من موجـه تَرَعـا[3]
يومـا بأجود منـه حين تسألـه	إذ ضنّ ذو المال بالإعطاء أوخدعا[4]

والشـاعر فـي هذه الأبيات وما بعدها يصف هوذة بالسيّد العفيف ، القوي ، الذي إذا قال فعل ، ناصر اليتامى ، والأرامل ، والأسرى ، الواهب المعطي دون حساب ... وجميعها صفات تـدلّ على سموّ هذا الممدوح ، ورفعة مكانته ، ولا سيّما ما جاء في وصفه بالغيث الذي يمطر الناس بعطاياه كلّما أشرقت الشمس ، ثمّ ذكر مكانته لدى الناس الذين يحيّونه بالسجود عند لقائه دون حرج أو استحياء اعترافا منهم بفضله ، وإقرارا بسيادته عليهم . وهو ملك متوّج بالياقوت والذهب ، ولباسه من الديباج والخزّ والحرير ، وهذا يذكّرنا بلباس الآلهة في الأساطير اليونانيّة والأساطير في مصر وبلاد الرافدين . ويضيف الشاعر أنّ من يرَ هوذة يُصبحْ تابعا له ، والسادة

---

[1] اتّأب : استحيا .

[2] هيت : بلد بالعراق . الجرفان : مفردها جرف وهو المكان الذي يجرفه السيل .

[3] غوارب الماء : أعاليه . حوالبه : منابعه . ترعا : مترعة أو مليئة .

[4] ضنّ : بخل .

يخلصون له الولاء والطاعة ، وهذا يدلّ على مكانته المرموقة بين الناس . ثمّ يعود ليؤكّد صفة العطـــاء والإمطـــار ، فهو أجود من سيل هيت وقد ملأته مياه الطوفان من منابعه إلى مصبّه ، وهـــذه الصـــورة تعيدنا إلى صورة البعل ، إله الأمطار الذي لا يداني كرمه بشر . ولعلّ أبرز صفة جسديّة يبرزها الشاعر للممدوح هي البياض ممّا يؤكّد كرم أصله وعراقة نسبه إلى جانب القداسة والجلال .

وممـــا تجـــدر الإشارة إليه في هذا المجال ذكر القباب الحمر ونسبتها إلى كلّ من المرأة والرجل على حدّ سواء ، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص :

أهل القبـــاب الحمر والـــ ـــنِّعَم المُؤَبَّـــل والمُدامـــة[1]

وهـــو يجعـــل القوم من السادة والأشراف ، ودليله على ذلك سكناهم في قباب حمراء ، وكونهم أصحاب إبل كثيرة وخمرة وفيرة ، ويؤكّد النابغة ذلك بقوله :

وهُمْ مَنَعوها من قُضاعَةَ كُلِّها ومن مُضَرَ الحمراءِ عند التَّغاوُرِ[2]

وقد نسب الأعشى القبّة الحمراء للمرأة ، ليدلّ على قداستها كذلك ، فقال :

فأرادها كيـــف الـــدّخـــو لُ ، وكيـــف ما يؤتى لها

في قُبَّـــةٍ حمـــراءَ زيّـــ ـــنها ائتلاقُ طِبابِـــها[3]

وتجمـــع المصـــادر أنّ القبّة الحمراء دليل سيادة وشرف ، ولعلّ السبب في ذلك عائد إلى ارتـــباط الأحمـــر بلون الدم ، وارتباط الدم بالأضاحي ، فاتخاذ القبة بهذا اللون دليل على تقديم الأضاحي لهذا الشخص وطلاء المحراب بدمها ، ومع مرور الزمن نسي هذا الطقس وهو طلاء المحـــراب بدم الأضاحي وبقي اللون الأحمر للدّلالة عليه ، ثمّ أصبح الأحمر دليلاً على المكانة العالـــية دون أن تقـــدّم الأضـــاحي لهذا الشخص على وجه الحقيقة . وليس ما ذهب إليه بعض الدّارســـين مـــن أنّ اختيار هذا اللون دليل على وحدة الدّم القوية في هذه العشيرة [4] ، فلو كان الأمر كذلك لكانت بيوت العشيرة كلها بهذا اللون دون تخصيص زعيمهم به .

وإذا كانت المرأة تمثل آلهة الجمال ، والحرب ، والخصوبة ، وغيرها من الآلهة الشّمسيّة فـــي الأرض ، فـــإنّ الرجل الأبيض يمثّل إله المطر وغيره من الآلهة القمرية ، أو يحظى كل

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 108

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 67

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص 17

[4] د. الرباعي ، عبد القادر : **الصورة الفنية في النقد الشعري** . ص 134

مـــنهما بالـــتقديس دون الاقـــتران بالآلهة ، إذْ إنّ العرب في فترة ما كانوا يخلطون بين الملوك والآلهـــة ، فـــيجعلون مـــن ملوكهم وأسيادهم أرباباً يعبدونهم ويدينون لهم بالولاء ، كما مرَّ في الفصـــل الأول ، لاسيّما عند إطلاق العبارة الشهيرة " دم الملوك يشفي من داء الكلب " . وجميع هذه الرّموز المقدّسة تمثّل الآلهة الإيجابية في الأرض ، إذ يبدو الرجل أو المرأة بالوجه الأبيض لهذا الإله فيزرع الحب ويهب الخير والعطاء ، أو يمنح الحياة والبهجة للأتباع والمحيطين .

أمـــا عنترة فرسم لنفسه صورة فريدة من صور الآلهة ولكنّه يشبه نفسه بالآلهة السلبية ، آلهة الموت والدمار ، فإذا قارنا بين عنترة وبين تلك الآلهة السلبية نجده يمثّل صورة بشرية لها بجميع أبعادها .

وأول مـــا يطالعـــنا فـــي قصة عنترة حبّه لعبلة ، واختلاف اللون بينهما مما يحول دون الوصـــول إلـــيها والـــزواج بها . ولم يرفض ذوو عبلة وحدهم سواد عنترة بل نجد عبلة نفسها ترفض هذا السواد ، وتتردّد أمامه وفي ذلك يقول عنترة :

دعني أجدُّ إلى العليـــاء في الطّلبِ   وأبْـــلغُ الغايـــة القصوى من الرّتبِ
لعلَّ عبلةَ تضحي وهي راضيـــةٌ   على سوادي وتمحو صورة الغضبِ[1]

وهو يصرّح في هذين البيتين أنّ عبلة لم تكن راضية عن سواده ، ولذا فقد كان يجدّ إلى العلياء لـــيُعوّض نظـــرة الـــنّقص ، وهـــذا الأمر يذكرنا بقصة (أفروديت) و (هيفاستون) فقد كان (هيفاســـتون) أســـود اللـــون كالفحم المحروق ، وأحب (أفروديت) إلهة الجمال عند اليونان ، وخُطبت له ، ولكنها كانت تشعر بالخزي بسبب هذه الخطوبة من الرجل ذي الوجه الأسود القاتم كلون الفحم المحروق .[2]

ويغـــدو عنـــترة بعد ذلك مقاتلا ، مدافعا عن آل عبس ، فلا يخرج من غارة إلا وقد استعد لأخـــرى ،ولذا فهو أبدا مستعد للقتال لابس درعه الذي طُبع على جلده لطول احتكاكه به ، وفي ذلك يقول :

ولو أني كشفت الدرع عني   رأيت وراءه رسما محيلا[3]

---

[1] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص21

[2] Robert Graves : **Myths of Ancient Greece** . p 20

[3] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 104

وهو بهذه الصورة يبدو بصورة (هادز) اله الأموات والعالم السفلي ، الذي يبدو بوجهه الأسود ويلبس درعه السوداء أبدا [1]، فلا يختلف في ذلك عن عنترة إلا في الاسم ومجريات الأسطورة.

ثم نجد حصان عنترة الأدهم الذي يخوض جل معاركه عليه ، وفيه يقول:

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم مُلجم[2]

فهو ملازم لهذا الحصان الأدهم لكثرة المعارك التي خاضها عليه ، فهو رفيقه الذي لا يفارقه أبدا ، ويقول في موضع آخر ذاكرا مشاركة حصانه في المعارك التي يخوضها :

خضت الغبار ومهري أدهم حالك فعاد مختضبا بالدم والجيف[3]

وملازمته حصانه الأسود في الحرب تذكّرنا بالإله (شو بن رع) في مصر ، الذي يصوّر "علـى هيئة محارب شاب يقتل وهو في مركبه الأسود "[4]، فالمركب الأسود من متعلّقات الإله المحارب الذي يتقمّص عنترة شخصيّته في شعره دون أن يصرّح بذلك .

وعنترة كما يبدو في شعره شغوف بالحرب ، يبتهج لرؤية الفرسان صرعى ، ولا تطيب له الحياة إلا بمشاهدة الموت وسط الأشلاء المتناثرة ، والدماء المراقة على الأرض ، وتحت ستر من الغبار الذي تثيره الخيل المغيرة ، بل إنّه يجعل من دماء القتلى خضابا لكفّيه ، ويكتحل بغبار المعارك ، وفي هذه الصور يقول :

نديمي رعاك الله قم غنّ لنا على كؤوس المنايا من دم حين أشرب[5]

فهو يجعل من دم الفرسان شرابا يحتفل باحتسائه ، ويقول في موضع آخر :

وإنّي قد شربت دم الأعادي بأقحاف الرؤوس وما رويتُ[6]

فبدلا من النفور والشعور بالأسى لمرأى هذه الدماء والأشلاء يجعل من الجماجم كؤوسا له ، ويحتسي فيها الدماء دون أن يشعر بالارتواء من ذلك ، ويقول في موضع آخر :

هجرت البيوت المشرفات وشاقني بريق المواضي تحت ظلّ قتام

وقد خيّروني كأس خمر فلم أجد سوى لوعة في الحرب ذات ضرام

---

(1) Robert Graves : **Myths of Ancient Greece** . p 30

(2) عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 120

(3) السابق ، ص 88

(4) ارمان ، أدولف : **ديانة مصر القديمة**. ص 414

(5) عنترة العبسيّ : **ديوانه**. ص 14

(6) السابق ، ص 25

....

وبيض سيوف في ظلال عجاجة كقطر غوادٍ في سواد غمام
ألا غنّيا لي بالصهيل فإنّه سماعي ورقراق الدماء ندامي
وحطّا على الرمضاء رحلي فإنّها مقيلي وإخفاق البنود خيامي
ولا تذكرا لي طيب عيشٍ فإنّما بلوغ الأماني صحّتي وسقامي
وفي الغزو ألقى أرغد العيش لذّة وفي المجد لا في مشربي وطعامي(1)

وهو في هذه القصيدة يبدو منتشيا بالحرب التي هجر العيش الرغيد من أجلها ، وفضّل رؤية الدماء المراقة على الخمرة ، وشبّه بريق السيوف في غبار المعركة بالمطر الذي يلمع في الغيم الأسود فينعش الأرض ، وقد رفض حياة الدعة والأمن والتنعّم مقابل حبّه للحرب والقتال في سبيل تحقيق أمانيه .وهو في هذه الصورة يذكّرنا (بعناة) والمشاهد الدمويّة التي خاضتها وبدت منتشية بها ، كما مرّ في الفصل الأوّل .

وعنترة يكثر في شعره ذكر بريق السيوف ولمعانها ، وذلك للدلالة على بطشه وحدّة هذا السيف الذي ما ينفك عاليا هابطا وسط الغبار الكثيف مما يجعل من لمعانه المتواصل هذا ما يشبه البرق الذي يلمع خلال السحب السوداء حتى يوشك أن يذهب بالأبصار ، ومن ذلك قوله:

يا بني عامر ستلقون برقا من حسامي يجري الدماء سجاما(2)

وهو بذلك يذكّرنا بالإله (زيوس) الأولمبي الذي كان إذا غضب من شخص أو رغب في ، قتله أرسل عليه صاعقة من بريق أشرطة القصدير التي يحملها نسره الذهبي(3)، فكأن البرق الذي يصدر عن سيف عنترة هو تلك الصواعق التي تستخدم للقتل ، وقد لاحظنا في البيت السابق دور البرق في إجراء الدماء ومن ثمّ قتل هؤلاء الفرسان .

ثمّ هو يصرّح بعد ذلك بأنّه ملك الموت الذي على الناس أن يطيعوه ، وذلك بسبب جبروته، وقوّته ، وبأسه في القتال ، إلى جانب لونه الأسود المخيف ، وما يضاف إلى سواده من بعده عن الغسل ، وإهمال شعره حتّى يبرز بصورة منفّرة مرعبة ، وفي ذلك يقول :

إنّي لأعجب كيف ينظر صورتي يوم القتال مبارز ويعيش(4)

---

(1) عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 136

(2) السابق ، ص 137

(3) Robert Graves : **Myths of Ancient Greece** . p 14

(4) عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 77

فهــو يعترف أنّ صورته منفّرة مرعبة يرهبها الأبطال فيصرعون قبل أن يصرعهم بسيفه ، بل إنّ الموت نفسه يخاف منه ، ويشعر بالرعب إزاءه ، وفي ذلك يقول:

ولو أنّ للموت شخصا يرى لروّعته وأكثرت رعبه[1]

ويقول في موضع آخر ، مذكّرا بملك الموت الذي يصاحبه ويقيم في حدّ سيفه :

سائلي يا عبيــلُ عنّي خبيرا وشجاعــا قد شــيّبته الحروب

فسينبيك أنّ في حدّ سيفي ملَكُ المــوت حاضر لا يغيب[2]

ويقول رابطا بين الموت وبين لونه الأسود :

وأنا المنيّة وابن كلّ منيّة وسواد جلدي ثوبها ورداها[3]

ولذا فهو يعتقد أنّه يستحقّ التمجيد والولاء ، وفي ذلك يقول :

يا عبل لو أنّ المنيّة صوّرت لغدا إليّ سُجودها وركوعها[4]

ويشبّه نفسه في موقع آخر بكعبة العرب لبطولته وشجاعته ، فيقول :

ولو صلّت العُربُ يوم الوغى لأبطالهــا كنت للعُرب كعبة[5]

فعنترة إذن واحد من هذه الآلهة ، ولكنّه إله يمثّل قوى الدمار والموت ، يرعب الناس وينفرون مــنه ، لأنّه محارب لا يكفّ عن القتل وشرب الدماء ، وهو الذي يخطف الأنفس دون أن يمهل أصحابها ، وهو إلى جانب ذلك الإله الأسود الذي يأتي من أمّ مجهولة النسب خلاف أبناء القبيلة مما جعل مرتبته تقلّ عنهم ، وتنفر النساء من وصله .

ومــن الرموز الدينيّة والأسطوريّة للألوان في الشعر الجاهليّ حمرة الخمرة التي ما تنفك تذكر في وصف مجالس الشرب ، وفخر الشاعر بنفسه ، ومن ذلك ما نجده في قول الأعشى :[6]

فبتُّ كأنّي شارِبٌ بعد هَجْعة سُــخاميّةً حمراءَ تُحْسَــبُ عَنْدَما

إذا بُزِلَتْ من دَنِّها فــاحَ ريحُها وقد أُخْرِجَت من أسْود الجَوْفِ أدهما

لها حارسٌ ما يَبْرَحُ الــدَّهْرَ بَيْتَها إذا ذُبِــحَتْ صلّى عليها وزَمْزَمَــا

---

[1] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 10

[2] السابق ، ص 20

[3] السابق ، ص 155

[4] السابق ، ص 83

[5] السابق ، ص 10

[6] الأعشى : ديوانه . ص 186

ببابلَ لم تُعصَرْ فجاءتْ سُــلافَةً تُخـــالِطُ قنديدا و مِسْــكا مُخَتَّمـــا[1]

يطوف بها ســاقٍ علــينا متوّم خَفَــيفٌ ذَفيــفٌ ما يزال مُقَدَّمــا[2]

بكــأسٍ وإبريقٍ كــأنّ شَرابــَه إذا صُــبّ في المِصنْحاة خالط بقَّما[3]

وهو هنا يركّز على لونها الأحمر كما يظهر في البيتين الأوّل والسادس ، إذ يشبّهها بالعندم لشدّة حمــرتها أو بصبغة شجر البقم ، ويقرن بينها وبين الدم في البيت الثالث حين يشبّه عمليّة صبّ الخمــرة بــالذبح ، فالحمــرة في الخمر لون يحرص الشاعر على إظهاره وترسيخه ، بل يذكر الشــاعر في قصيدة أخرى إنّه كان يشرب هذه الخمرة من أجل الحصول على هذا اللون ، وفي ذلك يقول :

وســبيئةٍ مما تعتّــق بابــل كدم الذبيح سلبتُها جِرْيالَها[4]

فهــو كان يشرب الخمرة للحصول على صبغتها الحمراء ومن ثمّ كان يبولها لا لون لها ، وهو يقــرن بينها وبين الدم إذ يشبّهها بدم الذبيح ، وهذا امرؤ القيس يؤكّد هذه الصفة بتشبيه الخمرة بدماء الغزلان فيقول :

أُنُفٌ كلونِ دَمِ الغزال مُعَتَّقٍ من خَمْرِ عانَةَ أو كُرومِ شَبَامِ[5]

وقــد كــان للخمــرة طقوس خاصّة بها ، فغالبا ما تشرب قبيل الشروق مع ظهور نجمة الصباح ، وتشرب في جمع من الندامى البيض كالنجوم ، في كؤوس ، وهذا الأمر يجعلنا نربط بيــن الخمرة ونجمة الصباح التي تغلبت على الملكين بإسقائهما الخمرة ، ومن ثم أصبح شرب الخمــرة طقسا من طقوسها ، لذا فقد اختار الشعراء هذا الموعد للشرب لتكون حاضرة[6]. وفي ذلك يقول الأعشى :

وصهباءَ صِرفٍ كلون الفُصو ص باكرت في الصبح سَوّارها[7]

وهو في هذا البيت يذكر تخيّره الصباح الباكر لشرب الخمرة . وهي تشرب بآنية من الذهب أو الفضّة كشرب الآلهة في ملاحم (أوغاريت) ، لقول عنترة:

---

[1] القنديد : عسل قصب السكّر .

[2] المتوّم : الواضع في أذنيه تومتين أي لؤلؤتين . ذفيف :سريع خفيف . المقدّم : الذي شدّ على أنفه وفمه خرقة بيضاء .

[3] البقم : شجر ساقه حمراء يصبغ به .

[4] الأعشى : **ديوانه** . ص 150

[5] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 163

[6] د. الديك،إحسان : *صدى عشتار في الشعر الجاهلي* . ص 166 ــ 167

[7] الأعشى : ديوانه . ص 90

ولقد شربت من المُدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمَشوف المُعلَم
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِـرّة ... قرنت بأزهرَ في الشّمال مُفَدَّمِ[1]

أمـا التشبيه بالدم وذكر اللون الأحمر فيأتي للربط بين الخمرة وبين الدماء بسبب اللون ، ولأن كليهما مشـروب مفضّل للآلهة – كما تقدّم في الفصل الأوّل ومن هنا يصبح التشبيه بدم الغـزال من باب تقديس هذا الغزال ، لأن الأصل في القرابين أن تكون من الآلهة إحياءً لذكرى (عشـتار) أو (أدونـيس) ، أو (تموز) ، أو (بيرسفوني) فكل منهم كان يرحل سنوياً إلى عالم الموتى ، ثمّ يعود في دورة محدّدة ليرفع أذى إله العالم السفلي ، أو إله الموت عن البشر ، ومـا دام الغزال رمزاً من رموز الشّمس المقدّسة فمن الأرجح أنّ دمه يمثّل دم الإله الذي يشفي مـن المـرض ، ويدفـع الأذى ، ولم يتمّ هذا الاختيار للغزال من باب التجميل لاشتهار الظباء بالجمال فقط ، كما رأت الباحثة زهيّة سعدو [2].

ويؤكـد هـذا التفسـير الدّيني للخمرة في الشعر ما ورد في قصيدة الأعشى السابقة الذي يصـف عملـية إخراج الخمرة بعناية وكيف تبدو من دنها بعد سترها في جوفه الأسود ، وهي تشـبه فـي ذلـك تدفّـق الدمـاء مع المولود ، وقد سبق أن ذكرنا في الفصل الثاني أنّ الدماء المصاحبة للمولود تزفّ الحياة وكذا الخمرة التي تُهدي الحياة والنشوة لشاربها . وكذلك فقد ذكر الشـاعر فـيها عملـية عصر الخمرة وشبّهها بعملية الذبح المقدّس ، فعصر الخمرة يشبه ذبح القربان ولذا فقد استوجب الصلاة والترانيم احتفالاً به ، ولذلك فإنّ ساقيها يظهر في هذه الأبيات مقـنّعاً ، إذ يخفـي أنفه وفمه بالقماش الأبيض ، والشاعر يذكر هذا القناع ليمنحه صفة القداسة والألوهيّة .

وقـد ذكر القناع في بيت عنترة السابق في حين أخطأ شارح الديوان في تفسير أزهر بأنّه إبـريق الخمـرة ، ويتّضح أنّ الأزهر هو الساقي الذي يحمل الكأس الذهبيّة بشماله ، والإبريق بيمينه ، وهو أبيض اللون مقنّع ليوحي بهذه القداسة التي تشيع في مراسم شرب الخمرة . ومما تقـدّم تتّضح لنا الصلة الوثيقة بين الخمرة الحمراء والدماء ، فشربها إذن تقليد دينيّ يتّبع احتذاء بالآلهة التي عبدها العرب ، والأساطير التي شاعت حولها .

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 122

[2] سعدو ، زهية : **تطوّر المعاني الخمرية من العصر الجاهلي حتى أبي نواس** . ص 25

ومن الرموز الأسطوريّة أيضا نجد صورة البقرة الوحشيّة والثور الوحشيّ بلونيهما الأبيضين ، فالبقرة هي رمز الإلهة الأم وشعارها كما في الأساطير اليونانيّة ، والثور هو ابن الإلهة المقدّس ، كما يظهر في النقوش القديمة ، وهما يمثّلان الآلهة القمريّة لعلاقة المشابهة بين قرني الثور وأوضاع القمر الثلاث (الهلال والبدر والمحاق)[1] ، ومما يؤكّد قدسيّتهما في الشعر الجاهلي قول لبيد بن ربيعة في الثور :[2]

فاجتاز منقطع الكثيب كأنّه   نِصع جلته الشمس بعد صوِان

فهو يذكر أنّ الثور كان أبيض اللون مشرقا ، وقد شبّه بياضه ببياض الثوب بعناية ثمّ أخرج في يوم مشمس فبدا للعيان برّاقا متألّقا ، وهذا يدلّ على شدّة بياض الثور وإشراقه ، وهي سمة جلال وقداسة ، وفي بياض الثور أيضا يقول عبيد بن الأبرص :[3]

كالكوكَبِ الدُرّيِّ يَشْرَقُ مَتْنُهُ   خَرِصا خَميصا صُلْبُه يتأوّدُ[4]

فقد شبّه الثور بالكوكب المضيء المتلألئ ، وفي ذكر بياض البقرة يقول لبيد بن ربيعة :[5]

وتُضيء في وجه الظلام مُنيرةً   كَجُمانَة البَحريّ سُلّ نِظامُها

وهو هنا يمنحها صفة الوضاءة والإشراق .

ومن هنا يتضح لنا أنّ البقرة ، والثّور في الشعر الجاهلي كانا موضع تقديس واحترام ، لما خُصّا به من النور والإشراق ؛ فهما رمزٌ من الرّموز المقدّسة لدى الشاعر ، جاء بتأثير عبادة العرب لهما في السابق ، وإن اختفت آثار هذه العبادة قبيل الإسلام ، والصراع الذي يمرّ به كلٌّ منهما هو الصراع الذي دار بين الآلهة القمرية ، والآلهة الشمسيّة في حقبة ما ، وقد انتصرت فيها آلهة الشمس ممثّلة بالإله (مردوخ) ، أو هو الصراع الذي دار بين الحيوانات في مجموعات النجوم كما يرى د. نصرت [6] .

وقد رأى الدكتور عبد القادر الرباعي أنّ الثور في الشعر الجاهلي " صور وكأنه رجل مبدأ يضع عقيدته بين جنبيه ويمضي لا يلوي على شيء "[7] وهذا التحليل يقبل لدى شاعر له تجربة خاصة ، أمّا أن تتوحّد التجربة وعند جميع الشعراء فهذا يدل على فكر أعمق وتجربة

---

[1] السوّاح ، فراس : **لغز عشتار** . ص 70 ـــ 74

[2] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 272

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 51

[4] الدرّيّ : المتلألئ ، وروي الدريء . الخَرِص : الجائع . المتن : الظهر . يتأوّد : يتلوّى .

[5] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 220

[6] د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي** . 133-144

[7] د. الرباعي ، عبد القادر : **الصورة الفنية في النقد الشعري** . ص148

أعـمّ نجدهــا في عبادة هذا الثور التي سادت فترة طويلة ، وتسرّبت بعد ذلك إلى عقلية هؤلاء الشعراء ومجتمعهم بشكل عام .

ومن الأساطير التي نجدها في الشعر الجاهلي للألوان ، تقديس اللون الأخضر لا سيّما في الأشــجار . وقــد علمنا أنّ الخضرة تمثّل الإله تموز الذي يبعث في الربيع ولذا فقد كثر تشبيه الممدوح بالربيع ، ونحن نجد في هذا المجال أيضاً عبادة الأشجار وتقديس هذه الأشجار لذلك ، ومــن ذلك ما يرد في ذكر شجرة الأرطاة التي تلجأ إليها الحيوانات للاحتماء بها ، وفيها يقول امرؤ القيس :[1]

وبات إلى أرطاةِ حِقفٍ كأنّها   إذا ألثَقَتْها غَبيَّةٌ بيتُ مُعْرِسِ[2]

وهو يتحدّث في هذه القصيدة عن حمار الوحش الذي احتمى ليلاً بهذه الأرطاة فحمته من المطر ومن الكلاب معاً . ومما جاء في ذكر النخيل قول لبيد بن ربيعة :[3]

أو بارد الصّيف مَسْجورٌ مَزارعُه   سودُ الذّوائب ممّا متّعت هَجَرُ[4]

والشاعر هنا يشبه الإبل الظاعنة بالماء الغزير البارد صيفاً ويذكر أنّ هذا الماء لنقائه وغزارته تخضرّ مزارعه حتى يظهر النخيل فيها أخضر مائلاً إلى السواد لريّه وخصوبة أرضه .

والشــاعر إذ يذكر هذه الأشجار فهو يكنّ لها في نفسه التقدير والإجلال ، فيذكر الأرطاة للدلالــة علــى حمايتها ومنحها الأمن ، ويذكر النخيل للتفاؤل به ، أو تعبيرا عن الخصب الذي يبحث عنه الشاعر في رحلة الظعن[5].

ومــن الدلالات الأسطوريّة للألوان في الشعر الجاهليّ نجد اختيار اللون الأزرق في لوحة الصيد ، سواء للسلاح أو الحيوان الذي يستخدم للصيد ، ومن ذلك قول الأعشى في الصقر الذي ينقضّ على قطيع البقر ليصطاد منه :

تدلّى حَثيثاً كأنّ الصّوا   ر أتْبَعَــه أزرَقِيّ لَحِــم[6]

فالأزرقــي هنا هو الصقر ، وقد أطلق عليه هذا اللون نسبة إلى لونه المائل إلى الزرقة . ويقول امرؤ القيس :

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص116

[2] الحقف : الرمل المعوج . ألثقتها : بلّتها . الغبيّة : الدفعة من المطر .

[3] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص81

[4] بارد الصيف : الماء . مسجور : ممتلئ .

[5] د. أبو سويلم ، أنور : دراسات في الشعر الجاهليّ . ص 124

[6] الأعشى : **ديوانه** . ص 199

مُغَرَّثَةً زُرقـا كـأنّ عيونَها   من الذّمْرِ والإيحاء نوّارُ عَضْرَس[1]

وهو يصف في هذا البيت كلاب الصيد فذكر أنّها زرقاء اللون عيونها حمر للدلالة على خطرها وقوّتهـا في مجال الصيد ، والأزرق في هذا المجال يذكّرنا بصورة (أرتمس) إلهة الصيد عند اليونان التي كانت تعرف بذات العيون الزرقاء ، كما مرّ في الفصل الأوّل ، إلى جانب ما اعتاد عليه العرب من كراهية هذا اللون الذي يذكّرهم بزرقة عيون العجم وهم من أقسى أعدائهم .

ويمكـن تفسـير الاستمطار لقبر المتوفّى في ضوء الأساطير كذلك ، إذ أنّ المطر يسبب ظهور النبات ، وانتشار الخضرة على القبر ، وبه يتحقّق البعث للميّت ، كما في قصّة (أدونيس) إذ يعتـبر ظهور النبات الأخضر مؤشّرا على عودته إلى الحياة ، وفي طلب المطر الذي يسبب ظهور النبات يقول النابغة في رثاء النعمان بن المنذر :[2]

سقى الغيث قبرا بين بُصْرى وجاسمٍ   بغيث من الوَسْميّ قَطْـرٌ ووابِـلُ[3]

ولا زال رَيْحـانٌ ومِسْـكٌ وعَنْـبَرٌ   علـى مُنْتَهـاهُ ديمةٌ ثمّ هاطِـلُ

فهـو يدعـو للقبر بالسقيا حتى ينبت النبات الأخضر حول القبر ، ومن ثمّ يحظى صاحب القبر بالحـياة مـن جديد عبر الخضرة التي تحيط بمستقرّه الذي سيمضي فيه بقيّة رحلته . وفي هذا المعنى يقول لبيد بن ربيعة :[4]

فشيّعَهُمْ حَمْدٌ وزانَتْ قبورَهم   سَرارةُ رَيْحانٍ بِقاعٍ مُنَوِّرِ[5]

فقد صوّر القبور وقد أحاطت بها الرياحين والزهور للدلالة على المسكن الأخضر الذي حلّوا به بعد الوفاة . فنزول المطر يسبب ظهور النبات ، والنبات يعتبر مؤشّرا على عودة روح المتوفّى إلى الحياة وفق الأساطير القديمة .

فهذه مجموعة من الدلالات الأسطوريّة والدينيّة للألوان في الشعر الجاهليّ ، التي تسرّبت إليه دون تخطيط مسبق من الشعراء ، وإنّما بتأثير المعتقدات التي آمنوا بها ، وسلّموا بصحّتها . وفيما يلي بعض الدلالات النفسيّة لها.

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 116

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 90

[3] بصرى و جاسم : موضعان . الوسمي : أوّل المطر الذي يسم الأرض بالخضرة .

[4] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 101

[5] سرارة الروض : وسطه . القاع : الأرض المستوية ذات الطين . منوّر : كثير الزهر .

ثانيا : البعد النفسيّ

عند تتبّع الألوان ودلالاتها في الشعر الجاهلي من الزاوية النفسيّة نجد أنّ الشاعر لم يخرج عــن العصر الذي عاش فيه ، بل كان ابن مجتمعه ، وقد أخلص لهذا المجتمع ، فهو يتعامل مع الألــوان بدلالاتها التي سادت في ذلك العصر ، مما وقفنا عليه في الفصل الأول: فالأسود لون يثــير الشــؤم ، والألم غالبا . والأبيض يثير البهجة ، والتفاؤل بالحياة . بينما يعود الأحمر إلى حقليــن متقابليــن ؛ فهو يدلّ على الموت لارتباطه بدم القتيل ، بما يثيره من الخوف والرعب ، ويــدلّ على الحياة لارتباطه بدم الولادة بما يثيره من البهجة والسرور . أمّا الأخضر فهو لون الخصــب ، والنعــيم ، والخلــود . بينما يعود الأصفر كالأحمر إلى حقلين : فالفاقع المشع لون الــبهجة ، والإشــراق والنور لارتباطه بالشمس والذهب ، والباهت لون الجفاف ، والمرض ، والموت . والأزرق لون مكروه قليل الورود في الشعر ، ويغلب عليه الاقتران بالصيد أو القتل ، سواء كان لون العدو أو السلاح ، أو الطيور الجارحة ، وهي دلالات توحي بالشؤم والشرّ ، وقد اعتاد العرب النفور منها .

ومــن أبرز مواطن الأسود التي وقف عليها الشعراء وصف الليل ، وتشاؤم الشعراء منه وإحساســهم بــثقله والنفور منه لما يثيره من الهموم والأحزان ، وفي ذكر الليل وهمومه يقول امرؤ القيس :

وليلٍ كموج البحر ألقى سُدوله ... عليّ بأنواع الهمــوم ليبتلــي[1]

والشــاعر في هذه اللوحة كان مستاء من الليل الذي طال ، ولم يسفر عن الصبح المشرق الذي يحلــم به من أرّقته هموم الليل ، ولذا فقد شبّه الليل بالموج الذي يغطّي المكان ، ويلبسه ظلامه كالــثوب المسدل ، وقد كان يحمل معه الهموم والأحزان ، فبات الشاعر أرقا مهموما يائسا من دنو الصبح وتسرية الهموم . وفيه يقول عنترة :

وأجفانٌ تبيــت مقرّحــاتٍ ... تســيل دما إذا جَنّ الظلام[2]

وهــو هــنا يصف نفسه ، وقد كان يقضي ليله باكيا بحرقة وألم ، فالليل هو الذي يجلب الهموم والأحــزان ، وهي بدورها تثير فيه البكاء والألم . وفي هذا المعنى يقول النابغة في الليل الذي كان من ألدّ أعدائه :[3]

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 48

[2] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 134

كليـــني لهمّ يا أُمَيْمَـــةَ نـــاصبِ وليـــلٍ أُقاســـيه بَطـــيءَ الكواكـــبِ

تطـــاول حتّى قلتُ ليـــس بمُنْقَضٍ وليس الذي يرعى النجوم بـــآئـــبِ[1]

وصدر أراح الليـــلُ عـــازِبَ همّه تضاعف فيه الحُزْنُ من كلّ جانبِ[2]

يبدو من خلال الأبيات صلة الليل بالهموم ، فالهموم كثيرة لأنّ الليل طويل ومظلم ، لا يريد أن يســفر عــن الصـــبح ولا بادرة لذلك ، كأنّ النجوم لا تعرف طريقها إلى العودة من حيث أتت وراعــيها لا يرغب بإعادتها ، ولذا فقد طال الليل حتّى ظنّ الشاعر أنّه لن ينقضي أبدا ، وهذا اللـــيل المقـــيم قـــد حمـــل معه الهموم ، وذكّره بما كان قد نسيه منها ، وتضاعفت الأحزان ، وازدحمت لدى الشاعر قديمها وجديدها فبات لا يدري من أين تأتيه الهموم ؟ وأين ستمضي به ؟ ومتى ستنقضي ؟

ولهذه العلاقة بين الليل والألم ، ولتشاؤم الشعراء من هذا الليل ــ فقد اختاروه وقتا للظعن والنوى ، كي يبقى هذا الحديث المؤلم مرتبطا بالليل الكئيب بعيدا عن الصبح الذي ينتظرون فيه الـــبهجة والانغمــــاس بالحـــياة ، بعيدا عن الذكريات المؤلمة ، يضاف إلى ذلك الشعور بالظلام والكآبة حتّى في منتصف النهار عند الحزن ، فليل الشعراء قد يكون ليلا خاصا بهم ، يشعرون بـــه عند رؤية الإبل المدبرة وعلى ظهورها أسباب السرور والمتعة بل الحياة .وفي اختيار الليل للظعن يقول امرؤ القيس :[3]

وحدّث بأن زالت بليل حمولَهم كنخـــلٍ من الأعراض غير مُنَبِّق[4]

فقـــد اخـــتار القوم الليل للرحيل فكان بذلك سببا لكره الشعراء لليل وتشاؤمهم به ، ويذكر عنترة الرحـــيل ، ويجعله سببا في حلول الليل وهو الليل الذي يشعر به الشعراء وإن لم يحن ميقاته ، وفي ذلك يقول :[5]

وإنْ كُنتِ أزمعتِ الفراق فإنّما زُمَّـــتْ رِكابُكم بلـــيلٍ مُظلـــمِ[6]

---

[3] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 9

[1] الـــذي يرعى النجوم : قيل هو الشاعر ، أو هو الصبح ، وروي : يهدي النجوم : أي يتقدّمها في الظهور ، والمقصود هـــنا تشـــبيه النجوم بالإبل أو الأغنام ، وأنّ لها راعيا لا يريد أن يعيدها إلى حظيرتها ، حتّى لا ينتهي الليل الذي يؤرّق الشاعر .

[2] أراح : ردّ إليه في وقت الرواح . العازب : البعيد .

[3] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 133

[4] الأعراض : أعالي الشجر . منبّق : فسد ثمره وصار كالنبق في صغره .

[5] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 118

[6] أزمعت : أجمعت أمركِ ، أو عزمت على الأمر ، وجددتِ في إمضائه . الركاب : الإبل التي تمتطى . زُمّت : شُدّت بالأزِمّة .

فهـــو يرى الوقت الذي اختاره القوم للرحيل هو ليل كئيب مظلم ، فلا أنسب من الليل ليبعد بين الـــناس ، ويكون بداية لحياة البؤس والأحزان . فكما أنّ الليل يثير الشجون والأحزان فهو سبب فعلـــي لها ، إذ يتستّر القوم بظلامه ويرحلون دون أن يتسنّى للشاعر فرصة لوداعهم أو معرفة الجهة التي ساروا فيها .

وقـــد تشاءم الشعراء بالغراب للونه الأسود ، وقرنوه بالرحيل والبعد والنوى ، وفيه يقول النابغة :

زعم البَوارح أنّ رِحلتَنا غداً   وبذاك خَبَّرنا الغُدافُ الأسودُ[1]

والشؤم واضح في هذا البيت حيث استفتح الشاعر بذكر البوارح ، وهي الطيور التي تطير عن يمين المرء وقد تشاءم العرب بها ، وختمه بذكر الغراب الذي كان نذير البين والفراق ، ولذا فقد ركّز الشاعر على لونه الأسود ليزيد من دلالته على الشؤم . ويقول عنترة في الغراب :

يا عبلُ كم تَنْعَقُ غربانُ الفلا   قد ملَّ قلبي في الدجى سَماعَها[2]

فالشـــاعر يتشاءم بصوت الغراب ، لأنّه ينذر بالبين ، والفراق . فكيف إذا اجتمع ذلك مع ظلام الليل ؟ ويقول في موضع آخر ذاكرا غراب البين ، ومعاتبا له :

وكيف يجيبـــني رســـمٌ مُحيـــلٌ   بعيدٌ لا يَردُ على ســؤالـــي ؟

إذا صـــاح الغراب به شـــجاني   وأجرى أدمعي مثل الـــلآلي

وأخبرنـــي بأصناف الـــرزايـــا   وبالهجران من بعد الوصـــال

غرابَ البيـــن ما لَكَ كلّ يـــومٍ   تعاندني وقد أشـــغلتَ بـــالي ؟

كأنّـــي قد ذبحـــتُ بحَدّ ســـيفي   فراخَك أو قنصتك بالحبـــال[3]

والشـــاعر في هذه اللوحة يقف أمام غراب البين ، ويعاتبه على ما أنزل به من المصائب ، وما يثـــيره في نفسه من الهموم ويظهر تشاؤم الشاعر من الغراب ، فقد سكن هذا الغراب الديار بعد رحـــيل أحـــبابه ، فحلّ فيها السواد ، لون الموت والخراب ، محلّ بياض الظاعنين ، لون النور والحـــياة ، وقد أخذ هذا الغراب بالنعيق الذي ينفطر القلب له ، ويثير في النفس الأسى والحزن لأنّه لا يأتي إلاّ بالمصائب والفراق . وعنترة في هذه الأبيات يبدو شديد الأسى واليأس إذ يشعر أنّ هذا الغراب قد أصبح عدوّا له ، يفسد عليه ملذّاته في هذه الحياة ، وهو يستنكر هذا الموقف مـــن الغـــراب الـــذي لم يؤذه قط ، فهو لم يصطد هذا الغراب أو يذبح فراخه فعلام يعاديه بهذا

---

[1] النابغة الذبيانيّ : ديوانه . ص 38

[2] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 81

[3] السابق ، ص 104

الشكل المبرح ؟ وهذا الأمر يؤكّد أنّ سواد الغراب كان كسواد الليل من أشدّ أعداء المرء في تلك البيئة الصحراويّة التي تضنّ على الإنسان بالمرح والسرور كما تضنّ بمواردها الطبيعيّة .

وشبيه بالغراب ما جاء في ذكر العقاب ، وهو طائر أسود اللون كذلك ، وقد تشاءم العرب بـه لسـواده ، ولارتباطه بالمعارك والدماء والقتل ، فالعقاب من الطيور الجارحة التي تقيم في أرض المعـارك لتتغذّى على أشلاء القتلى ، وتلعق دماءهم المتخثّرة على الأرض ، وفيه يقول طرفة :

نَذَرُ الأبطال صَرْعى بينَها تَعْكِفُ العِقبان فيها والرَّخَم[1]

وفـيه يصوّر العقبان وهي تعكف في أرض المعركة تقتات من جثث القتلى الذين لا يجدون من يواريهـم الثرى . منظر من أكثر المناظر المخيفة للإنسان ، فهو لم يمت فحسب بل أهين جسده وترك في العراء كالجِيَف . وفي ذكر العقاب واقترانه بالموت يقول عنترة :

وكم من فارس أضحى بسيفي هَشِـيمَ الرَّأسِ مَخْضوبَ البَنانِ

تحـوم عليه عقبـان المنايـا وتحجـل حولـه غربـان بَيْنِ[2]

فربط بين الموت والعقاب لأنّ العقبان تجتمع على جثّة القتيل .

والسـواد بشـكل عـام مرتبط بالموت والشؤم وضنك العيش ، فالشراب المميت يوصف بالسواد لقول طرفة :

ألا إنّني شربت أسود حالكا ألا بَجَلِي من الشَّراب ألا بَجَلْ[3]

والأسـود الحـالك هنا هو كأس الموت من باب الكناية . وهو لون مكروه مشؤوم في سياقات عديدة ، فقد جعله الأعشى لون الفقر ، والجوع ، والبرد ، وفي ذلك يقول :

وإذا القيانُ حَسِبْتَهـا حَبَشِيَّةً غُبْرا وقَـلَّ حَلائبُ الأرْفَـاد[4]

وهـو يقصـد بذلـك أنّ القيان قد اسودّت بسبب البرد الشديد ، والجوع ، مما غيّر لونها وبدت شاحبة ، متلبّدة الشعر ، مغبرّة بسبب الفقر . ويقول في موضع آخر :

كأنّ نخيل الشطّ غِبّ حريقه مآتِم سودٌ سَلَّبَتْ عنـد مأتِم[5]

---

[1] طرفة بن العبد : ديوانه . ص 77

[2] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 142

[3] طرفة بن العبد : ديوانه . ص 62

[4] الأعشى : ديوانه . الأرفاد : جمع رفد وهو القدح العظيم .

[5] الأعشى : ديوانه . ص 184

وهـــو يذكر في هذا البيت النساء اللاتي لبسن ثياب الحداد ، ويشبّه النخل المحروق بهنّ ، وكلا الصـــورتين تبثّ في النفس الحزن ، والشؤم ، فقد حلّ السواد محلّ خضرة النخيل ، كما أخفت النســـاء بياضهنّ بالسواد ، وذلك للدلالة على الحزن ، والأسى . وفي هذا المعنى يقول لبيد بن ربيعة :[1]

في رَبْرَبٍ كنعـــاج صا   رة يَبْتَئِـــسن بما لقينـــا[2]

متســـلّبات في مُسُــو   ح الشعر أبكارا وعُونـــا[3]

وقـــد شـــبّه النساء بقطيع من البقر الوحشيّ الأبيض ، ولكنهن يشعرن بالبؤس ، ولذا فقد لبسن شعاره وهو السواد ، وهو يرجو ألا يرى نفسه خاسرا ، وأن يحدث لنساء قومه هذا الأمر .

ولهـــذه المعاني جعل طرفة بعيره مطليّا بالقطران بدلا من ذكر اسم المرض ، عندما شبّه نفسه بالبعير الأجرب لبعد الناس عنه وتحاشيهم له ، وذلك في قوله :

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها   وأُفْرِدْتُ إفراد البعير المُعَبَّـــد[4]

فقد ذكر الطلاء بالقطران من باب كره هذا اللون الذي يجتمع مع المرض الذي يصيب البعير ، وكلاهما سبب في نفور الناس منه وبعدهم عنه .

ولمـــا للســـواد مـــن هذه المعاني السلبيّة المقيتة جعل الشعراء الآثار الباقية في الديار بعد رحيل الأهل عنها سوداء ، دليلا على الموت والخراب ، وفي الأطلال يقول عنترة :

ولقد حَبَسْتُ بها طويلا ناقتي   أشـــكو إلى سُفْعٍ رواكِدَ جثَّمِ[5]

وهو يقصد بالسفع هنا الأثافي السوداء ، وهي أبرز ما يسترعي نظر الشاعر في الأطلال ، ماثلةً بسوادها بعد رحيل الظعن ، وفي الأطلال يقول عبيد بن الأبرص :

مقفراتٍ إلاّ رمـــادا غبيّا   وبقايا من دمنـــة الأطـــلالِ

وأواريّ قد عَفَـــوْنَ ونُؤيا   ورسومـــا عُرِّينَ مُذْ أحْوالِ[6]

فقـــد أقفـــرت الديار ولم يعد يظهر فيها سوى آثار المكان الذي كان يستخدم للتخلّص من روث الحـــيوانات ، وهذا المكان عادة ما يكون أسود أو مائلا إلى السواد ، والمواقد السوداء ومسائل الماء الجافّة . وفي هذه اللوحة يظهر السواد وقد انتشر في المكان حتّى بدا كالثياب السوداء التي

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 264

[2] الربرب : القطيع من البقر الوحشيّ . صارة : موضع . يبتئسن : يشعرن بالبؤس .

[3] أبكار : جمع بكر ، وهي العذراء . العون : جمع عوان ، وهي متوسّطة العمر .

[4] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 25

[5] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 117

[6] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 95

تلبس في الحداد ، فالسواد في لوحة الأطلال دليل على الموت والدمار ، وليس كما رأى بعض الدارسين ، الذين جعلوه دليلا على الحياة الباقية رغم عوامل الطبيعة[1].

ومع أنّ الإبل السوداء كانت من أنجب الإبل عند العرب إلاّ أنّ الشعراء ركّزوا على ذكر البياض في العطايا والهبات ، كما في قول النابغة :[2]

الواهبُ المائةَ المَعْكاءَ زَيَّنَها سَعْدانُ تُوضِحَ في أوْبارِها اللِّبَدِ[3]

والأُدْمُ قد خُيِّسَتْ فُتَلا مرافِقُها مشدودةٌ برِحالِ الحِيرَةِ الجُدُدِ[4]

فجعل عطيّة النعمان لطالبيه مائة من الإبل السمينة القويّة البيضاء ، السليمة من المرض ، مع رحالها الجديدة التي جلبت من الحيرة الشهيرة برحالها ، وهي صفات تدلّ على جودة الإبل وحسن العطيّة ، وقد جعل البياض إحدى هذه الصفات لحسن اللون الأبيض في الإبل . ويقول في موضع آخر :[5]

حِباؤكَ والعِيسُ العِتاقُ كأنّها هِجانُ المَها تُحْدى عليها الرَّحائلُ[6]

فقد جعل الإبل المساقة في العطيّة بيضاء اللون تشبه في بياضها البقر الوحشيّ . وقد ركّز الشعراء على هذا اللون في العطيّة ، مع أنّ الإبل السوداء من انجب الإبل كما يفهم من قصة حسّان بن ثابت وغيرته من منزلة النابغة لدى النعمان[7] ، بعدا عن ذكر السواد الذي قد يوحي بالشؤم .

ومن باب الشؤم لا النجابة جعل عنترة الإبل الظاعنة سوداء اللون كالغراب ، وذلك في قوله :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم[8]

وقد تمّت مناقشة البيت في الفصل الثاني ، لبيان موقف الشاعر من هذه الإبل ، وسبب اختياره لهذا اللون.

---

[1] القرعان ، فايز عارف سليمان : **الوشم و الوشي في الشعر الجاهلي** . ص 95 – 117

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 34

[3] المعكاء : الغلاظ الشداد . السعدان : نبت تسمن عليه الإبل . توضح : موضع . اللبد : ما تلبّد من الوبر .

[4] الأدم : البيض من النوق . خيست : ذلّلت . الفتلاء : التي بانت مرافقها عن آباطها فلا يصيبها مرض يمنعها من السير .

[5] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 89

[6] الحباء : العطاء . العيس : الإبل البيضاء . هجان المها : بيضها . تحدى : تساق .

[7] ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري : **الشعر والشعراء** . بيروت : دار الثقافة . ج1 . ص 98 – 99

[8] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 119

أمّـــا الأبـــيض فقد كان لون الطهارة وشرف النسب ، كما كان لون النور والحياة ، ولون القداســـة والعبادة ، ولذا فقد جعل الشعراء الحيوانات التي تسكن الأطلال بعد أن يرحل الناس ، ويتّشح المكان بالسواد ، بيضاء اللون كما يظهر في قول زهير بن أبي سلمى :[1]

بها العين والآرام يمشين خِلفة وأطلاؤها ينهضن من كلّ مَجْثَم[2]

وهو لم يكتفِ بجعل هذه الحيوانات تتجوّل فيها بل أشار أيضاً إلى أنّها وضعت صغارها فيها ، وهـــي تحـــاول السير في كلّ مكان ، وهذا مؤشّر على عودة الحياة إلى المكان ، والتغلّب على عنصر الموت متمثّلاً بسواد الأثافي ونحوها ، وفي هذا المعنى يقول عبيد بن الأبرص :[3]

بُدِّلَت منهم الـــدِّيار نعاما خاضبـــاتٍ يَزْجين خَيْطَ الرِّئال[4]

وظباءً كأنـــهنّ أبـــاريـــ ـــقُ لُجَـــيْنٍ تحنو على الأطفال

وقـــد جعـــل الـــنعام والظباء تسكن في الديار ، أمّا النعام فلوّن أرجلها بالأخضر لون الخصب والخلـــود ، ولا شـــكّ أنّ هذا اللون لن يظهر في السواد ، وأمّا الظباء فجعلها بيضاء نقية اللون كأنهـــا أباريق فضّة ولم يكتف بذلك بل جعلها مطفلة ليقول لنا أنّ هذا المكان أصبح مليئاً بالحياة لمـــا فـــيه من خضرة الرّبيع وبياض الحيوان ، ولأنّه مكان مناسب للولادة والتكاثر . كل ذلك يوحي بالتفاؤل ويبعث الأمل في النفوس . ويقول في موضع آخر :

دارٌ بها عِيْنُ الـــنِّعاجِ رَواتِعاً تَغْدو مَســـارِبَـــها مع الآرام[5]

وهنا أسكن النعاج وهي البقر الوحشيّ الأبيض ، والظباء في الديار أيضاً من باب التفاؤل وقهر عناصر الموت المخيّمة في المنطقة ماثلة بالسواد .

ويُلحـــق بالبـــياض أيضـــاً البرق ، وهو ضوء لامع سريع يمرّ بالشاعر فيثير فيه البهجة والأمل ، ويدعوه إلى التفاؤل والسعادة ، لا سيّما في جوّ مظلم ممتلئ بالهموم والأحزان . ومما جاء في ذكره قول عبيد بن الأبرص :

---

[1] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 67

[2] العين : واسعات العيون ، ويقصد بها البقر الوحشيّ . الآرام : جمع ريم وهو ولد الظبي الأبيض الخالص البياض . خلفة : يخلف بعضها بعضا . الأطلاء : وهو ولد الظبية أو البقرة . المجثم : مكان الجثوم الذي هو بمثابة البروك للبعير.

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 95

[4] خاضبات : اخضرت أرجلها من أكلها البقل في الربيع . يزجين : يسقن . الخيط : الجماعة . الرئال : جمع رأل : فرخ النعام .

[5] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 113

يا من لِبَرْقٍ أَبِيتُ الليلَ أَرْقُبُه   في مكفَهِرٍّ وفي سوداءَ مَرْكومَه[1]

وهـــو هنا يذكر البرق ويبدو متفائلاً به ، إذ يسهر ليله منتظراً له ومترقّبا ظهوره ، والسبب في ذلك ما اجتمع من الليل وشدة ظلامه ، وتراكم السحاب فيه مما زاد الظلام ظلاماً ، والظلام كما تقـدّم يوحـــي بالبؤس والخوف والأحزان ولذا فقد بات الشاعر أرِقاً باحثاً عن هذا البرق الذي يحمل معه عادة البشرى بعام خصيب ، فالبرق هنا يوحي بالخير والفرح لما فيه من أمل وتسرية هموم . وفي هذا المعنى يقول امرؤ القيس :

تَبَصَّرْ خليلي هل ترى ضَوْءَ بارقٍ   يُضيءُ الدُّجى بالليل عن سَرْوِ حِمْيَرا[2]

فهـــو يطلـــب من البرق أن يضيء له الظلام ليلاً ليبصرَ أعالي حمير ، ويدلّنا أنّ الشاعر تذكّر الـــبرق وأخذ يبحث عنه في ساعة الخوف والهموم ما جاء في البيت السابق لهذا البيت إذ يقول فيه :

فهل أنا ماشٍ بين شَرْطٍ وحَيَّةٍ   وهل أنا لاقٍ حَيَّ قَيْسِ بن شَمَّرَا[3]

فهـــو لا يدري أهو ماشٍ وسط خطرٍ عظيم أم أنّ حيّة ستهاجمه ؟ وهو لا يدري إن كان سيصل إلى ذلك الحي الذي ذهب إليه مستجيرا أم لا ؟ وقد تولّدت هذه المخاوف وتراكمت بسبب الظلام فراح الشاعر يبحث عن النور المستمدّ من البرق .

وممـــا يؤكّـــد لنا أنّ الشعراء تفاءلوا بالبرق للونه أكثر من تفاؤلهم به لأنّه سبب المطر ما نجده في شعر عنترة الذي أمضى حياته يائسا مقاتلا ، ولياليه بالهموم والأحزان والبكاء [4]، فهو يذكر البرق في ثلاثة وثلاثين بيتا ، منها ثلاثة أبيات فقط ذكر فيها البرق الذي يظهر في السماء مصاحبا لعارض المطر ، أمّا البقيّة فأكثرها في بريق السيوف في قتام المعارك ، فالمقصود من ذكـــر البرق إذن هو ذكر اللمعان والبياض في الجوّ الحالك ، وليس لصلته بالمطر وكونه دليلا على قدومه إن لم يكن مصاحبا له . ومما جاء في البرق عند عنترة قوله :

وبوارقُ البِيْضِ الرِّقاقِ لَوامِـــعٌ   في عارضٍ مثلِ الغَمام المُـــرْعِدِ

---

(1) عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 111

(2) امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 98

(3) شرط : خطر عظيم .

(4) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 102 ،103، 134

وذوابلُ السُّـمْرِ الدقاقِ كأنَّهــا   تحت القَتام نُجومُ ليـلٍ أسـودِ[1]

فالمنظر الذي يريح الشاعر ويأنس به هو بريق السيوف والرماح ، لأنّها تلمع في جوّ قاتم مظلم، فتكون داعيا للأمل في هذا السواد الكثيف . ويقول في قصيدة أخرى :

هجرت البيوتَ المُشْرِفاتِ وشاقَني   بَريــق المواضي تحت ظِلّ قتــام

....

إذا أشرعوها للطِّعــانِ حَسِبْـتَها   كواكــب تُهْديهــا بُدورُ تَمــام

وبِيْضُ سيــوفٍ في ظِلالِ عَجاجَةٍ   كَقَطْرِ غَــوادٍ في سَــواد غمام[2]

وهو يخبرنا أنّه قد ملّ سكنى البيوت التي لا تريه سوى الهموم والأحزان لطول الليالي وانعدام الأمــل بالوصــول إلى عبلة ، واشتاق إلى رؤية بريق السيوف وسط غبار المعركة لما فيه من بياض وإشراق . ثمّ يتحدّث عن الرماح التي تشبه عند إبرازها للطعان النجوم اللامعة ، ويعود إلى ذكر السيوف وبريقها ، الذي يشبّهه في غبار المعركة بالبرق الذي يلمع في الغيوم السوداء . كلّ ذلك يؤكّد أنّ الشاعر يتفاءل بهذا البياض الخاطف في ذلك السواد القاتم ، لأنّه يؤكّد للشاعر أنّ السـواد مهمــا كــان حالكــا فهــو ليس سَرْمديّا عليه ، بل لا بدّ من زواله ، كيف لا وهذه الومضات الخاطفة تعمل على تبديده وإنارة السبل كلّما بدت ؟ ومهما كان الظلام حالكا فإنّ بذرة النور تبقى حيّة ، وسرعان ما تنتصر بقدوم صبح جديد .

أمّــا بــياض الشــيب فهو ، على العكس من دلالات الأبيض الأخرى ، لون يثير الحزن والكآبــة ، لأنّه ينذر بالموت والوهن ، ولذا فهو بياض مكروه تنفر منه النفس وتبتئس لمرآه ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :[3]

قالت سُليمى أراك اليوم مكتئبا   والرأسُ بعدي رأيتُ الشّيْب قد عابه

وحارَ بعد ســواد الرأس جُمَّتَهُ   كَمِعْقِب الرَّيْطِ إذ نَشَّــرْتَ هُدّابَه[4]

وهــنا نجــد الشيب قد بدأ بالظهور في رأس الشاعر مما دعاه إلى الاكتئاب والشعور بالحزن ، ونجد المرأة تقرّ له بذلك بدلا من مواساته ورفع معنويّاته ، إذ اعتبرت الشيب عيبا ألمّ بالشاعر وأصــبح جــزءا منه لن يفارقه أبدا . ويتّضح سبب هذا الاكتئاب من الشيب في موضع آخر إذ يقول :

---

[1] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 57

[2] السابق ، ص 136

[3] امرؤ القيس : ديوانه . ص 80

[4] حار : عاد . المُعقب : الخمار للمرأة . الريط : مفرده ريطة ، وهو الملاءة إذا كانت قطعة واحدة .

أراهنّ لا يُحْبِبْنَ من قلّ ماله ولا من رأينَ الشّيْبَ فيه وقَوّسا[1]

فالسبب في ذلك كما يرى الشاعر هو ما يعتري كبير السنّ من الوهن والعجز مما يصرف عنه النســاء ، فهــو يرى في هذا البيت أنّ النساء ينصرفن عن حبّ الرجل إذا كان فقيرا أو إذا بان الشيب في رأسه وانحنى ظهره من الكبر .

وفي كره الشيب أيضا يقول عبيد بن الأبرص :[2]

بانَ الشباب فآلى لا يلمُّ بنـــا واحتلّ بي من مُلِمّ الشّيب مِحْلال[3]

والشيب شَيْن لمن يحتلّ ساحَتَه للهِ دَرّ سَــوادِ اللِّــمّة الخالـــي

فالشـــاعر يأسف على شبابه الذي فارقه بلا عودة ، واعتبر الشيب مصيبة قد نزلت به ، فاحتلت المكان وأقسمت ألاّ تفارقه ، ويقول في البيت الثاني إنّ الشيب عيب ، وهو مُشين لصاحبه ، ثمّ يعود ليترحّم على شبابه الذي ولّى وانقضى . وهنا يقارن الشاعر بين الشباب والشيخوخة ماثلين فـــي سواد الشعر وبياضه ، فيأسف على الشباب ويترحّم عليه بينما يعيب الشيب ويلحيه . وهو يقول في موضع آخر ذاكرا زوجته :

ومطّتْ حاجبَيْهــا أنْ رَأتْــني كَبِرْتُ وأنْ قد ابْيَضّتْ قُروني[4]

وقد ذكر في هذا البيت إعراض زوجته عنه ، وتبرّمها لما يعتريه من الشيب والكبر ، ليدافع بعد ذلــك عن نفسه ، ويحاول أن يثبت لها أنّه ما زال قادرا على وصل النساء على الرغم من هذا البياض الذي ألمّ بذوائبه . ويؤكّد الأعشى كره النساء للشيب بقوله :

وأجْمَعَتْ صَرْمَنا سُعدى وهجرَتَنا لمّا رأت أنّ رأسي اليوم قد شابا[5]

فالســبب الوحيد لغضب سُعدى وهجرها له بياض الشعر ، الذي لم يكن بالإمكان إخفاؤه عنها . وهذا البيت يشير إلى الصلة بين كره الشيب والمقدرة الجنسيّة للرجل .

ولــم يكــره الشــيب للــرجل فحسب وإنّما كره للمرأة أيضا ، فهو نذير العجز، واختفاء الجاذبيّة، والجمال، ودلال الصبا . ولذا فقد كانت تحاول أن تخفيه بالخضاب بالحنّاء أو الكَتَم .

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 118

[2] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 104 ــ 105

[3] بان : فارق . آلى : أقسم . ألمّ به : زاره . احتلّ : نزل . محلال : كثير . وفي البيت إقواء .

[4] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 122

[5] الأعشى : **ديوانه** . ص 13

وفي ذلك يقول الأعشى :[1]

ولقد ساءها البياض فلطّت بحجاب من دوننا مسدوف[2]

فقد كرهت هذه المرأة الشيب ، الذي أصابها ، فقامت بستره بالخضاب لتخفي ما بدا منه في شعرها .

أمّا عنترة فهو حين يذكر الشيب يحاول أن يجد له وصفا مبهجا تأنس به النفس ، فيشبّهه بالصبح ليخفّف من شؤم هذا الشيب ، فكأنّ لونه الأبيض يشفع له ، وفي ذلك يقول :

ذنبي لعبلةَ ذَنب غيرُ مُغْتَفَر لمّا تبلّج صبح الشيب في شعري[3]

فهو يرى أنّ هذا الشيب سوء لا مفرّ منه ، ولذا لا سبيل إلى طلب المغفرة من عبلة لأنّه لا يستطيع قهره أو التخلّص منه ، ومع ذلك فقد حاول تخفيف حدّة السوء فشبّه بداية ظهوره بإشراق الصباح لما فيه من بياض يسطع خلال سواد الشعر .

وهو يرى أنّ سبب الشيب ليس الكبر في السنّ فحسب بل ما يلمّ بالإنسان من المصائب والخطوب ، وفي ذلك يقول معقّبا على مواقف البطولة التي خاضها :

تلك الليالي لو يمرّ حديثُها بوليد قوم شاب قبل المحمل[4]

فهو يرى أنّ ذكر الليالي التي مرّت عليه ، بما فيها من أخطار ومواقف البطولة ، إذا مرّ بطفل حديث الولادة شابَ رأسه قبل أن يبلغ سنّ الحمل ، فالمصائب عنده سبب في ظهور الشيب كطول العمر ، ويقول في موضع آخر :

سائلي يا عبيل عني خبيراً وشجاعاً قد شيّبته الحروب[5]

فكثرة حضور المعارك تجلب الشيب للفارس لهول ما يرى فيها . ومن هنا نلاحظ أنّ الشيب مكروه سواءً لاقترانه بالكبر والتقدم في السِّنّ ، أو لأنه ناتج عن المصائب والأهوال ، وكلاهما مما يسبب الذعر واليأس للإنسان ، فكان بياض الرأس مكروهاً لهذا السبب .

وبين الأبيض والأسود يأتي لونا الغبار والرماد . وقد تشاءم العرب بهما لأنّ الرّماد لون يتخلّف عن النار والحريق ، أمّا الغبار فقد اعتقد العرب – كما أسلفنا – أنّ الغبار لا يثور إلاّ

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 13

[2] لطّت : سترت . المسدوف : المرخي .

[3] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 68

[4] السابق ، ص 114

[5] السابق ، ص 20

عند موت زعيم من الجنّ وغضب الجان لذلك وتجمّعهم للانتقام . ولذا فقد كان لون الغبار يثير الرعـــب والرغبة في الانتقام ، ولون الرّماد يثير اليأس والشعور بالعدم . وقد اقترن لون الغبار بالمعارك ، وأكثر الشعراء من ذكره ووصفِ قتامه ، وفيه يقول عنترة :

وما أبْعَدتُ حتّى ثار خلفي غبارُ سَنابك الخيلِ العِتاقِ

وطبَّـــقَ كلَّ ناحيةٍ غبـــارٌ وأُشْعِـــل بالمُهَنَّدَةِ الرِّقاقِ[1]

والشـــاعر يذكـــر هذا اللون هنا ليدلّ على شدّة المعركة ، ويثير رعب الأعداء منه ، فقد أثارت الخـــيل الغـــبار بحوافرها ، فانتشر في كلّ مكان لسرعتها وأظلم الجوّ لكثرة ما فيه من الغبار ، ولذا فلينتظر الأعداء الموت والهزيمة . ويقول في موضع آخر :[2]

وخيلٍ تحملُ الأبطالَ شُعثاً غداةَ الروع أمثال السِّهام

عَناجيجٍ تَخُبُّ على رَحاها تُثيرُ النَّقع بالموت الزؤام [3]

وهـــو هـــنا يصـــوّر الخيل وقد امتلأت بالغبار ليزيد من خوف العدو منها ، ويربط بين الغبار والموت ، فهذا الغبار الذي يثور ما هو إلاّ موت تحمله الخيل وتهديه للأعداء . وعنترة إذ يذكر هذا الغبار فإنّه يكثّفه من أجل أعدائه بينما هو يفرح به ويبتهج لما تقدم من حبّه للموت وابتهاجه كواحد من الآلهة السلبية التي تمثّل الموت والدمار ، وفي ذلك يقول : [4]

نديميَّ إمّا غِبتُما بعد سَكرةٍ فلا تذكرا أطلال سلمى ولا هند

ولا تذكرا لي غيرَ خيلٍ مُغيرةٍ ونقعَ غبارٍ حالك اللون مسودّ

فإنّ غبار الصافنات إذا علا نَشقتُ له ريحاً ألذَّ من النَّدِّ [5]

والشـــاعر هـــنا يفضّـــل حديث الخيل المغيرة وغبار المعارك الحالك على ذكر الأطلال والغزل ، ويرى أنّ رائحة الغبار التي تثيرها الخيل الكريمة أطيب في أنفه من رائحة الطيب . ولا أدري إن كان ذكر الخيل الكريمة هنا محض فخر بكرم خيله أم بتأثير من الربط بين الغبار وزعماء الجنّ ؟ فكرم الخيل يدلّ على كرم الفرسان وعلوّ منزلتهم ، ولا شكّ في أنّ الجان الذين يثورون عند مقتل زعيم منهم لا بدّ أن يكونوا كرماء النسب ، ومن سادة القوم .

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص92

[2] السابق ، ص130

[3] عناجيج : جمع عُنجوج بالضمّ ، وهو النجيب من الإبل ، وقيل : هو طويل العنق من الإبل والخيل . تخبّ على رحاها: تسرع حين تُسرع .

[4] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص51

[5] الصافنات من صفن الفرس ، إذا قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرّابعة وهي علامة كرم . نشق : شمّ . النَدّ (بالفتح ويُكسَرْ) طيب أو العنبر .

وقد يرد لون الغبار في وصف الناس دون حرب ، وحينها يكون دليلاً على الفقر والجوع أو ذل الأسر كما في قول طرفة : [1]

تبيتُ إماءُ الحيّ تَطْهي قُدورنا   ويأوي إلينا الأشعثُ المُتجرِّفُ [2]

فقد وصف الفقير بالأشعث لما يعلوه من الغبار ، ولبعده عن الغسل والترجيل . وفي ذلك أيضاً يقول الأعشى :

وأرملةٍ تسعى بشُعْثٍ ، كأنّها   وإياهُمُ رَبْدَاءُ حثّتْ رِئالَها[3]

فقد شبّه الأرملة وأولادها بالنعامة التي تكون بلون الغبار لكثرة ما يعلو أبناءها ويعلوها من الغبار ، وهي علامة فقر وبؤس . وبذا يكون لون الغبار لون يبعث البؤس والخوف والشؤم في النفس ، لصلته بالحرب أو كونه صفة للفقراء والمعوزين .

أمّا لون الرماد فهو لون يوحي بالموت والدمار إذ يذكّر بالرماد المتخلّف عن الحريق ، ولذا فقد كثر ذكره في الأطلال إلى جانب السواد ليكون من مؤشّرات الموت في المكان إلى جانب رحيل المرأة ، واتّشاح الطلل بسواد الأثافي . وفيه يقول زهير بن أبي سلمى :[4]

وغيرُ ثلاثٍ كالحمام خوالدٍ   وهابٍ مُحيلٍ هامدٍ متلبّدِ[5]

وهو يقول في هذا البيت إنه لم يبق في الديار سوى الأثافي وهذا الرماد ، فجعل من السواد ولون الرماد وشاحاً يتقلده المكان دلالة على الموت والخراب .

أمّا لون الدم فهو لون يثير الخوف وينذر بالقتل ، ولذا فهو لون كريه لا سيّما في المعارك، وفي ذلك يقول عنترة :

وما هزّ قومٌ رايةً للقائنا   من الناس إلا دارهم مُلِئت دما[6]

فجعل الدم دليلاً على ما أصابهم من البلاء والقتل ، ويقول في موضع آخر :

وبدرٍ قد تركناه طريحاً   كأنّ عليه حلّة أرجوانِ
شككتُ فؤاده لمّا تولّى   بصدرِ مُثقّفٍ ماضي السّنانِ

---

[1] طرفة بن العبد : ديوانه . ص 55

[2] الأشعث : المغبّر الشعر . المتجرّف : الذي جرفت الأيام ثروته وماله

[3] الأعشى : ديوانه . ص 139

[4] زهير بن أبي سلمى : ديوانه . ص 26 / وينظر عبيد بن الأبرص : ديوانه . ص 95

[5] الثلاث : حجار الموقد . خوالد : مقيمات . هاب : رماد عليه غبره مع طول القدم . محيل : مضى عليه حول . متلبد : ملتصق ببعضه لما نزل عليه من الأمطار .

[6] عنترة العبسيّ : ديوانه . ص 137

فخرّ على صعيد الأرض مُلقىً   عفيرَ الخدِّ مخضـــوب البنان[1]

وهـــنا يبرز لون الدم ماثلاً في هذه اللوحة حيث تُرك الرجل ودمه ينزف فبدا لما عليه من الدم وكأنّه يرتدي ثوباً أرجواني اللون ، ويده كأنّها مخضوبة بالحنّاء ، وهذه الحمرة توحي بالرعب والخوف لأنّها نابعة من لون الدم الذي يدلّ على الموت .

ولـــذا فقـــد كـــره الشعراء هذا اللون وأصبح عندهم دليلاً على الشّر ، كما يظهر في قول النابغة :

فإياكم وعُوراً داميـــاتٍ   كأنَّ صلاءهنَّ صــــلاءُ جَمْرِ[2]

ويقصــــد بالعور الداميات هنا قصائد الهجاء فجعلهن عوراً من باب التمثّل بطقوس الساحر حيث يعصب عيناً وينتعل الحذاء في رجلٍ واحدة ، ويربط قرناً من شعره ويرسل الآخر ، ويطلي شقاً من وجهه بالأحمر ، ويخضب يداً دون أخرى وكان الشعراء يفعلون ذلك عند الاستعداد للهجاء[3].ثـــم جعلها دامية لتشاؤم الشعراء بهذا اللون ، وللتأكيد على الشرّ الذي سيلحق بهم منها وشبّه شدّة وقعها عليهم بالنّار التي تحرق كلّ ما تمسّه .

ويقول في موضع آخر :

وتُخضبُ لحيةٌ غدرت وخانت   بأحمرَ من نجيـــع الجوف آنـــي[4]

فجعـــل الخضـــاب بالدم دليلاً على الغدر والخيانة ، وذلك لأنّ الخائن سوف يلاقي حتفه فتسيل الدماء على لحيته ، فلا أمن لمن لا أمانة له .

وفي التشاؤم من الأحمر يقول الأعشى :[5]

إذا احمرّ آفاق السماء وأعصفت   رياح الشتاء واستهلّت شهورها

تَرَيْ أنّ قِدْري لا تزال كأنّها   لذي الفَرْوة المقرور أُمّ يزورها[6]

فجعـــل حمرة السماء دليلا على المحل والفاقة ، ليخبرنا بعد ذلك إنّه كريم ويبقى على هذا الكرم فـــي هذه الظروف العصيبة التي تنذر بها حمرة السماء ، لأنّ العطاء وقت الشدّة أو في سنوات الجوع والمحل يدلّ على سماحة النفس .

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 149

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 58

[3] الأصفهاني : **الأغاني** . ج4 ص 143

[4] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 120

[5] الأعشى : **ديوانه** . ص 67

[6] المقرور : الذي أصابه البرد .

وفي هذا المعنى يقول طرفة بن العبد :[1]

وإنّا إذا ما الغيم أمسى كأنّه   سَماحيق ثَرْبٍ وهي حمراء حَرْجَفُ[2]

فقد شبّه الغيوم الحمراء الرقيقة بقطع من الشحم المختلط بالدماء ، ليجعل منها دليلا على المحل والفقر الذي يتبعه ، ومن ثمّ دليلا على كرم قومه ، وعطائهم الذي لا يوقفه قحط أو فقر .

ومـن أكثر مواطن الحمرة التي تشاءم بها العرب ما يظهر منها في الإنسان ، مثل : لون البشـرة ، ولـون العين ، ولون الشعر ، فكلّها سمات تدلّ على العداء والخطر ، وتنذر بالهلاك والإشراف على الموت ، وفي ذلك يقول زهير ابن أبي سلمى في حديثه عن الحرب :

فتنتجْ لكم غِلمانَ أَشْأَم كلّهم   كأحمرَ عاد ثمّ تُرْضِع فتفطم[3]

فقـد شـبّه الحـرب بالناقة التي ستلد العديد من الأبناء ، ولكنهم غلمان شؤم سيتبعهم الخراب والدمار ، وهم بذلك كأحمر عاد الذي عقر ناقة صالح فأوجب العذاب على قومه ، وكان سببا في هلاكهم .

وفي التشاؤم من الأحمر في الإنسان يقول عبيد بن الأبرص :[4]

كعومِ السفين في غَوارب لُجّةٍ   تكفّئُهـا في ماء دجلـةَ ريحُ[5]

جوانبُها تَغْشى المَتالِف أشرَفَت   عليهنّ صُهْبٌ من يهود جنُوح[6]

وهو يشبّه بهذه السفينة في تمايلها . ويظهر لنا الخطر الذي يحيط بالسفينة المتمايلة بين الأمواج في مناطق خطرة وسط البحر ، والشاعر يعلن عن خطر الإبحار في هذه السفينة ولذا فقد جعل ملاّحـيها مـن الـيهود ذوي الشعر الأحمر ، فكانت حمرة الشعر عنده دليلا على الشؤم وتوقّع الشرّ.

أمّا عنترة فقد أحبّ هذا اللون ، وتغنّى به فكان يرى الموت أمرا لازما للأعداء ، ويبتهج برؤية القتلى والأشلاء لأنّه يشفي غليله منهم ، وفي استعذابه لهذا اللون يقول :

---

[1] طرفة بن العبد : **ديوانه** . ص 55

[2] سماحيق : غيم رقيق ، مفردها سمحاق . الثرب : قطع رقيق من الشحم . الحرجف : الشديدة .

[3] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص105

[4] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص39 ــ 40

[5] الغوارب : الأمواج . اللجّة : الماء الكثير . تكفّئها : تميلها .

[6] تغشى : تدخل . المتالف : الأماكن الخطيرة . صهب : حمر الشعر . جنوح : مائلون .

ويصحبني إلى آل عبس عصابةٌ   لها شــرف بين القبائــل يمتــدّ
بَهاليلُ مِثْلُ الأُسْدِ في كلِّ مَوطنٍ   كأنّ دَمَ الأعداء في فَمِهم شَهْــدُ[1]

فهــو من عصابة تعشق رؤية الدماء تسيل من الأعداء ، ويطيب لها شرابه ، فالدم عندهم أطيب من الشهد لأنّه يدلّ على نصرهم وفتكهم بأعدائهم . ويقول في موضع آخر :

ودماؤهم فوق الدروع تخضّبت   منها فصارت كالعَقيقِ الأحمر[2]

فهــو يســتخدم للــون الدماء كلمة الخضاب ، وهو من الأمور المحبّبة إلى الإنسان ، كما يشبّه الــدروع وقد علتها الدماء بالعقيق الأحمر الثمين ، وهذا يدلّ على رضا الشاعر برؤية الدماء ، واستعذابه رائحتها ومنظرها اللذان يثيران النفور والاشمئزاز عند غيره من الشعراء ، وما ذلك إلاّ لتشــبيه نفســه بالآلهــة المرعبة التي تستعذب الموت والدمار فتهديه إلى كلّ من يعاديها أو يتوقّف عن التضحية والعطاء من أجلها .

وإذا كانــت الدمــاء دلــيلا على الرعب والقتل الذي يحلّ بالأعداء فهي دليل على النصر والغلبة للفريق الثاني الذي يقابل من حلّ بهم العذاب وغضب الآلهة ، ولذا فهي دليل نصر يساير الهزيمة التي تحلّ بالخصم ، فلا هزيمة بلا نصر . وقد وظّفها ابن كلثوم لهذا المعنى ، فقال :

بأنّــا نورد الرايــات بيضا   ونُصْدِرُهنّ حُمْرا قــد روينــا[3]

فقــد اســتبدل لــون الدماء الأحمر بالأبيض لون السلام وذلك للدلالة على قوّة قومه واقتحامهم الأخطار ، وإنذارا لعدوّهم بذلك . ويقول في القصيدة ذاتها :

كأنّ ثيابنــا منّــا ومنهم   خُضِبْن بأُرْجوانٍ أو طُلينــا[4]

وهــو هنا يشبّه الدماء على الثياب بالخضاب ، وبزهر الأرجوان الأحمر الجذّاب ، وذلك للدلالة علــى شدّة المعركة التي أدّت إلى سيلان الدماء من الفريقين ، وقد حظي الشاعر وقومه في هذه المعركة الحامية بالفوز والنجاة ولذا فهو سعيد بهذه الدماء التي جلبت لهم النصر . وممن ابتهج بهــذا اللــون عبــيد بن الأبرص ، ولكنّ ذلك كان في مجال الصيد لأنّ الدماء هنا ليست دماء بشريّة، ولأنّها أمّنت له الغذاء الذي يحفظ به حياته ، فقال واصفا فرسه :

---

[1] عنترة العبسي : ديوانه . ص 49
[2] السابق ، ص 71
[3] عمرو بن كلثوم : ديوانه . ص 68
[4] السابق ، ص 81

وإذا اقْتَنَصْنا لا يَجِفُّ خِضابُها   وكأنّ بِرَكْتَها مَداكُ عَــروسِ[1]

وقد شبّه صدر فرسه لكثرة ما يعلوه من دم الطرائد بالحجر الذي تسحق عليه العروس طيبها ، فيحمرّ لطول ملامسته للطيب ، كما استخدم كلمة الخضاب للدلالة على نشوته بهذا اللون .

وهذا يدلّ على أنّ لون الدم يرتبط في ذهن الشاعر بطقوس التضحية والفداء ، فهو يسعى إلـــى تقديم المزيد من الأعداء والأنعام والطرائد ، ويريق دماءها إرضاء للآلهة ، ولكنّه لا يريد أن يكون ممن يُذبحون ، فقد اعتاد الجاهليّون تقديم الأسرى لآلهتهم ، وكانوا إذا لم يجدوا أسيرا ذبحوا الإبل البيضاء[2]. ولذا فقد أحبّ بعض الشعراء لون الدم ، ورغبوا في الاستزادة منه ، في الوقت الذي كرهه عامّة الشعراء لأنّ طقوس الفداء قد تمسّ أبناءهم وأقوامهم .

والأحمر في مجال آخر كان لون الخضاب والثياب الفاخرة التي تدلّ على مكانة صاحبها واستحقاقه للقرابين ، ولون الجواهر التي لا يمتلكها إلاّ الأثرياء وذوي المكانة ، ولون الخضاب الـــذي تزيّـــن به النساء أيديهن وتستر به ما يظهر في الشعر من الشيب ، فهو بذلك لون بهيج يدعوا إلى التفاؤل والفخر ، وفي ذلك يقول عنترة :

إنّ الرِّجالَ لَهُمْ إليكِ وَسيلةٌ   إن يأخذوك تَكَحَّلي وتَخَضَّبي[3]

فالخضـــاب دليل زينة وسرور ، وينبغي للمرأة أن تتحلّى به لتحظى بمودّة الرجال وإعجابهم ، ولـــذا فهـــو لون يدعو إلى التفاؤل والمرح بعيدا عن الحزن ، وقد جعله عنترة سببا للسرور في قوله :

وقد هتفت في جُنْحِ لَيْـــلٍ حمامـــةٌ   مُغرّدةٌ تشـــكو صُروف زمـــانِ
فقلت لهـــا لو كنت مثلـــي حزينـــةً   بكَيْتِ بـــدَمْعٍ زائـــدِ الهَمَـــلانِ
وما كُنتِ في دَوْحٍ تَميسُ غُصونُه   ولا خُضِبَت رجلاك أحمرَ قاني[4]

فهـــو يرفض حزن الحمامة ولا يتقبّله لأنّها تحيا في بيئة مرحة لا يجوز لها الحزن فيها ، وهي الأغصان الخضراء ، لون الخصب والخلود . وجعل خضاب أرجلها بالأحمر من علامات الـــبهجة ، فـــلا يمكن أن يجتمع الحزن مع الخضاب الأحمر ، لأنّ الخضاب من وسائل الزينة والحزين لا يتزيّن . وفي استخدام الخضاب للزينة يقول الأعشى ، في وصف المرأة وقد شبّهها بالغزال :

---

[1] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 70

[2] شيخو ، لويس : **شعراء النصرانية** . ص 16

[3] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 18

[4] السابق ، ص 143

غَـرّاءُ تَبْـهَجُ زَولَـه   والكـفّ زيّنها خِضابـه[1]

فجعل الخضاب زينة تبتهج النفس بمرآها .

والأحمـر في المساكن لون يبعث الشعور بالجلال والتقديس ، وذلك لصلته بالدم والفداء ، كما أوضحنا في الحديث عن البعد الأسطوري للألوان ، وفيه يقول الأعشى :[2]

أهل القِبـاب الحمر والـ   ـنّعم المُؤبَّـل والقَنابـل[3]

فقـد جعل القباب الحمر دليلاً على السيادة ، ولذا فهو لون يوحي بالجلال والتقديس ومن ثمّ فهو يثير مشاعر الوقار في نفس الشاعر في هذا المجال .

أمّـا لـون النار فهو يدلّ على الحرارة واللهيب ، ولذا فهو مناسب للتعبير عن الحرب ، وهـذه الصـلة أثارت العداء لهذا اللون وجعلته لونا كريها تنفر منه النفس ، وفي تشبيه الحرب بالنار يقول امرؤ القيس :

الحربُ أوّل مـا تكون فُتَيَّـةً   تبـدو بزينَـتها لِكُلِّ جَهُـولِ

حتى إذا حَمِيَت وشُبَّ ضِرامُها   عادت عجوزاً غيرَ ذاتِ حَليلِ[4]

وقـد وصـف الشاعر في هذين البيتين الحرب التي تغرّر بالفرسان كالمرأة الحسناء التي تراود الـرّجال عن نفسها ، ولكن عند احتدامها فهي كالنّار التي تأكل الأخضر واليابس ولا تبقي في وجههـا شـيئاً ، فتبدو كالعجوز الأرملة التي انقطع الرجال عنها لبشاعتها وقبح منظرها ، كما يظهر في البيت التالي .وما يهمّنا في هذه الصورة هو استعارة النّار للتعبير عن الحرب ، فكان لونها بذلك لون شؤم وخراب ودمار .

وفي هذا المعنى يقول زهير بن أبي سلمى :[5]

وما الحربُ إلاّ ما علمتم وذقتُمُ   وما هو عنها بالحديث المُرَجّم[6]

متى تبعثوهـا تبعثوهـا ذَميمةً   وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُموهـا فَتَضْرَم

فالحرب كما يعلم الجميع ، ودون أدنى مجال للشّك والجدال ، مكروهة ومذمومة إذا أشعلت زاد أوارهـا وحمـي وطيسها ، فهي كالنار التي تشتعل بالعشب اليابس في يوم جاف عاصف ، فلا

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 20

[2] السابق ، ص 157 ، وينظر عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 108

[3] المؤبّل : الكثير ، أو المجموع قطيعا . القنابل : الجماعات من الخيل .

[4] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 161

[5] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . 105

[6] الحديث المرجّم : ما قبل التخمين والافتراء .

يستطيع أحدُ أن يقف في طريقها ، أو أن يمنعها من تنفيذ مهمتها ، وكذا الحرب فإذا نشبت بين خصمين لا يستطيعون دفعها ، وينساقون وراءها حتى تكون الغلبة لفريق على خصمه ، ويهلك الآخـــر . وعلـــى ذلك تكون النار في هذا السياق مذمومة مشؤومة لإنذارها بالقتل ، والبطش ، والهلاك .

ومـــن زاويـــة أخرى نجد النار وسيلة للتعبير عن الحبّ والغرام ، وفي ذلك يقول عنترة العبسيّ :

نعيمُ وصلِك جنّاتٌ مُزَخْرَفَةٌ ونار هجرك لا تُبْقِي ولا تَذَرُ[1]

والشـــاعر فـــي هذا البيت يقارن بين وصل حبيبته وهجرها ، فهو عند الوصل يحيا حياة النعيم والرضـــا والســـرور وكأنّه يحيا في جنّة غنّاء ، أمّا عند هجرها فهو يعيش حياة وجد ، وشوق وشقاء ، فكأنّه وسط نار مشتعلة لا تبقي شيئاً تلمّ به إلاّ وتحرقه .

وهـــنا نلاحظ أنّ النار كانت المقابل للجنّة ، أي وضع لون النار الأحمر مقابل الأخضر ، والأخضر لون الحياة والخصب ، إذن فلون النار الأحمر هو لون الجفاف والدمار ، وعليه فإنّ الشاعر يتشاءم بهذا اللون ويسعى لاستبدال الخضرة به ، ويقول في موضع آخر :

وكم أبكي على إلْفِ شَجاني وما يُغْني البُكاءُ ولا العويلُ
تلاقَيْنا فما أَطْفَى التّلاقـــي لَهِيباً لا ، ولا بَرَدَ الغَليـــلُ[2]

فالشـــاعر حزيـــن بسبب بعد خليله عنه ، ومجافاته له ، وقد انغمس في دموعه ولكنّ الدموع لم تجده نفعاً ، وقد قابل خليله ذات يوم ولكنّ هذا التلاقي لم يبرد نيرانه لأنّه يعلم أنّ هذا اللقاء لن يكـــون طويلاً ، وأنّ بعده وداع لا محالة . وقد شبّه شدّة الحبّ ، وألم الفراق بالنار التي تستعر في كبده وتأكل أحشاءه .

وعلى النقيض من هذه النار التي تذكر في الحرب أو الحبّ نجد النار المقدّسة التي تشتعل باستمرار ، فتبَدد الليل وتشيع النور الذي يقهر الظلام ، ولذا فهي تستحق المديح ويبتهج الشعراء بمرآها ، وقد ذكرت في مواطن عديدة منها على سبيل المثال قول عنترة :

هـــذه نـــار عبلـــةَ يا نديمـــي قد جلَت ظُلْمـــة الظّلام البَهيـــمِ
تتلظّـــى ومثلُهـــا في فـــؤادي نار شَـــوق تَـــزْدادُ بالتّضـــريم

---

[1] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 65

[2] السابق ، ص 102

أَضْرمتها بيضاءُ تهتزّ كالغصـــ ـــن إذا ما انثنى بِمَرِّ النَّســـيم[1]

وهـــو فـــي هذه الأبيات يجمع بين نار الحبّ والنار المقدّسة ، التي تقترن بصورة المرأة المقدّســـة في ذهن الشاعر ، فيقول إنّ هذه النار التي تلوح في البعد هي نار عبلة ، وقد أزالت الظـــلام عن الأرض بنورها ، ومثل هذه النار المستعرة أبدا توجد نار أخرى تشتعل في فؤاده ، تـــزداد مع الأيّام وتواصُل البعد ، وقد أشعل كلتيهما امرأة بيضاء رشيقة هيفاء ، ويظهر لنا من خـــلال الأبـــيات كره الشاعر لنار الحبّ لأنّها ناشئة عن الهجر والنوى ، بينما يبتهج لرؤية نار عبلة التي تشعره بقرب المسافة بينهما .

كما يظهر في الأبيات مشاعر التقديس والتقدير الذي يكنّه الشاعر لهذه النار ، فقد أزالت الظـــلام وقهرته بنورها كالنار المقدّسة التي تتوقّد في المعابد . وقد كان نور المعابد الذي يسطع من النيران معروفا لدى الشعراء فجعلوه مضرب مثلٍ في الإشراق ، وفيه يقول امرؤ القيس :

تضيء الظلام بالعشاء كأنّها منارة مُمْســـي راهـــب متبتّل[2]

وهـــو يـــتحدّث في هذا البيت عن المرأة، ويصفها بالنور والإشراق فيشبّه بياض وجهها بالنور الـــذي ينبعث من منارة الراهب ليلا ، فكلاهما يعمل على تبديد الظلام وهذه النار التي توقد في المنارة هي النار المقدّسة التي يجب أن تبقى جذوتها مشتعلة في المعابد ليلا نهارا .

ومن الألوان التي وقف عليها الشعراء وتأثّروا بها الأصفر ، وهو لون يثير الشؤم إذا كان شاحبا لأنّه حينذاك يكون آية مرض وإشراف على الهلاك . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص:[3]

قد أترك القِرْنَ مُصْفرّا أناملُـــه كـــأنّ أثوابه مُجَّتْ بفرْصـــادِ[4]

فالصفرة هنا تدلّ على موت الرجل . وفي هذا المعنى يقول عنترة :[5]

قد أطعن الطعنة النجلاء عن عُرُض تصفرّ كفّ أخيها وهو مَنْـــزوفُ[6]

والصفرة هنا آية موت كذلك لأنّ الإنسان حين ينزف دمه يفارق الحياة ، فيصفرّ جسده وأسرع ما يظهر ذلك في اليدين . وفي الربط بين الموت والأصفر يقول لبيد بن ربيعة أيضا :

---

(1) عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 132

(2) امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 46

(3) عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 56

(4) مجّت : صبغت . الفرصاد : التوت الأحمر .

(5) عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 89

(6) النجلاء : الواسعة . عن عُرُض : معترضا القرن يطعنه دون مبالاة . المنزوف : الذي نزف دمه ولم يبق منه شيء .

وكلّ أُناسٍ سوف تدخل بينهم دويهيّة تصفرّ منهـــا الأنامـــل[1]

وهو يقصد بذلك مصيبة الموت التي تحيل جسد المتوفّى إلى الاصفرار والشحوب .

ويمـــثّل هذا اللون أيضا لون الانكسار والذلّ لما يعتري الإنسان من الخجل وذهاب بريق الوجه وإشراقه ، وفي ذلك يقول الأعشى :[2]

وولّى عُمَيْر وهو كابٍ كأنّما يُطَلَّى بِحُصٍ أو يُغَشّـــى بِعِظْلِمِ[3]

وهـــو يصـــف حال عمير بعدما ناصر الجنّيّ الأعشى عليه ، فهجاه هجاء مقذعا حتّى انكسر ، وأُفحِم ، فتولّى وهو شاحب اللون ، كأنّه مطليّ بالزعفران أو العِظْلِم لما داخله من الاصفرار ، وقـــد جعل الشاعر من هذه الصفرة سببا لذمّه والتندّر به ، وهذا يدلّ على الموقف الرافض لها والمستاء من وجودها .

أمّـــا الأصفر الفاقع فقد مدحه الشعراء ، وجعلوه سببا للجمال والحسن . وفي ذلك يقول الأعشى في وصف المرأة :

بَيْضـــاءُ ضَحْوَتُها وصَفْـــراءُ العَشِـــيَّة كالعَـــرارة[4]

فالصـــفرة التـــي تحـــدّث الشاعر عنها في هذا البيت هي صفرة الزعفران الذي تستخدمه المـــرأة ، فـــتكون أوّل الـــنهار بيضاء اللون لبعدها عن هذا الطيب ، وتصفرّ في المساء عندما تتطيّب وتتزيّن لطلابها ، فالطيب من عناصر الزينة التي تدلّ على النعيم والحياة المطمئنّة . ولا تخفى سمة الجلال والقداسة التي يكنّها الشاعر لهذه المرأة ، لما أقامه من علاقة بينها وبين اللون الأصفر والزعفران ، وهو الأمر الذي أشرنا إليه في الفصل الأوّل .

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 145

[2] الأعشى : **ديوانه** . ص 184

[3] الحصّ : الزعفران . العظلم : نبات يختضب به . يغشّى : يطلى .

[4] الأعشى : **ديوانه** . ص 75

وفي هذا المعنى يقول النابغة :[1]

صفراء كالسيراء أُكْمِلَ خَلْقُها   كالغصـــن في غُلوائـــه المُتَأَوِّدِ[2]

فقد بدت المرأة صفراء اللون لكثرة استخدامها الطيب . ومما يدلّ على إعجابهم بهذا اللون كذلـك وصـفهم للثـياب الصفراء ، وجعلها ثيابا خاصّة بالأثرياء وذوي المكانة العالية ، لأنّها عندهم من أنفس الثياب ، لقول النابغة :

تحيّيهم بِيْضُ الولائدِ بينهم   وأَكْسِية الإضْريج فَوْق المَشاجِبِ[3]

والإضريج عبارة عن كساء أصفر ، وقد جعله الشاعر لباسا للملوك والحكّام والقادة ، وهو لون يدعو إلى هدوء الأعصاب والسرور لأنّه يدلّ على النعمة والهدوء .

أمّـا الأخضـر فهو لون الخلود والحياة سواء في الثياب أم في الملابس أم في المساكن ، وفي خضرة المكان يقول الحارث بن حلّزة :[4]

سهلَ المباءَةِ مُخْضَرّاً مَحَلُّه   ما يُصبْح الدَّهْرُ إلاّ حولَهُ حَلَقُ

وقد استخدم الشاعر عبارة " مخضراً محلّه " للدلالة على سهولة العيش ، والهناء الذي يحيا فيه النعمان بن المنذر .

ومنه وصف الكريم بالربيع ، لأنّه يسبب الخير والسعادة لطالبيه ، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة :

وهُمْ ربيعٌ للمُجاورِ فيهُمُ   والمُرْملات إذا تطاول عامُها[5]

فهو إذ يفخر بقومه يصفهم بأنّهم ربيع للدلالة على جودهم وكرمهم ، لأنّ الربيع يغلب عليه اللون الأخضـر ، لـون الخصب والنعيم فيبهج الناس ، ويرتاحون لمرآه ، وكذا الكريم يغدق العطايا على الآخرين فيسعدون ويحيون في هناء ونعيم .

---

[1] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 39

[2] السيراء : ثوب من الحرير . غلواء الغصن : طوله وارتفاعه . المتأوّد : المتثنّي من النعمة واللين .

[3] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 12

[4] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 84

[5] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص241

ولمّـا كـان الأخضر لوناً يوحي بالخير والخصب فقد شبّه الشعراء الإبل التي تقلّ الظعن بالنخيل الشديد الخضرة للتفاؤل بمصير هذه الظعن علّها تجد الخصب وتنشر الحياة أنّى ذهبت ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :[1]

أوما ترى أظعانهنّ بواكراً كالنّخل من شَوكانَ حينَ صِرامِ[2]

فقـد شبّه الظعن بالنخيل الأخضر المثمر الذي آتى أكله ، وهي معانٍ تدلّ على الخصب والخير تفاؤلاً بمصير هذه الظعن . وفي هذا المعنى أيضا يقول عبيد بن الأبرص :[3]

كأنَّ أظعانهم نخلٌ مُوسّقةٌ سودٌ ذوائبُها بالحمل مكمومه[4]

والسود هنا تعني الخضر ، سمّي بالأسود لشدّة الخضرة وكثافة اللون لريّ النخلة وخصبها ، وقد شبّه الشاعر الظعن بهذه النخلة شديدة الخضرة المثقلة بثمارها ليدلّ كما في السابق على الخصب الـذي يصـاحب هـذه الظعن ، وليقل لنا أنّ هذه المرأة تحمل الخصب معها أنّى ذهبت ، بينما يرحل هذا الخصب معها عن المكان الذي تتركه ، فتأخذ معها الحياة وتبقي في الديار المهجورة الموت والخراب .

والشاعر حين يتفاعل بهذا اللون فإنّه يجعل منه لون الحياة والبقاء في كلّ شيء ؛ فقد تفاعل الشعراء بصدأ الحديد الأخضر في وصف الجيش ، وجعلوه دليلا على الحياة وسلامة الجنود ، إذ أنّ هذه الخضرة في الدروع تعني طول الفترة التي يُلبس فيها الدرع ، مع سلامة صاحبه من القـتل والأسـر الـذي قد يمنعه من ذلك ، وكثرة الاستخدام هذه يترتّب عليها ظهور الصدأ في الحديـد لما يتراكم عليه من العرق ، والغبار ، والدماء ونحوها ، وفي الإشادة بصدأ الحديد في الدروع يقول الحارث بن حلّزة :

ثمّ حُجْرا ،أعني ابنَ أمِّ قَطَام ولـه فارسِـيَّةٌ خضـراءُ[5]

وهو هنا يذكر أيّام قومه وتنكيلهم بأعدائهم ومنهم حجر هذا الذي نكّلوا به على الرغم من احتمائه بهـذا الـدرع الفارسيّ الصدئ ، أو بكتيبته التي تلبس هذه الدروع ، وفي الحالتين فإنّ الشاعر يؤكّـد بطـش قومه الذي ظفروا بهذا الفارس الشجاع الذي تمكّن من الاحتفاظ بنفسه مدّة طويلة اخضـرّت فيها دروع قومه ودرعه ، لأنّه لم يجد كفئا له يقف أمامه في ساحة القتال قبل اليوم

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص162

[2] شوكان : موضع في اليمن كثير النّخل . صرام النخيل : قطافه .

[3] عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص110

[4] موسقة : المثقلة بثمارها . ذوائبها : أطرافها . مكمومة : مغطّاة

[5] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 44

الذي أشار إليه الشاعر ، فالأخضر هنا كان دليل سلامة وحياة . وفي ذكر خضرة الحديد أيضا يقول لبيد بن ربيعة في الكتيبة :[1]

أوَتْ للشِّياح واهتدى لصَليلِها   كتائبُ خُضْــرٌ ليس فِيهنّ ناكلُ [2]

وهــذا البيت جاء في رثاء النعمان بن المنذر ، وذكر أيّامه وبطولاته ، فذكر إنّه كان يستعدّ في المآزق ، ويجتمع تحت لوائه هذه الكتائب الخضراء لما يعلوها من الحديد ، فالأخضر في الحديد يدلّ على سلامة الجنود وتمتّعهم بالحياة والبقاء رغم اقتحامهم الأخطار في المعارك .

أمّا الأزرق فهو لون العدوّ والشكّ والخوف ، والشاعر حين يذكره فإنّه يحتفظ له في نفسه هــذه الدلالــة الألــيمة ، ولذا فإنّه يجعله لون الطيور الجارحة في الصيد ، أو لون الحيوانات المفترسة المخيفة كالكلاب والغول ، أو يجعله لون العدوّ والعجم ، وهو في جميع الحالات لون يثير القلق والخوف للمصير الدمويّ المنتَظَر .

وقــد يــرد هذا الأزرق في وصف اليهود في مجالس الخمرة ، وهو هنا لون ينتابه الشكّ وعدم الشعور بالأنس والأخوّة العربيّة الحميمة التي اعتدنا عليها في الشعر الجاهليّ ، كما يرتبط فــيها بطقــوس دينيّة أساسها الفداء وإراقة الدماء ممثّلا بالخمر الأحمر " دم الدالية " ، فلا يحمد الأزرق إلاّ فــي وصف الماء وهي زرقة تحكي لون السماء ، وتختلف في درجتها عن الأزرق المشار إليه في الدلالات السابقة .

ومما جاء في ذكر الأزرق قول الأعشى :[3]

ويُرْوِي النَّبِيْطُ الزُرقُ من حَجَراتِهِ   ديــارا تُرَوَّى بالأَتِــيِّ المُعمَّــدِ[4]

والشــاعر فــي هــذا البيــت يتحدّث عن النهر ، ويذكر أنّه يمرّ في بلاد ذوي العيون الزرقاء فيحجزون ماءه بالسدود ليرتووا منها . فالأزرق هنا جاء في وصف الأنباط وهم جيل من العجم الذين كان بينهم وبين العرب عداوة كبيرة. ويقول في الخمرة :

تَنَخَّلَها من بِكار القِطافِ   أُزَيْــرِقُ آمنُ إكسادِهــا[5]

---

[1] لبيد بن ربيعة : **ديوانه** . ص 147

[2] أوت : لجأت . الشياح : الحملة . ناكل : جبان .

[3] الأعشى : **ديوانه** . ص 49

[4] حجراته : نواحيه . الأتيّ : السيل . المعمّد : الذي سُدّ في وجهه فتجمّع ماؤه .

[5] الأعشى : **ديوانه** . ص 58

وقد وصف فيه ساقي الخمرة بأنّه أزرق اللون للدلالة على أنّه عجميّ وليس عربيا _ كما وصف ساقي الخمرة في الشعر الجاهليّ _ والأزرق في هذا السياق يدلّ على عدم الأنس لأنّ العجم أنّى كانوا ، ومهما كانت صلتهم بالعرب في ذلك الوقت كانوا مجرّد أعداء ، وعليه يجب الحذر منهم باستمرار ، كما لا يمكن أن يسود بينهم وبين العرب التفاهم الذي يجمع أبناء اللغة الواحدة والثقافة المشتركة .

وفي وصف السلاح يقول الأعشى كذلك :[1]

أتينا لهمْ إذْ لم نَجِدْ غيرَ أنْيهِمْ وكنّا صَفَائحا من الموت أزرقا[2]

وقد شبّه قومه بالسيوف الزرقاء لقوّتهم وبسالتهم ، ويتّضح لنا من خلال البيت ما يحاط به الأزرق من الشؤم إذ قرن الشاعر بين الأزرق وبين الموت ، وذلك حين قال إنّ زرقة الصفائح تفوق زرقة الموت ليرهب العدو بذلك ، ويؤكّد على مقدرتهم في النيل منهم ، فالأزرق في هذا السياق لون شؤم وفتك . وفيه يقول عنترة :

عَوالِيَ زُرْقا من رِماحِ رُدَيْنةٍ هَريرَ الكِلابِ يَتَّقين الأفاعيا[3]

وفيه يصف الرماح بالزرقة ليدلّ على شدّتها وحدّة أطرافها ، وقد شبّه صوتها بصوت الكلاب الهاربة خوفا من الأفاعي ليؤكّد صفة الرعب لرماحه ، فالزرقة تجتمع مع صوت الكلاب والأفاعي ، وهي ثلاثة أمور توحي بالخوف في هذه اللوحة .

ومن هذا الباب أيضا يركزّ الشعراء على وصف الحيوانات التي تستخدم للصيد أو التي تخيف الإنسان بهذا اللون ، كما في كلاب امرئ القيس[4]، وأنياب غوله[5]، ومنه أيضا ما جاء في قول الأعشى :

تدلّى حَثيثا كأنّ الصّوا رَ أتْبَعَـه أزرقيّ لَحِـم[6]

والأزرقيّ اللحم هنا هو الصقر شديد الشهوة للحوم ، وقد ذكر الشاعر هاتين الصفتين ليؤكّد على قوّته وإصراره على الحصول على الطريدة ، فالأزرق هنا ذكر للدلالة على العداوة لأنّ الشعراء أحسّوا بعداء قومهم لهذا اللون ومن يتّصف به . ومن هذا الباب ما جاء في وصف الغول ، وفيه يقول عنترة :

---

[1] الأعشى : ديوانه . ص 123

[2] أنيهم : تراجعهم . الصفائح : السيوف العريضة ، اسم ممنوع من الصرف وقد نوّن للضرورة .

[3] عنترة العبسي : ديوانه . ص 159

[4] امرؤ القيس : ديوانه . ص 116

[5] السابق ، ص 142

[6] الأعشى : ديوانه . ص 199

والغول بين يديّ يخفى تارةً ويعود يظهرُ مثل ضَوْءِ المِشْعَل
بِنَواظرِ زُرْقٍ ووجهٍ أســودٍ وأظافرٍ يُشْــبِهنَ حَــدَّ المنجلِ[1]

وقد جمع في هذه الصورة العديد من عناصر الرعب في الغول ، أولّها الخفاء والتجلّي مما يحيّر الإنســان ويربكه كثيرا ، ثمّ زرقة العيون التي تشبه زرقة عيون الأعداء ، فالوجه الأسود الذي يشــبه وجه ملِك الموت وظلمة القبر ، والأظافر الطويلة التي تشبه حدّ المنجل . وهذه المعاني للأزرق تدلّ على نفور الناس منه وربطه في مجال الموت أو القتل أو الصيد أو الأعداء ، فهو لون مكروه يؤدّي إلى التوتّر والشكّ والخوف ، فيبقى مرهونا بهذه المواطن .

إضافة إلى هذه المعاني التي يرمي الشعراء إليها في ذكر الألوان المختلفة يمكن أن نحدّد مــيول كــلّ شاعر وفلسفته في الحياة من خلال مجموعة الألوان التي استخدمها والدلالات التي انطبعــت فـــي ذهنه عنها ، فنحن نجد أنّ بعض الشعراء يركّزون على لون أو ألوان معيّنة في شــعرهم ، أو يقــترن اللـــون عندهم بموطن عامّ ، كما في سواد البشرة وبياضها ، ولون الدم والــبرق والغــبار عند عنترة ، وبياض المرأة عند الأعشى ، وهكذا . وفيما يلي عرض سريع لمــيل الشــعراء في استخدام الألوان مع محاولة تفسير السبب وراء ذلك بكشف نفسيّة الشاعر ودواعيه لهذا التوجُّه .

ونبدأ بذكر عنترة لأنّه أوفر الشعراء شعرا في هذا المجال ، وبعد استقراء النماذج اللونيّة العديــدة عنده نلاحظ أنّ الشاعر اهتمّ بشكل بارز بالألوان : الأحمر ، والأسود ، والأبيض على الترتيــب ، أمّــا الأحمر فغلب عليه لون الدم يليه لون النار ، وهذا يدلّ على نقمة الشاعر على القــوم الذيــن عاش وسطهم ، وميله إلى الردّ القتالي ، وهو معتد بنفسه يعالج الأمور بالسيف ، ويــبالغ فـــي ذلك حتى تقطر قصائده دماً قانياً . وكلّما نزفت الدّماء أكثر ابتهج وانتشى بدلاً من التأثّر والتراجع فهو لذلك كان ناقماً على المجتمع يود أن يُرْسل له الموت والهلاك .

أمّــا الأبــيض فقد كان مقابل الأسود ونقيضه ، وهما اللونان اللذان أجّجا مشاعر عنترة ، وجعــلاه ناقمــاً على هذا المجتمع ، والسبب في ذلك هو سواد عنترة في مجتمع مارس التمييز العنصري بين اللونين ، فجعل الأبيض لون الأسياد والأحرار ، والأسود لون العبيد . ولمّا كان عنــترة أسود اللون فقد حاول الدّفاع عن السواد والتأكيد على عدم اختلافه عن البياض ، موجهاً الناس إلى الاهتمام بالجوهر لا المظهر ، فكثّف المعاني الإيجابية للأسود : كسواد العين والشّعر

[1] عنترة العبسي : ديوانه . ص 114

والمسك ، وجعل حصانه أسود وسلاحه أسمر[1] . و الأبيض كان اللون المميّز الذي يقر بحسنه بوجدانـــه ، لاسيّما وقد كان لون المرأة التي أحبّ ، ولون البرق الذي يبعث الأمل في نفسه ولم يجـــد له مثلبة إلاّ في مجال الشيب فأكثر من ذكره ، ولكنّه لم يطغ على سائر البياض المحمود في الديوان . ومقابل ذلك وجد في السواد الشؤم الذي يمثّله الغراب والعقاب والليل ، فاشتكى من هـــذه الأمـــور ، ولما كان أسود اللون فقد دافع عن سواده ليؤكّد لنا أنّه لون خارجي ولكنّ نفسه بريئة من هذا الشؤم .

ويمكـــن القول أنّ عنترة كان ناقماً على المجتمع يودّ أن يهدي له الموت والقتل باستمرار لما يعانيه من ظلمٍ من قبله . وكان فارساً عاشقاً أحسن من الرّبط بين المرأة والحرب ونجح في حربه كما كان قد نجح في علاقته مع المرأة وهو على الرّغم من شجاعته ، واعتداده بنفسه كان حزيـــناً كئيـــباً لهـــذا المصـــير المفروض عليه ، فأكثر من الشكوى في جنح الليل وفي صحبة الغربان[2].

يلي عنترة في استخدام الألوان من حيث العدد والتنوّع الأعشى ، وعند مطالعة الألوان في شـــعره نلاحظ أنّه كان ميّالاً إلى اللهو والمتعة . فقد أكثر من استخدام اللون الأبيض على نحو يفـــوق بقـــية الألوان ، وكان تركيزه على وصف بياض المرأة ثم بياض الرّجل الذي يدلّ على شرفه ، وبياض الإبل الذي يدلّ على الحسن فيها .

أمّـــا الأحمـــر فهـــو لون الخمرة أو الزينة والثياب ، ولم يذكر الدم إلاّ في بضعة أبيات ، والأســـود كـــان أكـــثر في الشّعر والعين وهما من الصفات الحميدة في الإنسان .وعندما ذكر الأصفر خصّه بالثياب والزينة والخمرة ، وهي معانٍ تدلّ علىالنّعيم وصفاء العيش .

وقـــد كـــان الأعشى ميالا إلى اللهو ، عاش حياته لاهياً ولذا فقد أكثر من ذكر المرأة وما يـــتعلّق بها من لون البشرة ، أو لون الشعر والعين ، أو لون الثياب والزينة ، وهي ألوان توحي فـــي مواطنها هذه بالتفاؤل والبهجة ، وقد ابتعد عن الدلالات التي تثير الشؤم أو الأحزان لخلوّ نفسه منها .

---

[1] ينظر في هذا المجال ، شفاقوج ، لارا عبد الرؤوف : **اثر اللون في شعر عنترة من خلال شعره** . ص 43 ـــ 44

[2] ينظر على سبيل المثال في **ديوانه** . ص 81 ، 104

ولا شــكّ أنّ السبب في ذلك عائد إلى نوع الحياة التي عاشها كما تذكر مصادر ترجمته المختلفة[1]، وما تمتاز به هذه الحياة من الهدوء والطمأنينة إلى جانب الثراء والانتماء القبليّ الذي وفّر له السكينة ، كلّ ذلك جعله ينصرف إلى المتعة ، والبحث عن الجَمال في مصادره المختلفة . وربمــا كــان التركيز على ذكر الألوان من باب الشعور بالنقص ، فقد كان الأعشى ضعيف البصر ولذا فقد لقب بالأعشى ، بل يذكر ابن قتيبة إنه كان أعمى[2]، وعليه فإن إدراكه البصري للألوان كان ضعيفا فتعمد ذكر هذه الألوان ليثبت عكس ذلك ، ومن باب آخر فإن هذا الأمر يدل على وصف الشعراء لصورة مثالية للمرأة و السيّد ولم يقل شعرهم في نساء محدّدات .

أمّــا لبيد فقد غلب عليه التأمّل والتفكير في مصير الإنسان ، ولكنّه كان متفائلاً متيقّناً أنّ الغلبة ستكون للحياة على الموت ، ولذا فقد أكثر من استخدام الأبيض في لون البشرة ، والإبل ، والحيوانات التي تسكن الأطلال ، ولكن هذا البياض شابه الشيب نذير الضعف والموت . وعندما راعه هذا البياض وذكّره بالموت التفت إلى السواد المشؤوم فأشار له في ثياب النائحات ، ولكنّ الــتفاؤل غلب على هذا السواد فجاء أكثره في لون الإبل والخيل كدليل قوّة ، وشجاعة ، ولون الشعر وكحل العين وهما من آيات الزينة في الإنسان ، ولون السحاب دليل الخير والخصب .

يلــي ذلــك الأحمر وقد ركّز فيه على لون الدّم الذي يثير الأعصاب ولون النار مما ينذر بالخطــر والقتل ، ولكن يأتي في المقابل الأخضر وقد كان لبيد من أكثر الشعراء استخداماً لهذا اللون سواءً في البيئة أو في باب الكناية . أمّا الأزرق عنده فهو لون صفاء وعذوبة لا يجدها إلاّ هــادئ النفس ، مرتاح البال . غير أنّ الموت يلحّ عليه مرّة أخرى مع الأصفر مما يكدّر الماء ويشــوبه ويجعله غير صالح للشرب والانتفاع به ، فيربطه بالموت والفناء بجعل صفرة اليدين دليلا على ذلك .

وعليه فقد وضعنا لبيد أمام سؤال الموت الذي كان يلح عليه ، ويشتكي منه ، ويعاني من هواجســه إلاّ أنّه نجح في بث الأمان والطمأنينة إلى نفسه ، فبدا أخيراً متفائلاً يبصر من حوله الجمال وآيات الخصب والخلود وذلك من خلال اللونين الأبيض والأخضر .

وعــند تتبّع الألوان في شعر امرئ القيس نجد أنّ الشاعر قد اتّصف بالسيادة ، والميل إلى اللهو والمتعة كالأعشى ولكنّ حياته اكتنفها بعض الهموم والقلق ، وقد ركّز على ذكر البياض ،

---

[1] ينظر على سبيل المثال في : الأصفهاني ، أبو الفرج : **الأغاني** . ج9 : ص 137

[2] ابن قتيبة : **الشعر والشعراء** . ج1 : ص 178

لون البهجة والسرور ، وكان عنده يمثّل لون المرأة التي يعشقها ، أو الإبل والخيل التي يمتلكها، أو لون البرق الذي يلمع في لياليه الطويلة فيمدّه بالأمل ، ويجدّد عزمه على الحياة .

يليـــه الأسود لون الشعر والعين ، والخيل ، ولكن أكثر السواد عنده كان في الليل ، وليله طويلٌ حالك مليء بالأحزان والهموم ، وقد كان أكثر الأحمر عنده في الدّم والنار ، نار الحرب لا نـــار الحـــبّ ، ممـــا يؤكّـــد أنّ حياة الشاعر كانت موزّعة بين اللهو والعبث ، وبين الهموم والبطولة ، وهو ما جاء في سيرته من انقسام حياته إلى قسمين ما قبل مقتل والده ، وما بعد ذلك من سعيه للانتقام .

ويدلّ تتبع الألوان عند النّابغة كذلك على أنّه عاش حياة سيادة وتنعّم كذلك . فكان الأبيض من أكثر الألوان ورودا في شعره ، وقد غلب عليه بياض المرأة ، يليه ما جاء في بياض الإبل والخـــيل لا سيّما في الهبات والعطايا ، وهذا يدلّ على المكانة العالية التي حظي بها الشاعر فقد عاشـــر الـــنعمان بن المنذر ، واطّلع على أسباب العيش الكريم بل وحظي نفسه بهذه النعم التي أغدق عليه النعمان بها .

أمّا الأسود فقد توزّع على مواطن عديدة منها ما يدلّ على النعيم كوصف الشّعر ، والخيل، والسحاب ، والقدور ، ومنها ما يدلّ على الشؤم كالليل ، والغراب وهو قليل في شعره مما يعني وجـــود بعـــض المنغّصـــات لعيشه الكريم المنعّم . وكان الأحمر عنده من ألوان الزينة والقباب والخمـــرة ، أمّا ذكر الدم والسحاب الذي ينذر بالشؤم فكان نادرا إذ اقتصر على بضعة أبيات ، مما يؤكّد سيادة الشاعر وسعادته مع وجود بعض التكدير في حياته وهو كما علمنا ما جرى بينه وبيـــن الـــنعمان بن المنذر من الوشاية والعتاب . والأصفر عند النابغة كان في الزينة والثياب والنبات مع ذكر صفرة الشحوب في بيت واحد .

ويمكـــن الخلـــوص مـــن هذا إلى أنّ النابغة عاش حياته سيّداً متنعماً ، يحظى بالمسرّات والحـــياة الكريمة ولكنّ حياته شابها بعض المنغّصات كالوشاية التي حدثت بينه وبين النعمان بن المـــنذر ، إلى جانب سؤال الموت الذي أطلّ علينا من خلال ذكر الشيب ، وسواد الأطلال وإن اقتصر على بضعة مواطن في شعره سرعان ما اختفت آثاره بحلول الظباء والآرام في الأطلال مكان السواد ، وخوض المغامرات الجنسية في خضمّ الشيب ، وتبدّد ظلام الليل بالبريق الذي لم يهدأ في ليلة من تلك الليالي الحالكة .

أمّا عبيد بن الأبرص فقد حاول أن يبدو متفائلاً أمام سؤال الموت الذي كان يلحّ عليه ، ويتوجّس منه . وذلك من خلال تركيزه على الألوان الثلاث الأبيض والأسود والأحمر . وكان الأبيض هو أكثر هذه الألوان تكرارا ولكنّه انقسم إلى حقلين مختلفين : بياض المرأة الذي يدلّ على المتعة ، وبياض الشيب الذي يدلّ على الخوف من الموت ، وهو إذ يطرح سؤال الموت من خلال الشيب والكفن فإنّه يصمد أمامه من خلال وصف المرأة رمز الخصب والتجدّد عبر الولادة ، ويؤكّد على سكنى الأطلال بعد موتها وسوادها بالحيوانات البيضاء المطفلة دلالة الحياة والخلود . وكان تركيز السواد – الذي يعادل في تكراره نصف الأبيض – على السحاب ووصف الشَّعر والعيون ، مما يوحي بالخصب لأنّ الأسود في السحاب يعني غزارة المطر ، والغزل بالمرأة يعني جمالها مما يترتّب عليه الخصب والحياة . أمّا الأحمر فقد غلب عليه الشؤم لارتباطه في أكثر الأبيات بالدم والنّار والخطر .

وهذا يدلّ على أنّ الشاعر كان خائفاً من مصيره ، كارهاً للموت محبّاً للحياة ، ولذا فقد حاول الانتصار لها بتغليب الأبيض ومواطن البهجة في الأسود على مواطن الشؤم ، ليؤكّد لنفسه أنّ الحياة أقوى من الموت .

بينما ظهر طرفة شغوفاً بالمتعة والملذّات ، مليئاً بالحسرة والأسف على العمر الذي لا يشعر به كالشمعة التي ما أن تضيء حتى تنفذ وتفنى ، ولذا فقد كانت الألوان الرئيسة في ديوانه هي الأسود والأبيض والأحمر ، على نحو متقارب في الاستخدام مختلف في الدلالة ؛ فالأبيض عنده لون الحياة الذي يبعث التفاؤل والبهجة والسرور ، وهو لون المرأة رمز الخصب ، والبرق لون الأمل والتفاؤل . والأسود يأتي في مواطن الشؤم كلون الغراب ، والأطلال والليل ، وكأس الردى . أمّا الأحمر فيغلب عليه لون الدم والنار والسماء ، وهي مواطن شؤم كذلك .

وعليه فالشاعر كان متشائماً إلى درجة جعلته يقبل على المتعة والنساء والخمرة هروباً من الواقع الذي يثير فيه الخوف والألم ، فاجتمعت المتعة مع الألم في شعره . وربّما يعلّل ذلك بقصر الحياة التي عاشها الشاعر ، فقد كان كغيره من الشباب مفعما بالحيويّة ساعيا إلى المتعة واللهو ، ولكنه تميّز عن هؤلاء الشباب بسعة أفقه ، وطموحه الشديد للشهرة والمجد ، ولمّا لم يتحقّق له ذلك ، ولم يمهله الأجل لمزيد من المحاولة فقد أكثر في شعره من مشاعر اليأس التي تدلّ على عدم الصبر والرّضا بما قسم له ، وحاول اكتساب الشهرة والشعور بالمجد من خلال مجالس الخمرة ، وجمع الندامى والغواني حوله مما أثار عليه حفيظة القبيلة ، وجعلها تقف في وجهه محاولة منعه عن هذا الإسراف في المتعة ، وكلّ ذلك سبب له المزيد من الأسى

والأحـــزان، إلى جانب التمسك بأحلامه وطموحه التي لم يحدّها إلاّ الموت الذي كان خائفا منه باستمرار .

وعـــند الـــنظر فـــي ألوان زهير نجده متفائلا إذ يغلب الأبيض على سائر الألوان ، بينما يـــتوزّع الأسود على مواطن عديدة تدلّ على القوّة والوقار ، ولا يظهر الشؤم إلاّ في بيت وحيد مـــنها ، وهو كاره للحرب منفّر منها ولذا فقد ركّز في الأحمر على لون الدم وأعلن كرهه لهذا اللـــون ، ولكنه في كرهه هذا اتّخذ موقف المرشد الواعظ وليس موقف الخائف المتوجّس ، فقد حاول أن يبعد الناس عن الحرب ويحملهم على كره هذا اللون الدامي . وأشار للموت أيضا من خلال الأصفر ، وقد اتّخذ في عرضه له موقف الناصح المحلّل وليس الناقم أو القلق لمصيره .

ولـــذا فهـــو شاعر متّزن محبّ للحياة والسلام والإصلاح ، وهو متفائل بالحياة ، ينفّر من الحـــرب والقتل وكلّه إيمان بأنّ النصر سيكون للحياة . وهو هادئ النفس مرتاح البال لا يعاديه أحـــد ولا تمسّـــه الحرب بشكل مباشر ، ولذا فهو خال من الهموم والآلام إلاّ ما كان منها يمسّ المجتمع ، ويمنع من تحقيق العدل بين البشر ، وهذا لا يتأتى إلا لكبير في السنّ والمكانة ، ولكنّه ليس مسؤولا بشكل مباشر عن القبيلة كأن يكون زعيمها ، بل هو أحد الزعماء الذين يحسب لهم حساب بين الناس دون تفويض مطلق .

أمّـــا الحارث بن حلّزة فقد كان استخدامه للألوان استخداماً تلقائيّاً دون تخصيص أو تركيز على لون محدّد ، وقد ذكر الأبيض في بضعة أبيات ولكنّه جاء من باب الوصف لبعض الأمور المتداولة في الحياة اليوميّة . مما يحول دون المقدرة على تحديد ميول الشاعر ، أو الفلسفة التي يتّبعها في الحياة . وقد يكون السبب في ذلك عائدا إلى قلّة الشعر الذي وصلنا عنه .

وأيّا كان السبب فإنّ الأبيات القليلة التي ذكر فيها الألوان تؤكّد أنّ الشاعر تعامل معها وفق الـــدلالات التـــي توارثها قومه ، ومما يلفت الانتباه لدى هذا الشاعر أنّ سؤال الموت لم يشغله كغـــيره من الشعراء ، إذ لم يذكر الشيب سوى في بيت واحد من شعره ، وكان في الشيب قبل الأوان بفعل الحروب وليس في شيب الكبر ،وذلك على الرغم من أنّه يعتبر من المعمّرين ، فقد ذكـــر التبريزيّ إنّه ألقى معلّقته وهو في الخامسة والثلاثين بعد المائة من عمره[1]، وهذا يدلّ أنّ الكثير من شعره قد ضاع لأسباب نجهلها .

---

[1] التبريزيّ : **شرح القصائد العشر** . ص 291

وأخـــيرا نقـف علـــى شعر ابن كلثوم وهو أقلّهم استخداما للألوان ، ولكن الأبيات القليلة الـــواردة فـــي شعره تكشف لنا جزءا كبيرا من الميول النفسيّة عنده ، فهو شاعر فارس ، مشبَع بالاعـــتداد بالـــنفس والفخـــر القبلـــيّ : فنســـاؤه بيض حسان ، وكتيبته شهباء ، وليله ليل مجد وانتصارات .

أمّـــا أكثر الألوان شيوعا عنده _ على قلّتها _ فهو الأحمر لون الدم والنار ، وهي لا تثير الخوف والنفور في خاطره و إنما تحمل إليه بشرى النصر لأنه فارس مقدام ، ولذا فقد جعل من لون الدماء خضاباً يزين كفّ الفارس ، ولا يرد الحرب إلاّ لشرب المزيد من الدماء .

مما تقدّم يتّضح لنا إنّ عمرو بن كلثوم سيّد عزيز في قومه ، وهو فارس على جانب كبير من الشجاعة والإقدام لا يشغل نفسه بالموت والحياة بل بالمجد والكبرياء .

ثالثا : البعد الاجتماعيّ

للألوان في أيّة حضارة بعد اجتماعيّ ، إذ تعتبر مؤشّرات اجتماعيّة عرفيّة يتواضع عليها الجميع . فمن ذلك مثلا اعتبار الأسود لون الحداد في كثير من المجتمعات ، بينما يعتبر الأبيض لـــون زفـــاف العـــروس فيها ، ويفضّل الأحمر الفاتح (الورديّ) للإناث بينما الأزرق الفاتح (الســـماويّ) للذكور في ملابس الأطفال ، وقد يقرن بين الأصفر والمرض ، ولا سيّما المرض النفسيّ كما في قولهم (السرايا الصفراء) وهكذا .

والشـــعر الجاهلـــيّ كان سجّلا للحياة العربيّة في ذلك العصر ، ولذا فهو حافل بالعديد من المؤشّـــرات الاجتماعيّة ، ومن ذلك مثلا نجد أنّ البياض في البشرة يمثّل لون السادة والأشراف بينما يمثّل الأسود لون العبيد والخدم ، ويظهر لنا ذلك في قول الأعشى واصفا المرأة :

ليست بسوداءَ ولا عِنفِصٍ   داعِرَةٍ تدنـــو من الـــدّاعِرِ[1]

فبعد أن وصف الشاعر المرأة بالبياض عاد في هذا البيت ليؤكّد ذلك بنفيه أن تكون سوداء اللون كالإماء ، وفي هذا المعنى يقول النابغة :

---

[1] الأعشى : **ديوانه** . ص 92 و انظر كذلك في الأبيات . ص 41 ــ 42

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت   ولا تَبيــعُ بِجَنْبَيْ نَخْلَــةَ البُرَمــا[1]

فهــو ينفــي أن تكون هذه المرأة سوداء اللون كالإماء ، أو أن تقوم بالأعمال المخصّصة للإماء والجواري كالبيع . هذا وقد سبق لنا الحديث في ذكر بياض المرأة والرجل مما يغنينا عنه هنا .

ولهــذا السبب فقد انبرى عنترة للدفاع عن لونه ، ولإثبات أنّه سيّد على الرغم من السواد الذي يكسو بشرته فهو يشعر في قرارة نفسه أنّه سيّد أبيّ وليس عبدا بليدا مطيعا ، وما نشأ هذا الخــلاف إلا بسبب لونه الأسود الذي كان يعتبر دليلا على العبوديّة ، ولذا فقد حاول الدفاع عن ســواد البشرة ليثبت للجميع أنّ هذا السواد مجرّد قشرة خارجيّة ، وشرف المرء ، وعزّة نفسه ، والإباء صفات تكمن في داخله ، وتظهر في أعماله ، دون أن ترتبط بلونه الخارجيّ ، فهو يقول مدافعا عن سواده :

ومن قال إنّي أسودٌ لِيَعيبَني   أُرِيْهِ بِفِعْلي أَنَّهُ أكذبُ النّاسِ[2]

ويظهــر لنا من خلال البيت أن السواد الذي ذكر في البيت لم يقصد به مجرّد اللون الذي يؤثّــر في صورة الإنسان وحسنه ، وإنّما ما ارتبط بهذا السواد من مرتبة متدنّية ، فالأسود هنا تعني عبداً بليداً وضيعاً ، وعنترة لا يقبل بهذه الصفات لعدم صدقها فيه ، وعليه فقد أثبت كذب هــذا القــائل مــن خلال الأعمال التي أقدم عليها ، والمآثر التي سجّلها لقومه بدءا بقول الشعر وانــتهاء بالــبطولات والحــروب الضارية التي خاضها وانتصر فيها ، مما جعله من الفرسان المعدودين في الحرب والنزال ، وفي هذا المعنى يقول كذلك :

شَبِيهُ الليلِ لَوْني غيرَ أنّــي   بفعلي من بياض الصُّبْح أسْنى[3]

فهــو ينفي أن يكون عبدا ذليلا على الرغم من سواده ، وإن كان لونه شبيه بلون الليل المشؤوم فإنّ أعماله البطوليّة تجعله أكثر بياضا من الصبح المشرق المنير .

وترتّــب علــى هذه الدلالة الاجتماعية للسواد والبياض أن يكون سبي النساء البيض في المعــركة إهانـــة للقــوم مـــا بعدها إهانة حين تساق كرائمهم سبايا لعدوّهم ، وتصبح في عداد الجــواري . ولــذا فقد حرص الشعراء على عدم وقوع هذه المصيبة لأقوامهم ، وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

---

[1] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 101 . وانظر كذلك في الأبيات . ص 103

[2] عنترة العبسيّ : **ديوانه** . ص 75

[3] السابق ، ص 145

على آثارنا بِيْضٌ حِسانٌ   نُحاذِرُ أنْ تُقَسَّمَ أو تَهونا[1]

فقد كان العرب يصطحبون النساء إلى المعارك ليُشجّعنَهم على القتال ، وحتّى لا يدعون لأنفسهم حجّــة فـــي التراجع ، كمن يربط رجله بصخرة حتّى لا يهرب ، وكما فعل طارق بن زياد بعد اجتـــياز المضيق . والشاعر يقول في هذا البيت : إنّ استبسالهم في القتال كان من أجل هؤلاء النساء اللائي يخشون من وقوعهن بيد الأعداء ، فيلحق بهم العار لذلك .

وفي هذا المعنى يقول طرفة بن العبد :[2]

يومَ تُبْدي البِيْضُ عن أسْوُقِها   وتَلُفُّ الخيــلُ أعْراجَ الــنَّعَم[3]

ويقصَــد فـــي هذا البيت النصر الذي يحرزه الشاعر ، وما يقابله من هزيمة الأعداء ، ففي ذاك اليوم يتمّ سبي النساء وتوزيعها على المقاتلين أو عرضها للبيع ، فتكشف المرأة المراد بيعها عن سيقانها للمعاينة ، وفي ذلك إذلال للمهزوم بجعل حرائره جوارٍ للمنتصر . فسبي المرأة البيضاء كان مذلّة وإهانة للقبيلة لأنّ المرأة البيضاء سوف تستوي مع الإماء السود في الشقاء والعبوديّة .

ومن المؤشّرات الاجتماعيّة في الشعر الجاهليّ تفضيل الإبل البيضاء على غيرها من سائر الإبـــل ، وجعلهـــا دليلا على الثراء والنعمة ، فالإبل البيضاء من أجمل الإبل ، كما مرّ بنا في الفصـــل الثاني ، ولونها الأبيض يدلّ على كرمها وتميّزها على سائر الإبل . ولذا جعل الشعراء الإبـــل التي يمتلكها الممدوح أو المرثي ، أو التي يهبها لطالبيه بيضاء اللون للدلالة على منزلته العالية ، وسماحة نفسه في العطاء . وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى :[4]

فساروا له حتّى أناخوا ببابه   كِرامَ المَطايا والهِجان المَتاليا[5]

فقـــد جعـــل الشـــاعر هذه الصفات دليلا على نعمة صاحب الإبل وسيادته ، وفي العطيّة يقول النابغة:[6]

حِباؤك والعِيسُ العِتاق كأنّها   هِجان المها تُهدى عليها الرِّحائلُ[7]

---

[1] عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . ص 103

[2] طرفة بن العبد : **ديوانه** . 75

[3] البيض : النساء . أسْوُق : جمع ساق وهو ما بين الكعب والركبة . أعراج : جمع عرج وهو قطيع الإبل . النعم : المواشي .

[4] زهير بن أبي سلمى : **ديوانه** . ص 139

[5] الهجان : البيض من الإبل . المتالي : التي يتبعها أولادها .

[6] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 89 . وانظر كذلك الأبيات . ص 34

[7] الحباء : العطيّة والهبة . العيس : البيض . تحدى : تساق .

فهو يذكر هنا أنّ عطيّة الممدوح كانت من الإبل البيضاء التي تشبه في جمالها وإشراق بياضها البقرة البيضاء ، وذلك للدلالة على شرف الممدوح لامتلاكه ومنحه هذه الإبل البيضاء .

وكـــان للأخضـــر مكانة خاصّة عند العرب نظرا للظروف الاقتصاديّة التي كانوا يحيون فيها، من قلّة الأمطار وحياة التنقّل والترحال تبعا لتوافر النبات ، ولذا فقد أصبح الأخضر عندهم مؤشّـــرا علـــى الخير والخصب ، فإذا وصفوا مكانا بالخضرة فالمقصود هو الرفاه والنعيم الذي يحيا فيه أهله ، ومن ذلك قول الحارث بن حلّزة :

سَهِلَ المباءة محضرًا محلُّه   ما يصبح الدَّهرُ إلاّ حوله حلَقُ[1]

فهـــو يصف النعمان في هذا البيت بأنّه يحيا في مكان وفير المياه دائم الخضرة ، ولذا فهو يحيا في نعيم مقيم وعزّ تليد ، وهذا ما يستقطب الراغبين ببابه فلا يردّ منهم أحدا خائبا .

ومـــن هـــذا الباب أيضا أكثر الشعراء من الاستسقاء لأرض الحبيبة الراحلة لتهنأ بالحياة وتنأى عن المنغّصات ، وفي ذلك يقول عنترة :[2]

فسقتك يا أرضَ الشّـــرَبَّةِ مُزْنةٌ   مُنْهلّةٌ يَرْوي ثَراك هُموعها[3]

وكسا الربيعُ رُباكِ من أزهاره   حُلَلا إذا ما الأرض فاح ربيعها

فهو يدعو لأرض الحبيبة بالرّيّ ليعمّ الربيع فيها ، فتُكسى ثيابها الخضراء ، وتنعم فيها الحياة .

ومـــن هذا الباب أيضا استمطر الشعراء لقبور الموتى ، لأنّ المطر يسم الأرض بالنبات ، فتنتشـــر الخضـــرة حول القبر ، ومن ثمّ فإنّ المتوفّى _ كما كانوا يعتقدون _ يمضي رحلته في موطـــن أخضـــر ملـــيء بالخـــيرات من الكلأ والماء فلا ينقصه شيء ، وفي ذلك يقول النابغة الذبيانيّ:[4]

سقى الغيثُ قبرا بين بُصرى وجاسمٍ   بغَيْـــث من الوَسْميّ قَطْرٌ ووابـــلُ

ولا زال رَيْـــحانٌ ومِســـك وعَنْبَرٌ   علـــى مُنْتَهـــاهُ دِيْمَةٌ ثمّ هاطـــلُ

ويُنْبِـــتُ حَوذانـــاً وعَوفـــاً مُنَوّراً   سأُتبِعُـــهُ مِن خَير ما قال قائـــلُ[5]

وهو هنا يؤكّد أنّ الاستمطار مطلوب من أجل ظهور النبات ، مما يسم المكان بالخضرة ويجعله مهيّأ للإقامة ، مما يدلّ على النعيم والسرور الذي يحيا فيه الشخص في العالم السفليّ .

---

[1] الحارث بن حلّزة : **ديوانه** . ص 84

[2] عنترة العبسي : **ديوانه** . ص 82

[3] الشّرِبّة : موضع . هموعها : انصبابها .

[4] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 90

[5] حوذان وعوف : نباتان طيّبا الرائحة . سأتبعه : سأثني عليه بالخير .

وتعتبر ألوان الثياب من أبرز المؤشّرات الاجتماعيّة في الشعر الجاهليّ وذلك لأنها تعتبر علامات اجتماعية تدل على الفئة التي ينتمي إليها الشخص من جهة ، ومن جهة ثانية فهي تعبر عـن الـذوق العـام للمجتمع الجاهلي ؛ فالأبيض يمثّل لباس الملوك ولا سيّما عند اجتماعه مع الأخضر، فيجتمع بذلك لون الحياة مع لون الخلود ، وممن ذكرها النابغة وذلك في قوله :

يصونون أجسادا قديما نعيمُها   بخالِصَة الأرْدان خُضْر المناكــب[1]

وهي ثياب بيضاء الأكمام ، وخضراء المناكب ، كانت تخصّص للملوك ، وهو يؤكّد هذا المعنى حيـن يذكـر أنّ العـزّ فيهم لم يكن طارئا وإنّما توارثوه جيلا بعد جيل ، وقد اعتادوا عبر هذه الأجيال لبس هذه الثياب التي تميّزهم عن غيرهم من عامّة الناس .

والأبيض يستخدم كفناً للميت وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

ولا مَحالة من قبرٍ بمَحْنِيَةٍ   وكَفَنٍ كسَراةِ الثَّوْرِ وَضّاحِ[2]

وهـذا يدل على إعجاب الناس بهذا اللون الذي لا يرتديه إلا الملك أو الأشراف ، ومن هذا فقد اختير للميت الذي يحرص الناس على العناية بجسده واحترامه فيختارون له افضل الثياب . كما يمثل في هذا السياق رمز الطهر و النقاء .

أمّـا الأحمر فهو لباس البغايا والجواري ، وذلك لما فيه من دلالة على الإغراء الجنسيّ ، وذلـك لارتـباطه بدفء العاطفة ، ولارتباطه بلون الزهرة إلهة الجمال والعلاقات الجنسيّة عند العرب ، وفي تخصيص الأحمر لهذه الفئة من النساء يقول الأعشى :

والبغايا يركضن أكسية الإضـ   ـريج والشرعبيّ ذا الأذيـال[3]

وفيه يتّضح اختيار الجواري لهذا اللون إلى جانب الأصفر ، الذي يدلّ على الثراء أو التنعّم في العـيش . ومن باب تخصيص الأحمر لهذه الفئة ، لما فيه إيحاء جنسيّ ، استخدمه امرؤ القيس للنسـاء فـي المغامرات الجنسيّة التي خاضها ، مع أنّ النساء فيها كنّ من الحرائر ، وفي ذلك يقول:

---

(1) النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 12

(2) عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . ص 45

(3) الأعشى : **ديوانه** . ص 167 ، وانظر في هذا المعنى ، النابغة : **ديوانه** . ص 12

وقد أَذْعَرُ الوحشَ الرِّتاعِ بغرّةٍ   وقد أجتلي بِيْضَ الخُدُور الرَّوائقا

نواعِمَ تَجْلو عن مُتون نَقِيَّـةٍ   عَبِيراً ورَيْطاً جاسِـداً أو شقائقا[1]

فالنساء هنا من الحرائر اللاتي تعكف في الخدور ، ولكنّهن يلبسن هذا اللون كالبغايا والجواري ، وذلـك ليكشف بياض أجسادهنّ ، وللدلالة على إبداء الرغبة في وصل الشاعر والاستعداد لذلك من تلقاء أنفسهن . فالأحمر للنساء لون يدلّ على الإغراء الجنسيّ ، والحيويّة في ذلك .

أمّـا الأحمـر فـي القـباب والمـنازل فهو دليل سيادة وشرف ، وقد اكتسب هذه الدلالة الاجتماعـيّة من أصل دينيّ وهو الارتباط بالتضحية والفداء ، وجعل مكان الإقامة أحمر اللون للإشارة إلى استحقاق صاحب المكان للتضحية ، وضرورة إراقة الدماء على أعتابه لنيل رضاه. بينما يمثّل لون الثراء والغنى عند اقترانه برحال الإبل كما في قول النابغة في الظعن :

تمشي بهم أُدْمٌ كأنّ رِحالَها   عَلَقٌ هُريقَ على مُتُون صوارِ[2]

وقد جعل الإبل بيضاء اللون ، ورحالها حمراء للدلالة على شرف الركب الذي ساروا فيه ، وما يتمتّعون به من الثراء والنعيم .

وهـذا يؤكد قلّة ارتداء الناس كلا من الأبيض والأحمر في حياتهم اليومية ، لأن الأبيض يخصـص للأشراف الذين لن يتجهوا للأعمال التي قد تلوث الثياب ، أما الأحمر فهو لون يدل على البغاء و الميول الجنسية وذلك في الثياب ، وعلى الشرف والمنزلة الدينية في المنازل .

أمّا الزركشة والوشي فهما دليل ثراء وتنعّم ، وكلّما زادت ألوان الوشي زاد صاحبها بعدا عن الفقر وبساطة العيش ، ولذا فقد وصفت ثياب الممدوح والندماء والنساء بأنّها موشّاة بالألوان والزينة ، للدلالة على النعيم والبعد عن الانهماك في الأعمال اليدويّة التي يقوم بها العبيد .ومما جاء في ذلك قول امرئ القيس :[3]

فقلنا : ألا قد كان صيدٌ لقانِصٍ   فَخَبُّوا علينا كلَّ ثوبٍ مُزَوَّقِ[4]

وهـو هـنا يتحدّث عن ندمائه وصحبته في الصيد ، فعندما فرغوا من الصيد ضربوا خباء من فضل ثيابهم ، وقد كانت ثيابهم مزركشة ومزخرفة للدلالة على النعيم والشرف ، ويقول في ثياب المرأة :

---

[1] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 138

[2] النابغة الذبيانيّ : **ديوانه** . ص 60

[3] امرؤ القيس : **ديوانه** . ص 137

[4] خبّوا علينا : أي جعلوا علينا خباء من فضل أثوابنا .

خرجت بها أمشي تجرّ وراءنا   على أثَرينا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّــلِ[1]

فكان ثوبها مسدلاً على الأرض ، وقد حلّته بالنقوش حتّى بدا كالرحل الموشّى ، والوشي هنا يدلّ على النعيم والدلال الذي تعيش فيه هذه المرأة .

أمّــا الثــياب السود فهي دليل على الحزن والهموم ، والأسود لون الحداد الذي يلبس في المآتم ، وهو اللون الذي يلبس في حالة الذلّ والانكسار ، وفي ثياب الحداد يقول لبيد بن ربيعة:

كأنّ مصفَّحــات في ذراه   وأنــواحا عليهنّ المآلــي[2]

والمآلــي هــي الخــرق السوداء التي تحملها النساء في المآتم ، والشاعر هنا يشبّه سواد الغيوم بالــنائحات لما يطغى عليها من السواد . وفي لبس السواد للدلالة على الذلّ يقول لبيد في النساء عند السبي :

متسـلّبــاتٍ في مُسُــو   ح الشّــعر أبكارا وعُوْنــا[3]

وفيه يقول إنّ النساء عند وقوعهن في أيدي الأعداء يعشن حياة مذلّة وإهانة ، ولذا فإنّهنّ يستوين فــي الحــزن والألــم مع الأرامل والثكالى فيرتدين هذه الثياب للتعبير عن الحزن ، والزهد في مباهج الحياة التي لم يعد لها قيمة عندهنّ .

وإذا كــان الناس يميلون إلى استخدام الألوان المزركشة فان الأسود عندهم لون كريه يدل على الحزن و البؤس ،فلا يلجئون إلى ارتدائه إلا في المصائب والملمّات ، ومن ذلك ما ورد في ارتداء امرئ القيس للعمامة السوداء عند مقتل والده حالفاً على نفسه الأخذ في الثأر .

ومــن المؤشّرات الاجتماعيّة للألوان في الشعر الجاهليّ نجد سواد القدور الذي يدلّ على الكــرم والجود . وقد مدح الشعراء السواد في القدر على الرغم من كرههم لهذا اللون ، والسبب فــي ذلك هو رغبة الشعراء في التأكيد على كرم هؤلاء السادة بجعلهم كثيري الطبخ ، ويترتّب على ذلك علو السواد للقدور نتيجة لوضعها على النار ، وقد اعتبر القدر الأبيض ،أي النظيف، دليلا على البخل ، وممن ذكر سواد القدر النابغة الذبيانيّ ، وفيه يقول :

له بفناء الدار سوداء فَخْمَةٌ   تُلَقّم أوصال الجَزور العُراعر[4]

فقد جعل قدر النعمان كبيرة الحجم ، سوداء اللون لكثرة ما توضع على النار ، وذلك للدلالة على كرمه ، وإطعامه الدائم للناس .

---

[1] امرؤ القيس : ديوانه . ص 41

[2] لبيد بن ربيعة : ديوانه . ص 165

[3] السابق ، ص 264

[4] النابغة الذبيانيّ : ديوانه . ص 75

وتصـــبح الــنار في العرف الاجتماعيّ دليل جود وسيادة ، ويردّ ذلك إلى ما يعرف بنار الأضـــياف ، وهـــي النار التي توقد ليلا ليبصرها الطرّاق فيهتدون إلى المكان الآهل ، ويحلّون ضـــيوفا على أهله . ولا يشعل هذه النار سوى السادة أو ذوي المكانة والشرف ، فيعتبر الكريم لهـذا الســبب كهفا حصينا للخائفين وأبناء السبيل . وممن ذكر هذه النار لبيد بن ربيعة ، وفيها يقول :[1]

وبالفُورَةِ الحَرّابُ ذو الفضل عامرٌ ونِعْمَ ضِيــاءُ الطــارق المُتَنَــوِّرِ[2]

فقد جعل الشاعر من الممدوح ضياء لإشعاله تلك النار التي يهتدي بها الطرّاق ، ومدح هذه النار لكرم صاحبها وحسن ضيافته .

[1] لبيد بن ربيعة : ديوانه . ص 99

[2] الفورة : موضع . الحرّاب هو عامر بن مالك وقد لقّب بملاعب الأسنّة .

الخاتمة :

بعد المضي في هذا البحث لابد من وقفة لتلخيص أبرز ما عُرض فيه من قضايا ، والنتائج التـي خلص إليها . فقد لاحظنا أن الألوان أثرت في الفكر الإنساني منذ العصور القديمة ، وقد ارتبطـت مـنذ تلـك العصـور بدلالات خاصة ، انبثقت من طبيعة تلك الألوان وتأثيرها في الأعصـاب من جهة ، ومن ارتباطها بأمور يصادفها الإنسان في حياته أو التجارب التي عاشها أو مـرت به من جهة ثانية . فالأحمر مثلا لون حادّ ، شديد السطوع ولذا فهو يثير الأعصاب ، ويؤجـج المشاعر ، وهو مرتبط بلون الدم والنار والجواهر ... ، ولذا فقد اكتسب دلالات نفسية واجتماعية عديدة مرتبطة بهذه الأسباب .

وإذا انتقلـنا إلـى العصـر الجاهلي وجدنا الإنسان في ذلك العصر يختلف عن أترابه في الحضـارات الأخرى ، فقد استخدمت الألوان بدلالاتها السائدة في تلك الحضارات تبعا للمواطن التي يرد فيها اللون .

أمـا الشـعر الجاهلي فقد كان مرآةً لعصره ؛ فهو يعكس ما ساد فيه من أفكار وانفعالات وقـيم ، ولم يخرج الشعراء عن طبيعة هذا العصر ، وإن كانت هناك خصوصية لكل شاعر في اختـيار ألوانـه ، وتعامله معها وذلك لاختلاف الظروف التي تعرض لها في حياته . وقد كان الشـعراء علـى وعي بهذه الألوان بحيث " احسنوا من استخدامها في اللوحات التصويرية التي بـدت بألوانهـا ومعالمهـا أشبه بلوحات رسمت بريشة فنان ماهر"، كما وظفها في التعبير عن المشاعر ، وتصوير الانفعالات المختلفة .

ومـن النـتائج التـي توصل إليها البحث أيضا ما نجده من اتصال بين الإنسان الجاهلي والإنسان المعاصر ، فان الدلالات التي استخدمت للألوان في الشعر الجاهلي هي الدلالات التي مازلـنا نـتعامل معهـا ، ونعتقد بصدقها وتأثيرها علينا وهذا يؤكد الصلة القائمة بين الأجيال المتعاقـبة ، ويدعـم الـرأي الذي يرى أن في عقل الإنسان زاوية مظلمة يختزن فيها خبرات الأجيال السابقة ، وهو ما يعرف باللاوعي الجمعي للإنسان .

وأخيرا يمكننا القول إنّ الإنسان الجاهلي كان جاهليا في عقيدته الوثنية ولكن هذا لم يمنعه من الرقي الفكري والانفعاليّ ، فهو إنسان مدرك لما يحيط به من ظروف ،يؤرّقه سؤال الموت ومصير الإنسان يعيش في نطاق منظومة اجتماعية لها تقاليدها وأفكارها الخاصة . وتسري عليه أعـرافها وأنظمـتها ولـم تقتصر على الحياة البدائية القائمة على صراع البقاء وإشباع الغرائز الفطرية .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر و المراجع العربيّة

1. **القرآن الكريم**
2. ارمان ، ادولف : **ديانة مصر القديمة** . ترجمة : د.عبد المنعم أبو بكر و د. محمد أنور شكري . ط1 . القاهرة : مكتبة مدبولي . 1995
3. الأزرقـي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد : **أخبار مكة** . تحقيق : رشدي الصالح ملحس . ط1 . بيروت : دار الأندلس . 1983 .ج2
4. إسـماعيل ، حلمي محروس : **الشرق العربي القديم وحضارته** . الإسكندرية : مؤسسة الجامعة . 1997 ـ د.ط
5. د . إسـماعيل ، فـاروق : **الوثنية مفاهيم وممارسات** . مصر: دار المعرفة الجامعية . د.ط ، د.ت
6. الأصفهاني ، أبو الفرج (359هـ) : **الأغاني** . ط2 . بيروت : دار الفكر _ د.ت . ج4 ، ج9 ، ج11
7. الأعشى ، ميمون بن قيس : **ديوانه** . بيروت : دار صادر . 1994 ـ د.ط
8. افـريحة ، أنيس : **أوغاريت ، ملاحم وأساطير من رأس شمرا** . بيروت : دار النهار . 1980 ـ د.ط
9. امرؤ القيس : **ديوانه** . بيروت : دار صادر . 1998 ـ د.ط
10. د . بـدوي ، عـبده : **الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي** . مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1973 د.ط
11. التبريزي ، الخطيب أبو زكريا بن يحيى بن علي (502 هـ) : **شرح ديوان أبي تمام** . تحقيق محمد عبده عزام . مصر : دار المعارف . 1964 ـ د.ط . م1
12. ـ **شـرح القصائد العشر** . تحقيق : عبد السلام الحوفي . ط1 . بيروت : دار الكتب العلمية. د. ت
13. الثعالبـي ، أبـو منصور عبد الملك بن محمد : **فقه اللغة وسر العربية** . تحقيق: إملين نسيب . ط1 . بيروت : دار الجليل . 1998
14. الجاحظ ، عمرو بن بحر (255 هـ) **الحيوان** . تحقيق : فوزي عطوي . ط2 . بيروت : دار صعب . 1978 . ج2 ، ج3 ، ج5
15. الجاسـم ، أحمد موسى : **عبيد بن الأبرص ، دراسة فنية** . ط1 . بيروت : دار الكنوز الأدبية . 1997

16. جاكوبي ، يولاند : **علم النفس اليونغيّ** . ترجمة : ندرة اليازجيّ . ط1 . دمشق : مطبعة الأهاليّ . 1993

17. جودي ، محمد حسين : **تاريخ الأزياء القديم** . ط1 . عمان : دار صفاء للطباعة والنشر. 1997 . ج1

18. : **فنون العرب قبل الإسلام** . ط1 . عمان : دار المسيرة . 1998

19. الحارث بن حلزة اليشكري : **ديوانه** . شرح وتقديم : عمر الطباع . بيروت : دار القلم . 1994 ـ د.ط

20. ابن حزم الظاهري ، أبو محمد علي بن أحمد (456 هـ) : **الفيصل في الملل والأهواء والنحل** . تحقيق : د. محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة . بيروت : دار الجليل . 1985 ـ د. ط . ج5

21. حسين ، قاسم : **سيكولوجية إدراك اللون و الشكل** . بغداد : دار الرشيد . 1982 ـ د.ط

22. ابن حنبل ، أحمد : **المسند** . ط1 . بيروت : دار الكتب العلميّة . 1993

23. د . خليل ، أحمد محمود : **في النقد الجمالي ، رؤية في الشعر الجاهلي** . ط1 . دمشق : دار الفكر ، و بيروت : دار الفكر المعاصر . 1996

24. الخطيب الإسكافي ، الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله (421 هـ) : **كتاب مبادئ اللغة**. ط1 . بيروت : دار الكتب العلمية . 1985 ـ د.ط

25. الخويسكي ، زين : **معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم** . ط1 . بيروت : مطبعة لبنان. 1992

26. الدميري ، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى (808 هـ) : **حياة الحيوان الكبرى** . تحقيق : حسن الهادي حسن . مصر : مطبعة محمد علي صبح ـ د.ط . ج2

27. الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود : **كتاب النبات** . تحقيق : برنهاردلفين ، بفيسبادن . فرانز شتايز . 1974 ـ د.ط ج3

28. د . الرباعي ، عبد القادر : **الصورة الفنية في النقد الشعري** . ط11 . الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر . 1984

29. ـ **الطير في الشعر الجاهلي** . ط1 . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر . 1998

30. رياض ، عبد الفتاح : **التكوين في الفنون التشكيلية** . ط2 . القاهرة : دار النهضة العربية. 1983

31. زكي ، أحمد كمال : **الأساطير** . بيروت : دار العودة . 1979 ـ د. ط

32. زناتي ، محمد سلام : من طرائف العادات وغرائب المعتقدات . مصر : النسر الذهبي . 1966 ــ د.ط

33. زهير بن ابي سلمى : **ديوانه** . شرح : سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . لبنان : دار مكتبة الحياة . 1986 ــ د.ط

34. الزوزني ، ابو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين : **شرح المعلقات السبع** . بيروت : دار المعارف . 1988 ــ د.ط

35. ابن السائب الكلبي ، هشام بن محمد : **كتاب الأصنام** . تحقيق : د. محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبد القادر . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية . 1993 ــ د.ط

36. السواح ، فراس : جلجامش ، ملحمة الرافدين الخالدة . ط1 . دمشق : دار علاء الدين . 1996

37. ــــــــــــ **ــ لغز عشتار ، الألوهية المؤنثة و أصل الدين والأسطورة** . ط5 . دمشق : دار علاء الدين . 1993

38. ــــــــــــ **ــ مغامرة العقل الأولى** . دمشق : دار علاء الدين . 1988 ــ د.ط

39. د. أبو سويلم ، أنور : **دراسات في الشعر الجاهلي** . بيروت : دار الجليل ، ودار عمار . 1987 ــ د. ط

40. ابن سيدة الأندلسي ، أبو الحسن علي بن إسماعيل (458 هـ) : **المخصص** . بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر . د.ت ــ د. ط . السفر الأول

41. ابن سيرين : تفسير الأحلام الكبير . ط1 . بيروت : دار الفكر . 1996

42. الشــعراوي ، نــاهد أحمد السيد : **عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة** . مصر : دار المعرفة الجامعية . 1996 ــ د. ط

43. شيخو ، لويس : **شعراء النصرانية** . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين . 1926 د.ط

44. د. أبو صفيّة ، جاسر خليل : الدقّة العلميّة في مسمّيات الألوان . غير منشور

45. الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (310 هـ) : **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** . بيروت : دار الفكر . 1988 ــ د. ط . ج1

46. طرفة بن العبد : ديوانه . **شرح مهدي ناصر الدين** . ط1 . بيروت : دار الكتب العلمية . 1987

47. عاقل ، نبيه : **تاريخ العرب القديم** . ط2 . دمشق . 1972

48. د. عبد الرحمن ، نصرت : **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث** . عمان : مكتبة الأقصى . 1976 ــ د.ط

49. عبد المطلب ، محمد : **قراءة ثانية في شعر امرؤ القيس** . ط1 . مصر : الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان . 1996 ــ د.ط
50. عبيد بن الأبرص : **ديوانه** . شرح : أشرف أحمد عدرة . ط1 . بيروت : دار الكتاب العربي ــ د.ت
51. أبو عبيدة ، معمر بن المثنى التيمي (209 هـ) : **أيام العرب قبل الإسلام** . تحقيق : عادل البياتي . بغداد : دار الجاحظ للطباعة والنشر . 1976 ــ د.ط . ج1
52. ــ **كتاب الخيل** . تحقيق : د. محمد عبد القادر أحمد . ط2 . القاهرة . 1986
53. د. عجينة ، محمد : **موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها** . ط1 . بيروت : دار الفارابي . 1984 . ج1 ، ج2
54. العشماوي ، محمد زكي : **النابغة الذبياني** . مصر : دار المعارف . 1960 ــ د. ط
55. عطية ، محسن : **الفن وعالم الرمز** . مصر : دار المعارف . 1996 ــ د.ط
56. د. علي جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** . ط2 . بيروت : دار العلم للملايين ، وبغداد : دار النهضة . 1978 . ج5 ، ج6
57. علي ، رمضان عبده : **تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته إلى مجيء حملة الاسكندر الأكبر** . القاهرة : دار نهضة الشرق . 1997 ــ د. ط
58. عمر ، أحمد مختار : **اللغة واللون** . ط2 . القاهرة : عالم الكتب . 1997
59. عمرو بن كلثوم : **ديوانه** . عمر الطباع . بيروت : دار القلم . 1994 ــ د. ط
60. عنترة العبسي : **ديوانه** . بيروت دار الكتب العلمية . 1995 ــ د. ط
61. ابن فارس ، أبو الحسن أحمد (395 هـ) : **مقاييس اللغة** . تحقيق : عبد السلام هارون بيروت : دار الفكر . 1979 ــ د. ط
62. د. الفيومي ، إبراهيم محمد : **الفكر الديني الجاهلي** . القاهرة : عالم الكتب . 1997
63. ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم : **الشعر والشعراء** . بيروت دار الثقافة. ج1
64. لبيد بن ربيعة العامري : **ديوانه** . تحقيق : د. حنا نصر الحتّي . ط1 . بيروت : دار الكتاب العربي . 1993
65. الماجدي ، خزعل : **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ** . ط1 . عمان : دار الشروق . 1997
66. مجهول : **ألف ليلة وليلة** . ط6 . بيروت : دار مكتبة التربية . 1992
67. ابن منظور : **لسان العرب** . بيروت : دار صادر . 1955 ــ د.ط
68. النابغة الذبياني : **ديوانه** . بيروت : دار صادر ــ د.ط ــ د.ت

69. د. ناصف مصطفى : **الصورة الأدبية** . ط2 . بيروت : دار الأندلس . 1981

70. نبوي ، عبد العزيز : **المرأة في شعر الأعشى ، دراسة تحليلية** . مصر : دار الصدر . 1987 ــ د.ط

71. النســائي، أبــو عبد الله أحمد بن علي : **سنن النسائي** . شرح : جلال الدين السيوطي . المطبعة المصرية ــ د. ط ــ د. ت . ج8

72. د. النعيمي ، أحمد إسماعيل : **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام** . ط1 . القاهرة : سيناء للنشر . 1995

73. الــنمري ، أبــو عــبد الله الحسين بن علي (385 هــ) : **الملمع** . تحقيق : وجيه أحمد السطل. دمشق : مطبعة زيد بن ثابت . 1976 ــ د.ط

74. نوفل ، يوسف حسن : **الصورة الشعرية والرمز اللوني** . مصر : دار المعارف . 1995 د.ط

75. هارون ، بسّام ، وآخرون : **الرياضة والصحة** . ط1 . عمان : دار المسيرة . 1995

76. أبو يحيى ، أحمد : **الحيّة في التراث العربي** . ط1 بيروت : المكتبة العصرية . 1997

77. يوسف ، عمرو : **حقائق مثيرة عن السحر** . مصر : المركز العربي للنشر والتوزيع . د.ط ، د.ت

78. اليوســف ، يوســف : **مقــالات فــي الشعر الجاهلي** . دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي. 1975 ، د.ط

ثانيا : الدوريات

1. الألوسي ، محمود شكري : *رسالة في الألوان* . **مجلة المجمع العلمي العربي** . دمشق ج 3 ، آذار 1921

2. د. خليفة ، عبد الكريم : *الألوان في معجم العربية* . **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني** . السنة 11 . تموز ــ كانون أول 1987 / ع33

3. د. الديــك ، إحسان : *صدى عشتار في الشعر الجاهلي* . **مجلة جامعة النجاح للأبحاث** . عمادة البحث العلمي . م15 . حزيران 2001

4. د. الطيــب ، عــبد الله : *اللون والجمال في الشعر القديم* . **مجلة مجمع اللغة العربية** . القاهرة . ج74 . 1993

5. د. سيد كريم : *تفسير الأحلام عند المصريين القدماء* . مجلة **الهلال** / ع10 . السنة 83 أكتوبر 1975

6. ـــ *الرحلات الفرعونية في الأدب المصري القديم* . مجلة **الهلال** / ع7 . السنة 83. يوليو 1975

7. ـــ *السحر والسحرة عند قدماء المصريين* . مجلة **الهلال** / ع1 . السنة 83 . يناير 1975

8. د. عـــودة ، خليل : *المستوى الدلاليّ للون في شعر عنترة* .**مجلّة جامعة الأزهر بغزّة** . فلسطين : جامعة الأزهر بغزّة / ع 1 . ديسمبر 1996

9. يوســـف ، شـــريف : *السحر والسحرة عند البابليين والمصريين والعرب قبل الإسلام* . **مجلة التراث الشعبي** . العراق : وزارة الثقافة والفنون / ع5 . السنة 9 . 1978

ثالثا : الرسائل الجامعية المخطوطة

1. الأحمـــد ، أيمـــن محمـــد ســـليم : **الرق في العصر الجاهلي وأثره في الشعر** . الجامعة الأردنية 1988

2. حسن ، خيري صابر : **الفارس والموت في الشعر الجاهلي** . الجامعة الأردنية .1997

3. الحسن ، محمود علي : **الظعينة في الشعر الجاهلي** . جامعة اليرموك . 1984

4. الدرابســـة ، عـــاطف أحمـــد علي : **شعر عبيد بن الأبرص ، دراسة تحليلية** . جامعة اليرموك . 1988

5. دراغمـــة ، مـــريم هاشم سليمان : **ألفاظ الألوان في اللغة ، دراسة دلاليّة في علم اللغة الاجتماعيّ والنفسيّ** . جامعة النجاح الوطنيّة . 1999

6. ســـعدو ، زهية : **تطور المعاني الخمرية من العصر الجاهلي حتى أبي نواس** . جامعة الجزائر . 1986

7. شفاقوج ، لارا عبد الرؤوف : **أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره ، دراسة أدبية و نفسية** . الجامعة الأردنية . 1999

8. القرعان ، فايز عارف سليمان : **الوشم والوشي في الشعر الجاهلي** . جامعة اليرموك . 1984

9. النوتي ، أحمد موسى : **التشاؤم ومظاهره في الشعر الجاهلي** . جامعة اليرموك . 1991

رابعا : المراجع الأجنبيّة

1. Robert Graves: **Myths of Ancient Greece.** London: Joan Kiddell _ Monroe Cassell

Abstract

This study centers on colors in terms of their dimensions, and significance in the pre-Islamic poetry, and takes
example. It is divided into four chapters as follows:

Chapter one: it is divided into two fields .The first field deals with the significance of the colors in the human hereditary, but the second focuses on the pre-Islamic hereditary based on the myths and the ancient civilized history. The realization of the speculative connection between the pre-Islamic and human hereditary is one of the outcomes of this chapter. Both of them talk about one scale with regard to the colors and their significance concern. It clarifies the attitude of the human society that is adorer of the white, unwilling to the black, optimistic in the green, afraid of the red and confused with the yellow and the blue depending on its colorific degree. And then the bright yellow arouses joy and it is a sign of welfare and ease. Whereas, blue arouses pessimism and sorrow. On the other hand, the sky-blue represents clearness, calmness and sacredness. The Arabs are singular in dealing with the blue color which, as for them, symbolizes the enemy due to their relationship with their neighbors, the Romans, who were known as blue-eyed.

Another outcome of this chapter is the explanation of some calorific habits and traditions in our society the bride dressed in white, using the blue eye or bead for protection from the eye , and to henna the bride for instance . The whiteness of the dress was connected to the mother goddess who grants fertility for women. This goddess used to take the white cow as her emblem, and uses its white leather in its magical deeds However, the blue eye could be attributed to Artmes`s eyes, Roman goddess of hunting, who was known for her blue eyes. Yet, the henna is related to the blood that symbolizes the color of life especially when it is connected to the blood flowing out with the newborn baby.

The second chapter traces the colors in the pre-Islamic poetry and reveals color spots and the so view on those spots. The researcher noticed the color spreading extent in pre-Islamic poetry, and the difference in their connotations as the spot or the colored thing is different too. The poets loved the black color, for example, especially as it is the color of the eye or the hair, but they hated it as the color of the outer skin. They preferred the white animals in grants and travel. On the other hand, they chose the black ones for wars and hunting. The red was a color that arouses joy in clothes, houses, jewelry and henna. It is a sacred color when connected to fire and wine,

This ensures that the connotation of these colors an abstract idea, but because these colors to the various indicative fields. For example, the red refers to the blood which symbolizes killing, wars, sacrifice and redeem as well.

The third chapter is considered a pause to analyze the role of the colors in the literary picture. Colors played on outstanding role in it; the poet portrait without being colored accurately and carefully, to the extent that the poetic portrait became similar to oil painting. The poet made efforts to increase the same color with various names. And they cared for gathering more one color in the same portrait specially among the opposite colors, as in gathering between black and white in more than one place.

The colors that the poet chooses usually reflect his psychological atmosphere. As example, when Antara mentions his blackness, he chooses the musk, the oysters that cover the pearls and the black eyes, to be his resemblance. Whereas in assimilating the animals, which the women ride while travelling, he chooses the black raven.

In the fourth chapter, the dimensions of the colors were subjected. The religious or mythical dimension, the psychological and social dimension .One of the outcomes in this chapter is a new look to some pictures the poets used to repeat. An important one of those pictures is Antara`s when comparing himself with the gods in various places. The research referred to it rightly guided to the colorific contact between poetry and myths. One of these results is the explanation of praying for pain to the graves, which reminded us of ritual and his return to life in a shape of a green plant. In addition to the explanation of the woman s portrait and the praised in poetry on the basis of ancient myths.

The psychological dimension. However, was a reflection of color connotations in ancient belief, and pre- Islamic society. The new in this chapter is the privacy of every poet in choosing his colorific bundle and in dealing with it in conformity with his psychological attitude and private experience.

In addition to the above mentioned, the colors play a role in different social attitudes. The black dress, for example, was a sign of mourning, lowliness and poverty, the red for whores and the beloved. However, the green color was for heads and welfare and so on.

The study depended on the integrative approach. The resources were varied: dictionaries, literature, history and culture books besides another group of science books, in order to obtain the knowledge. Finally, I hope I was successful in achieving this study.

Praise be to Allah for guiding my steps.